المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء السادس من المجلد الثامن والسبعين

١ يونيو سنة ١٩٣١ — ١٥ محرم سنة ١٣٥٠

اساطين العلم الحديث

هري موزلي : كشّاف خريطة العناصر

لو لم يكن من آثار الحرب الكونية سوى اطفاء شعلة الحياة في هري موزلي لكفانا ذلك لوصمها بأنها اشنع جريمة اقترفها الناس
الاستاذ ملكن

احتفلت الدوائر الادبية العالمية في اوائل ابريل الماضي بازاحة الستار عن تمثال روبرت بروك الشاعر البريطاني الشاب الذي مات في طريقه الى ساحة الوغى في غليبولي ودفن في جزيرة سكيروس احدى جزائر الارخيل اليونانية. ولكن قلَّ من يذكر ان عالماً بريطانياً شاباً قتل فعلاً في شبه جزيرة غاليبولي فلم يذكره الا بعض اساطين العلم الذين يعرفون ان المبدأ الذي كشف عنهُ في علم الطبيعة الحديث كان افعل اداة في ايديهم لاكتشاف العناصر المجهولة والنفوذ الى بناء الذرّة. هذا العالم الشاب هو هري موزلي

من نصيب بعض الناس ان يقوموا في حداثتهم بعمل خطير ثم ينهمر غصن حياتهم

الرطب في كارثة من الكوارث . هذه هي سيرة موزلي الذي بلغ مدى حياته العلمية اربع سنوات فقط اخرج في اثنائها ما ادهش الثقاة. وقبل ان يذيع اسمهُ وتدرك قيمة مباحثهُ حق الادراك واراهُ التراب شهيد وطنيته

في صيف ١٩١٤ لما كانت مدرسة العلماء البريطانيين مشغولة بالبحث عن اسرار العناصر دخل احد تلاميذ الاستاذ تورنر بأكسفرد عليهِ ليودعهُ . كان هذا الفتى مسافراً الى استراليا لحضور مؤتمر المجمع البريطاني لتقدم العلوم . تصحبهُ امهُ وهي الآن زوجة الدكتور صلس استاذ الجيولوجيا بجامعة اكسفرد . وصل الى استراليا يوم ذاع نبأ اعلان الحرب بين انكلترا والمانيا . وكان الفتى يود لو اتيح لهُ الانضمام في الحال الى الجيش البريطاني ولكن المواعيد السابقة التي كان مرتبطاً بها حالت دون ذلك فاشترك في سدني وملبورن في اجتماعات العلماء وقرأ في احدها — برآسة رذرفورد — رسالتهُ في « طبيعة العناصر » . وهرع بعد نهاية المؤتمر عائداً الى وطنهِ لينتظم في الجيش . فعرض عليهِ ان يشتغل في احد معامل البحث التابعة للحكومة فرفض مؤثراً الخدمة في الميدان . وفي تلك الايام العصيبة لم يدرك رجال الجيش انهم بقبولهم طلبهُ يعرّضون للهلاك عقلاً من اعظم العقول العلمية التي انجبتها انكلترا — بل العالم — في العصور الحديثة . فألحق بفرقة المهندسين الملكيين وفي ١٣ يونيو سنة ١٩١٥ ارسل مع الجيش الذاهب الى غليبولي

كان الفتى صريحاً شجاعاً متواضعاً فكان محبوباً من رؤسائهِ واخوانهِ في الخادق والمضارب . وكان يبعث الى امهِ من ساحة الوغى برسائل ملؤها البشر والايناس. ضارباً صفحاً عن مصاعب الحرب ومخاطرها في ساحة الدردنيل. بل على الضد من ذلك كان يملأ رسائله بمشاهداته الطبيعية في تلك البلاد الغريبة التي تملوها غمامة الحرب المظلمة. لانهُ كان كأبيهِ يحب الطبيعة ويجد في مشاهدة ازهارها وأطيارها لذة لا توصف

ومضت الحال على ذلك مدة شهرين . ثم انقطعت رسائلهُ . وتلا ذلك النبأ المؤلم جاء من احد اخوانهِ الضباط قال:— اكتفي بأن اقول ان ابنك يا سيدتي مات موت الابطال — ملازماً مركزه الى النهاية. اصيب برصاصة في رأسهِ فمات في الحال . وبفقده فقدت الفرقة ضابط اشارات ممتازاً وصديقاً لا يعوّض. فعملهُ كان في نظرهِ مقدّماً على كل شيء آخر. ولم يسمح قط لادق التفاصيل بالمرور تحت عينيهِ من غير ان يمنحها كل عنايتهِ »

فلما ادرك ذلك الضابط هول المأساة التي أصيب بها العلم اذ نعى هنري موزلي الساقط في ١٠ اغسطس ١٩١٥ على مقربة من خليج سوفله وهو يخاطب ضابط فرقتهِ بالتلفون. ولكن طائفة العلماء ادركت ذلك فقال بلكن فيهِ : « . . . . . بحثٌ علمي قليل النظير سوف

يتاح لهُ الخلود في تاريخ العلم الحديث لما اتصف به من المهابة في التصور وبراعة في التنفيذ والامتحان وخطورة في النتائج المثيرة لسبل البحث التي اسفر عنها . قام به شاب في السادسة والعشرين ففتح امامنا النوافذ لنلمح ما هو جار في عالم الذرّات بوضوح ووثوق لم نحلم بهما من قبل. ولو لم يكن للحرب الاوربية من أثر سوى اطفاء شعلة الحياة في حياة هذا الشاب لكفى ذلك لوصمها بأنها اشنع جريمة اقترفها الناس في التاريخ». وقد كان موزلي في مماته كما كان في حياته وفيًّا للعلم اذ ثبت انهُ اوصى في وصيته التي كتبها في ميدان الحرب بكل ادواته العلمية وماله الخاص للجمعية الملكية لتستعملها في توسيع نطاق البحث العلمي

* * *

وُلد سنة ١٨٨٧ وكان ابوهُ هنري تدج موزلي استاذ تشريح المقابلة بأكسفرد مشهوراً بقوته الجسدية ومقدرته على تحمل اعباء التعب الجسدي والعقلي . فأجهد نفسهُ كثيراً في البحث واصيب بتصلب الشرايين فمات قبل ان يبلغ ابنهُ الخامسة من عمره (١٨٩١) . فنشأ الفتى بعناية امه نشأة جديرة ببيت العلم الذي ولد فيه فلما كان في الثالثة عشرة من العمر تمكن من دخول مدرسة ايتن . وكانت حياتهُ في المدرسة حياة فتى انكليزي سليم العقل والجسم. ولكن ميلهُ الى العلوم الرياضية ظهر لما كان في التاسعة فلما امتحن ثبت انهُ يعرف مبادىء علم الجبر مع انهُ لم يتعلمهُ قط . والظاهر انهُ كان يجالس في حداثته بعضُ دروسه الخاصة اذ كانت اختاه الكبريان تتعلمان علم الجبر. فتعلم اصوله من غير ان يدري . وهذا النبوغ في الرياضيات كان ذا اثر كبير في نجاح مباحثه الطبيعية بعد

وبعد ما قضى خمس سنوات في ايتن دخل كلية ترنتي في اكسفورد للتخصص في العلوم الطبيعية. ولكنهُ مع ذلك كان ذا عقل المعي متعدد النواحي. لانهُ قبل دخول اكسفرد كان قد تفوّق في درس الآداب القديمة . ولم يكن ذلك جديداً فيه اذ يظهر ان اسرة ابيه وأمه كانا مشهورتين بذكاء افرادها وتفوقهم العقلي. فجدهُ لابيه كان عالماً رياضيًّا طبيعيًّا فلكيًّا مشهوراً وجدهُ لامه كان متفوقاً بعلم البحار وخصوصاً الاصداف والمحار من حيواناتها واختهُ الكبرى تفوقت في اكسفرد في علوم الاحياء. فبحثت بحثاً خاصًّا في الجاشم الانبوبية في احد الاسماك. وقيل تخرج موزلي من اكسفرد كان قد صمم ان يقف حياته على البحث العلمي . فزار الاستاذ رذرفورد (اللورد رذرفورد الآن) في جامعة منشستر فوجد فيه هذا المعلم النافذ البصر مثلاً مجسماً نادراً للباحث العلمي المطبوع. فاقترح ان ينضمّ اليه للبحث في ظاهرات الاشعاع فطار موزلي فرحاً وعاد الى بيته ومسألة البحث العلمي تحت اشراف رزفورد تستهويه من بعيد. فلما تخرج من اكسفرد بعد سنة لم يلبث ان حضر احتفال الجامعة وتسلم شهادتهُ منها

حتى حزم امتعتهُ وتوجه الى معمل رذرفورد في منشستر. فوجد في مباحثهِ من اللذة المستهوية ما حمله على اعتزال منصب المحاضر الذي عرض عليهِ في جامعة اكسفرد، لكي ينفق كل دقيقة من وقتهِ في تجاربهِ

* * *

كان من حظ موزلي ان تمرن على البحث العلمي تحت اشراف باحث نمي — الاستاذ ارنست رذرفورد. فلما جاء اليهِ من جامعة اكسفرد يبّن له هذا نوع البحث الذي يجب ان ينصرف اليهِ اولاً وهو احصاء عدد الكهارب التي تنطلق من ذرّات الراديوم في اثناء انحلاله. فكان عند حسن ظن معلمهِ بهِ. وفي اجتماع الجمعية الملكية الذي عقد في السنة التالية اعلن ان كل ذرة من الراديوم تطلق ما متوسطهُ كهرباً واحداً قبل انحلالها. وكان السر وليم كروكس الكيماوي العظيم جالساً في كرسي الرآسة فأصغى الى المحاضر الفتى مشدوهاً ولما ختم كلامهُ هنأهُ الرئيس ببراعتهِ في توضيح موضوع عويص كهذا الموضوع

ثم تعرض لمسألة علمية دقيقة وهي تعيين مدى الحياة لاحد منبثات عنصر الاكتينيوم وهو من العناصر المشعة ومدى حياة المنبثات منهُ قصير جداً. فاستلزم البحث استنباط ادوات دقيقة حساسة جداً لقياسهِ. ففاز بحل المسألة مع الاستاذ فاجانس Fajens البولوني استاذ الكيمياء الآن في جامعة مونيخ بالمانيا. اذ اثبتا ان متوسط مدى الحياة لذلك المنبث الاكتينيومي الخاص انما هو جزء من خمسمائة جزء من الثانية!

وفي السنة التالية اقبل على مسألة اخرى دقيقة اذ حاول ان يعرف هل ثمة حدٌّ ما لقوة الشحنة الكهربائية في جسم معزول محتو على الراديوم. ذلك ان الراديوم يمضي في اطلاق كهاربهِ — وهي ذرات الكهربائية السلبية — فتزداد بذلك شحنة كهربتهِ الايجابية. فهل ثمة حدٌّ لقوة هذه الشحنة الايجابية؟ فثبت لموزلي ان الراديوم بفقدهِ المتوالي لطائفة من الكهارب يصبح ضغطهُ الكهربائي — اي الفرق بين قوة الشحنة الايجابية وقوة الشحنة السلبية — مائة الف ڤولط. وان هذا الضغط يمضي في ازدياد حتى يتوقف انبعاث الكهارب منهُ

وفي ذلك الاثناء وصل الى دوائر البحث الطبيعي نبأ فوز جديد للعلم. ذلك ان ماكس فون لاوْ الاستاذ في جامعة زوريخ كشف عن خاصة جديدة للبلورات لدى تعريضها لاشعة اكس. فاشعة اكس المكونة من امواج اقصر جداً من امواج الضوء (هي اقصر منها نحو عشرة آلاف ضعف) تتولد من وقوع كهارب على لوح معدني في انبوب كروكس. وانها اذا صوّبت الى بلورات من الملح العادي الصافي تفرقت كأن البلورة لوح محزّز يستعمل لتفريق اشعة الضوء grating. وقد اقبل السر وليم براغ وابنهُ على هذه الطريقة فاستعملاها

هنري موزلي في مكتبه

أمام الصفحة ٩٤٥

لمعرفة بناء الذرات داخل البلورات [1] وذلك بامرار اشعة اكس في شرائح رقيقة جداً من الاملاح وتصويرها لدى خروجها بالفوتوغراف . فتتبع موزلي مباحث براغ وابنه ثم استنبط طريقة لتصوير اشعة اكس المولّدة بوقوع الكهارب على لوح معدني في انبوب كروكس والمارّة بمدثر في بلورات . هذا هو نواة البحث العلمي العظيم الذي جعل موزلي بمثابة ضارب الرمل في الكيمياء الحديثة وبها كتب اسمه في عداد العلماء الخالدين

ذلك ان رذرفورد قبل ظهور مباحث فون لاو كان قد ذهب في بناء نواة الذرّة مذهباً جديداً فقال ان معظم كتلة الذرّة انما هو في نواتها . وان هذه النواة مكوّنة من ذرات عنصر الايدروجين الايجابية ومعها من الكهارب ما يكفي لجعل الذرة متعادلة تعادلاً كهربائياً [2] وكان قد وصل في تجاربه الى قياس شحنة الكهربائية الايجابية في نواة الذرّة . ثم بمساعدة تلميذيه جيجر Geiger ومارزدن Marsden تمكن من حساب عدد الشحنات الايجابية في ذرات الذهب وبعض العناصر الاخرى فوجد ان هذا العدد يساوي نصف الوزن الذري تقريباً . فكلما زاد وزن العنصر الذري زاد عدد الشحنات الايجابية على ذرته

على ذلك بنى رذرفورد نظرية جريئة اذ قال : ان الشحنة الكهربائية في كل عنصر يجب ان تختلف باختلاف وزنه الذري . فهل تتأيد هذه النظرية بالامتحان الدقيق ؟

هذه هي المسألة التي عهد بها موزلي — ابرع تلاميذه واكثرهم امعةً . فدعاهُ للتشاور معهُ على وضع خطة للعمل . فبحثا في جميع وجوهها بحثاً دقيقاً . وكان موزلي يعرف كما تقدّم ان الكهارب الواقعة على لوحة معدنية في انبوب كروكس تولد اشعة اكس . وان بركلا Barkla الاستاذ بجامعة لندن كان قد كشف عن طريقة لتعيين طول امواج اشعة اكس وقوة نفوذها باقامة الواح من الالومنيوم لامتصاصها . فنال على ذلك جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩١٧ . فكان على موزلي بحسب رأي استاذه ان يصنع الواحاً مختلفة من معادن مختلفة ويطلق عليها الكهارب لتوليد اشعة اكس منها . ثم يجري على طريقة بركلا للموازنة بين اشعة اكس التي تولدها العناصر المختلفة ومن ذلك يتوصل الى معرفة طبيعة الشحنة الكهربائية في نوى الذرّات

ادرك موزلي خطورة المسألة من البدء وكثيراً ما تحدّث الى امه في موضوعها على قلّة رؤيته لها . لانهُ كان يقضي معظم وقته في معمله . واذا كانت العبقرية قدرة الانسان على توجيه العناية الى عمله فموزلي عبقري متفوّق . ولم يندر ان يلقاهُ الطلاّب المبكّرون

---

(١) راجع مقالة العلم امس واليوم منتخف مايو صفحة ٥٢٩

(٢) بحسب هذا الرأي لذرة البور مثلا عشرة كهارب خمسة منها متحدة بذرات الايدروجين في النواة وخمسة منها تدور حول النواة وهكذا تتعادل الشحنتان الكهربائيتان في الذرة

خارجاً من معمله في الصباح بعد ما قضى الليل كله فيه منصبًّا على البحث الذي بين يديه . فهل مثل بليغ على رجل يعمل بحماسة دينية ولا يطلب جزاء الاَّ الفرح الناجم عن الانصراف كلَّ الانصراف الى العلم

اخذ انبوباً من انابيب كروكس وعلّق فيه امام القطب السلبيّ لوحاً معدنيًّا . ثم اطلق من هذا القطب تيَّاراً من الكهارب فلما وقعت على اللوح تهيج وولّد اشعة اكس الخاصة به. فجمع هذه الاشعة في شعاعة دقيقة وصوّبت الى بلّورة قاعة امام آلة سبكترسكوب (آلة حلَّ النور) فصوَّر الطيف الحاصل منها . وهكذا استنبط لنفسه طريقة لدرس اشعة اكس تفوق طريقة باركلا وذلك بادخال نتائج المباحث التي قام لها فون لاوْ وبراغ

فلما فاز في ذلك صنع الواحاً مختلفة من عناصر معدنية مختلفة مبتدئاً من الالومنيوم ليتمكن من درس اشعة اكس الخاصة التي يولدها كل عنصر منها

ولكن بدأت المصاعب تعترض سبيله . ففي كثير من الاحيان كان زجاج الانبوب يمتص اشعة اكس الموجهة في شعاعة الى البلورة خارجةً . فاضطر ان يفتح في جانب الانبوب فتحة خاصة لخروج الاشعة . ولكن كان يلزم ان يغطيها عادة لا تمتص الاشعة وتقفل الفتحة قفلاً محكماً . لان الانبوب يجب ان يكون مفرغاً في داخله. فاتخذ قطعاً من غشاء رقيق جدًّا من اسماء النور واستعمله لهذا الغرض . ولكن ضغط الهواء من الخارج عليه وفراغ الانبوب من الداخل كان يمزق الغشاء فكان يوزلي يعيد قفل الفتحة بقطعة اخرى منه ويعيد افراغ الانبوب من الداخل ويبدأ بتجاربه من جديد — عمل عملٌ يثير الاعصاب ولا يقوى عليه الاَّ شغوف بالبحث . ولما ظنَّ انهُ قد تغلّب على كل المصاعب وجد ان لابدَّ من وضع كل الادوات التي يستعملها في تجربته في اناء مفرغ منعاً لا متصاص اشعة اكس . فقام بما هو مشهور عنهُ من الهمة والذكاء بهذا العمل المعقّد

وقضى ستة اشهر لا يعرف للراحة معنى فتمكن في خلالها من درس ٣٨ عنصراً بهذه الطريقة — من الالومنيوم الى الذهب — فوجد ان كل عنصر يولّد اشعة اكسية مختلفة في طول امواجها عن الاشعة التي يولدها عنصر آخر . ووجد انهُ كلما زاد وزن العنصر الذرّي قصرت موجة الاشعة الاكسية التي يولدها وزادت قوة نفوذها للاجسام . ورتب نتائج مباحثه في رسوم بيانية فوضع لعناصر ارقاماً تقابل مكانها في جدول مندليف الدوري ووضع امام كل رقم منها مقلوب الجذر المكعب لاطوال اشعة اكس الخاصة بكل عنصر تقابله فثبت له انهُ اذا رتبت العناصر بحسب طول الامواج في اشعة اكس الخاصة بها صار في الامكان تعيين العدد الخاص لكل عنصر منها لان هذا العدد يكون كالجذر المالي من طول

الامواج بالقلب وهو دائماً عدد صحيح . واطلق على هذه الاعداد اسم «الاعداد الذرية» وهي من ١ الى ٩٢

بعد ذلك عاد موزلي الى اكسفرد ليسكن مع والدته : فاعدّ له الاستاذ تومزند غرفة خاصة للبحث في معمله الطبيعي حيث تمكن من العمل في هدوء واستقلال . هنا تمّ بحثه الخطير اذ قال لنفسه : — ما هو المعنى الذي تدل عليه هذه الارقام وهذه البيانات ؟ فسمع الطبيعة تهمس في اذنيه : — ان في الذرّة «كية» اساسية تزداد ازدياداً مطرداً منتظماً كلما انتقلنا من عنصر الى العنصر الذي فوقه ! ان هذه « الكية » لا بدّ ان تكون الشحنة الكهربائية الايجابية على نواة الذرّة

وفي سنة ١٩١٢ لما كان موزلي في السادسة والعشرين من عمره اذاع نتائج بحثه ملخصاً اياها في ما دعاه « ناموس الاعداد الذرّية » وعيّناً للعناصر جدولاً جديداً اقرب الى طبيعة العناصر الاساسية من جدول مندليف ووضع العالم بخريطة لعناصر الكون مبنية على الاعداد الذرية الاساسية لا على الاوزان الذرية . كان جدول مندليف قد خدم العلماء خمسين سنة وها هو ذا شاب العمر يبني خريطة جديدة لتكون مفتاحاً جديد للعلم

فالايدروجين في جدوله كان العنصر الاول وعدده (١) والاورانيوم العنصر الاخير وعدده (٩٢) . وليس وراء الاورانيوم عنصر آخر . هذه هي المرة الاولى التي يجرؤ فيها عالم على التصريح بمثل هذا . فموزلي قال انه لا يوجد في الكون عنصر غير هذه العناصر الاثنين والتسعين . وكان الباحثون في نصف القرن السابق قد اكتشفوا نحو سبعين عنصر لتنزل في ١٦ مكاناً من الاماكن الخالية في جدول مندليف . فاثبت موزلي بناموسه وجهازه ان معظم هذه العناصر ليس عناصر قط . كعنصر « نيونيوم » الذي اكتشفه اوغاوى الياباني ليحلّ في المحل الفارغ من الجدول الدوري الذي بعد المغنيس فاثبت رمزي ان هذه الدعوى فاسدة . وظلّ الامر معلقاً . الى ان جاء موزلي فاخذ لوحة بنه وصوّب اليها الكهارب في انبوب كروكس وصوّب اشعة اكس المتولدة منها الى بلورته وسبكترسكوبه فاستخرج له عدده الذرّي ووجد ان لا مكان له في « جدول الاعداد الذرية » . وهكذا نفى وجود عناصر الكورونيوم والنبيوليوم والكيوبيوم والاستيريوم

اضف الى ذلك أن جدوله احدث اتساقاً في ترتيب العناصر لم يكن ممكناً من قبل في جدول مندليف . فوجد مثلاً أن عدد البوتاسيوم الذرّي ١٩ وعدد الارغون ١٨ مع ان المعروف عن وزنيهما الذريين يجعل ترتيبهما عكس ذلك . وهكذا صحح مواقع الكوبلت والنكل . واليود والتلوريوم في الجدول . مثبتاً ان الاعداد الذرية هي اشياء اساسية في الطبيعة لان الاخذ

بها حلّ كثيراً من المشكلات القديمة وكشف عن كثير من المجهولات

ولما سمع الاستاذ جورج اربان Urbain الاستاذ في جامعة باريس بنبإ اكتشاف موزلي هرع الى اكسفرد للاجتماع به. فاربان المثّال والموسيقي والثقة في العناصر النادرة كان قد تحير في بعض العناصر التي عثر عليها في الركازات الكنديناوية وفي رمال كارولينا الشمالية وبعض غرانيت جبال الاورال . فبين عنصري الباريوم والتنتالوم كان خمسة عشر عنصراً متشابهة الصفات حتى يكاد يتعذر فصل الواحد عن الآخر . وهذه العناصر الخمسة عشر تعرف « بالاتربة النادرة » . واجه مندليف مشكلتها لما شرع في اعداد جدوله الدوري فقال ان تعيين موقعها من اصعب المسائل في الجدول الدوري لانهُ لم يجد لها مقاماً فيه

ولم يوفق بعدهُ احدٌ لحل مشكلتها. فقال كروكس : ان الاتربة النادرة تحيرنا في مباحثنا وفي نظرياتنا وتقلقنا في احلامنا . انها تمتد امامنا كبحر مجهول ، هازىء ، مضلّل ، متمم رؤى وممكنات غريبة »

اما جدول موزلي فكان فيهِ امكنة لكل هذه العناصر من عدد ٥٧ الى ٧١ وكان وجودها هناك طبيعيًّا لا تمثّل فيهِ ولا اصطناع . فدرسهُ لطيوف اشعة اكس التي تولدها هذه العناصر حلّ هذه المشكلة القديمة المعقدة. وهذا في حد ذاته عمل علمي عظيم

وذهب اربان الى موزلي واعطاه كتلة من الركاز امتزجت فيها مقادير ضئيلة جداً من عدد مجهول من عناصر «الاتربة النادرة » وقال له قل لي ما هي العناصر التي في هذه الكتلة فلم يطل موزلي انتظار الاستاذ . بل تحول الى جهازه الغريب ومضى في عمليته بالطرق التي وصفناها فوق ثم عمد الى دفتره وقام ببضعة حسابات رياضية معقدة ثم التفت الى الحكيم الفرنسي مبيناً سرّ الكتلة الصغيرة التي قضى في مزجها شهوراً — اذ قال لهُ ان العناصر التي فيها تمثل الاعداد الذرية ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ وهي عناصر الاربيوم والتوليوم والاتريوم واللوتيسيوم

دهش اربان — ولكنهُ اراد ان يمتحن العالم الانكليزي بسؤال اصعب وأدق . فالتفت اليهِ وقال : هل تستطيع ان تبين لي المقادير النسبية في هذه الكتلة من العناصر المختلفة التي تتركب منها ؟ وجه اليهِ هذا السؤال وهو يظن ان هنا حجر العثرة . ولكن موزلي اجاب بدقة تركت العالم الفرنسي مشدوهاً فعاد الى فرنسا يتغنى بأهمية هذا الفتى . فلما اتصل بهِ نمي موزلي كتب الى السر ارنست رذرفرد ذاكراً زيارتهُ لهُ في اكسفرد قائلاً : اني عجبت واعجبت لما زرتهُ في اكسفرد اذ وجدت شابًّا حديث السن قادراً على ان يتم عملاً عظيماً كهذا . ان ناموس موزلي حقق في بضعة ايام نتائج بحثي المتواصل مدى عشرين سنة »

المعركة اليومية في الجسم البشري

قائد في معارك الصحة والمرض يرسم خطط الهجوم والدفاع

للدكتور علي توفيق شوشه بك مدير معامل الصحة السنوية (١)

بدأ الدكتور شوشه بك محاضرته بتعريف العدوى والمرض بقوله ان المناعة اما طبيعية وراثية — كالامراض الطفحية التي تصيب الانسان ، مثل الحصبة والحمى القرمزية ولا تصيب سائر الحيوانات وكذلك بعض امراض تصيب الحيوانات كالطاعون البقري وكوليرا الخنازير ولا تصيب الانسان — او مناعة جنسية — كالحمى القرمزية فهي لا تصيب الاجناس ذوي البشرة السوداء الا نادراً مع ان الاجناس البيضاء شديدة التعرض لها — او مناعة فردية — كالحمى الاسبانيولية تدخل بيتاً وتعدأ فيصاب بها بعض افراد الاسرة ولا يصاب البعض الآخر رغم اتصالهم المباشر بالمصابين — والمناعة الفردية ليست مطلقة بل هي نسبية تختلف باختلاف الاحوال والطوارىء وتتوقف على الاستعداد الشخصي وقوة مقاومة المرض وهذه المقاومة تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالحرارة والبرد والجوع والتعب. ثم انتقل الى الاحوال الوراثية اي اباد الميكروبات وتكاثرها او لاضعافها وابادتها. ووصف العداء بين الجسم والميكروب وان الجسم لا يشبه في تكوينه ونظامه احدى ممالك العالم لانه يتكون من خلايا اشبه ما تكون بالكائنات الحية ... وكما ان لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تهيأ ووسائل متنوعة لصد العدو او القتال به — كذلك لمملكة الجسم لها حدودها ... ووسائلها في الكفاح والقتال». ثم وصف الحواجز التي تمنع وصول الميكروبات الى داخل الجسم واهمها الجلد والغشاء المخاطي والاهداب في بعض التجاويف التي تتحرك حركة موجية فتقذف ما يستقر عليها من الميكروبات والاجسام الغريبة واحماض المعدة والامعاء. ولكن اذا نفذت الميكروبات هذه الحواجز ودخلت الجسم فما هي المدة التي اتخذها الجسم لمكافحتها — هذا موضوع الجانب الثاني من المحاضرة والى القراء نصه :

﴿ الخلايا البالعة ﴾ الجسم البشري كجميع الكائنات الحية يخضع لقوانين الطبيعة . وكل كائن حي يعمل لحل وهضم كل ما يدخل اليه من مواد عضوية او غير عضوية وذلك بواسطة عملية الهضم وتحويل هذه المواد الغريبة الى اخرى تدخل في تركيبه او بنيانه . هذه العملية تشاهد في ابسط صورها في الحيوانات المركبة من خلية واحدة وهي التي تسمى الاميبات. فهذه الاميبات تزحف بواسطة ارجل اطلق عليها اسم الارجل الكاذبة جادة في البحث عن غذائها المكون من الميكروبات والطحالب فتأخذها في داخلها وتهضمها . ولما كانت عملية الاغتذاء هذه قاصرة على الالتهام فالبلع فقد اطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة او البلعات كما اننا اطلقنا على هذه العملية اسم «البلعمة»

(١) من محاضرته في مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية وقد نشرت بر متها في كتاب المجمع السنوي

وليست عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات الدنيئة بل يكاد يكون في كل حيوان بعض من الخلايا ما زال محافظاً على هذه الصفة . فمثلاً توجد في جسم الانسان خلايا الدم البيضاء والخلايا المبطنة لتجاويف البطن والصدر والاوعية الدموية والليمفاوية وهي خلايا لها قدرة على التهام الاجسام الغريبة وبلعها وهضمها . اما وقد عرفنا انهُ يوجد بالجسم خلايا لها قوة بلع المواد الغريبة عنهُ فلنعد الآن الى نقطة دخول الميكروبات الى الجسم

دعونا اذن نتصور ان واحداً منا قد وخزتهُ ابرة، فاذا كانت الابرة نظيفة فان الانسان يشعر فقط بالالم الوقتي ومن ثم يلتئم الجرح وينتهي الامر . ولكن الحال تختلف اذا كانت الابرة ملوثة تحمل بعض الميكروبات وقدر لها ان تنفذ من الجلد الى داخل البدن. فاذا كانت هذه من الميكروبات الحاطبة الرمامة التي تتغذى على المتخلفات النباتية او الحيوانية فان الامر لا يهم اوت او تتحلل بواسطة خلايا الجسم الحية اما اذا كانت من الميكروبات المرضية التي تتذوق الدم وتستسيغه وتعرفت حلاوة ما يحتويه البدن من محاسن الغذاء فاستطابتهُ وتعففت عن غيره من الطعام — نقول اذا كانت كذلك فلها شأن آخر اذ لا يمكن لخلايا الجسم ان تتخلص منها بسهولة لانها تتميز عن تلك بسمومها التي تهاجم بها الخلايا فتعطلها وتشلها عن القيام بواجبها

﴿الحرب بين الميكروب والخلايا﴾ وصل بنا الحديث الى ان الميكروبات وهي اعداء الجسم قد تمكنت من اختراق الحواجز الامامية والاستقرار في الجسم ولم يبق امام قوة الدفاع وهي الخلايا الا ان تمتشق حسامها وتخوض غمار حرب ضروس لا رحمة فيها ولا شفقة، حرب للحياة او للموت ، لا تختلف في مبدائها وآلاتها عن حرب الجيوش البشرية كما ان جنودها لا تنقصهم آيات البطولة والتضحية . والآن اسمحوا لي ان اروي لكم قصتها كما نراها تحت الميكروسكوب

تدخل الميكروبات مملكة الجسم فتجد نفسها في ارض جديدة غريبة عنها فتجمع امرها وتلم شملها ثم تسطو على الخلايا المجاورة لها تبتز منها غذاءها ثم تتكاثر على طريقتها بالانفلاق الى اثنين ثم الى اربع وهلم جرًّا وبعد ذلك الاستعداد تبتدىء في هجومها فتفث من اجسامها سمًّا قاتلاً ترمي بهِ افراد المنطقة التي احتلتها ، واذ ذاك لا تستطيع الخلايا ان تقف مكتوفة اليدين بل تعمد على الفور للدفاع عن نفسها فتقذف عليها سيلاً من المصل الدموي يهون من مفعولية هذا السم ويخفف من حدته . ثم تتجلى المعركة الاولى عن قتلى واشلاء من خلايا الجسم ، ثم تتحلل هذه الاشلاء الى عناصرها الاولية كما يتحلل كل حي عند مماته وتحملها مياه الوطن الى كل جهة من جهاتها كانها نذير بالخطر الذي يتهدده وبالكارثة التي

حلت به . ولا غلو ان نرى الحماة تخرج من معاقلها وما تلك الحماة وما هؤلاء الجنود الا الخلايا البيضاء او البلعمات التي ذكرناها والتي يقع عليها عبء الدفاع عن ارض الوطن اذ لا يمضي زمن طويل حتى تتمدد الاوردة الشعرية فيزيد مقدار الدم صوب المنطقة المصابة وعند ما تصل البلعمات السابحة في مجرى الدم الى تلك المنطقة تنتقل اليها وتدخل الى ميدان القتال زاحفة كما تزحف الاسيا فرادى في اول الامر ثم جماعات بالمئات وبالالوف ، وعندئذ تصبح الحرب سجالاً فالميكروبات تنفث سمومها والجسم يرسل عملها بسيل من المصل فتنتفخ المنطقة المصابة وتحمر وذلك ما تعرفونه بالالتهاب . ثم تقترب البلعمات رويداً رويداً من العدو وتأتيه من امامه ومن خلفه ومن الجناحين وتحوطه من كل النواحي ، ثم يأتيها المدد من آن لآخر فتزداد عدداً وتشتد حصاراً عليه ثم تبني سوراً منيعاً حوله يفصله عن باقي الجسم والى هنا تكون قد انتهت المناوشات والمناورات وتبتدئ عندئذ المجزرة البشرية فتتقدم كل بلعمة الى الميكروب الذي امامها تطبق عليه بجسدها حتى تبتلعه في جوفها لتقتله وقد ينجح الكثير من هذه البلعمات في قتاله وقد يموت البعض شهيد الواجب

ولكن العدو لا يستسلم لليأس ولا يسلم بسهولة بل يعود الى تنظيم صفوفه من جديد بعد ان يملأها بمحاربين آخرين بدل العشرة مائة وبدل المائة الفاً — هذا من ناحية الميكروب اما من ناحية الخلايا فانها ايضاً تصلها النجدة والمدد وتستأنف المعركة من جديد على اقصى ما يكون من الشدة ، ولكن الى متى تستمر فرق الجيوش امام بعضها بعضاً تتطاحن وتتقاتل ، بل الى متى تحتمل المملكة هذه الحرب ؟ لا يمكن ان تستمر الحال طويلاً واذن لا مندوحة من التعبئة العامة لكل محارب وكل من يمكنه حمل السلاح

الآن تهرع كل بلعمات الدم الى القتال على جناح السرعة وتخرج الرديف منها والمخزون في مستودعات الطحال وتخاض المعركة الى ميدان القتال — وهنا نسمع دقات ناقوس الخطر وهو الجسم في حمّى »

لقد حشد الجسم الآن آخر رجل في تكتاته للقيام بآخر مجهود فاما نصر واما هزيمة وهل يتم له النصر يا ترى ، من يدري ربما كان كذلك لان العدو وان كان قد زاد عدداً الا انه لم يتوغل كثيراً في ارض الوطن بل اصبح محصوراً في مكانه

واذ كانت مملكة الجسم قد جربت حرب الخنادق ولم تفلح فيها كثيراً فلم يبق بدٌّ من تغيير خطة الحرب كما يفعل كل قائد ماهر في مثل هذه الاحوال

الآن تبتدئ المملكة في تضحية جزء منها لكي يسلم المجموع ومن ثم يقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق البلعمات ايضاً فهي تبتدئ في اتلاف النسيج المصاب اولاً بقتل الخلايا

وثانياً بهضمها وتحويلها الى عصيدة سائلة فينشأ عنهُ تجويف تملوء بهذا السائل — اوتعلمون ما هو هذا التجويف ؟ هو الخراج الذي يظهر في موضع حصار الميكروبات ، والسائل هو ذلك الصديد الاصفر المكوّن من انسجة مهضومة وآلاف من البلعمات وملايين من الميكروبات ، ثم يأخذ هذا الخراج في الازدياد وكلما ازداد حجماً ازداد ليناً وميعاناً حتى اذا لمس احس الانسان بترجرج السائل فيهِ . وليت عمل البلعمات يقف عند هذا الحد بل انها تتجه صوب الجلد فتتلفه وتهضمه من أسفل حتى ترق طبقته وتحدث ثغرة فيه فيندفع الصديد الى الخارج ومعهُ الميكروبات

الآن والآن فقط قد طرد العدو خارج المملكة بعد معركة حامية كان النصر فيها غالياً فقد كلفها ثمناً غالياً وتضحيات في افرادها ولكن كل ذلك يهون ما دامت المملكة قد انقذت

وهنا يهدأ بال الجسم على مصيرهِ وكيانه ولكن البلعمات — هؤلاء الحماة الاشداء لا يهدأ لهنَّ بال وفي الجسم جراح فيعمدن الى عملية الاندمال لانهن ابناء المملكة البررة وعدتها في الحوادث والملمات ويجب عليهن ان يطهرن ميدان القتال من جثث اعدائها ومن أشلاء مواطنيهن حتى يمكن للجلد أن يتجدد ويسد الثغرة ويكون ذلك باحداث ندبة تبقى على ممر السنين والاعوام كنصب تذكاري ينبئ بمكان المعركة والنصر الذي فاز بهِ الجسم ضد اعدائهِ المغيرين

عند ما وصفت لكم المعركة الاولى تلت لكم ان البلعمات تقترب رويداً رويداً من العدو وتأتيه من امامه ومن خلفه ومن الجانبين وتحوطه من كل النواحي وتحاصره الى ان تبني من نفسها سوراً منيعاً حوله يفصله على باقي الجسم ولكنهُ قد يحدث ان يكون العدو من شدة البأس والقوة ما يمكنهُ من ان يحطم جزءاً من هذا السور وتنساب بعض جنوده الى داخل المملكة . فما العمل اذن — هل تترك المملكة ينساب في احشائها فيعيث في البلاد فساداً يودي بحياة كل من يقابله في طريقه من الاحياء — ام هل اتخذت المملكة اهبتها لمثل تلك الكوارث — نعم — انها لم تكن غافلة عن ذلك منذ نشأتها لان في داخليتها حصوناً وقلاعاً ملأى بالجيوش على اتم استعداد لمثل هذا اليوم العصيب وتلك الحصون والقلاع هي العقد اللمفاوية المنتشرة في جميع انحاء الجسم على طريق المجاري اللمفاوية ، فاذا ما اخترق العدو جوابها الطبيعية وتخطى خط الدفاع الاول فان مجاري الليمفا تحمله اليها فيلاقي حتفه فيها وذلك لانها عبارة عن تكنات ملأى بالبلعمات المقاتلة

ولكي اقرب ذلك الى الفهم اقول ان اغلبكم يعلم انهُ عند حدوث بعض الجروح في اليد او الذراع ينشأ عن ذلك ورم صغير ، ثم تحت الابط وما ذلك الورم الصغير الا عبارة عن غدد ليمفاوية تعمي ، تقسما الدفاع عن الجسم فتملأ البلعمات التي تقف في سبيل الميكروبات المغيرة عليهِ

ولكن قد يحدث ان العدو، بفضل قوته وضعف مقاوميه قد يتخطى ايضاً خط الدفاع الثاني كما يحدث احياناً في الحروب الدامية اي ان القلاع (الغدد الليمفاوية) لا تقوى على صد غارات الاعداء المهاجمة، فاذا يكون العمل بعد ان اصبح العدو الآن حراً طليقاً في حركاته، لا جنود امامهُ تقاتلهُ ولا حصون تعرقلهُ، بل هو ينساب في البلاد سارياً في طرقها الرئيسية اي في الاوعية الدموية ملتمساً الغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها . اذن الويل الويل لهذه المملكة البائسة التي تصبح فترى ان في كل زاوية من زواياها وفي كل مقاطعة من مقاطعاتها اجنبياً يذيقها الهلاك والردى

ولكن اذا كان هذا هو الحال في ممالك الامم الا انهُ ليس كذلك في مملكة الجسم البشري القوية المنظمة وما ذلك الا لانهُ لم يتضب بعد معين دفاعها ومازالت تحتفظ بوسائل اخرى للدفاع — ان في دمها الذي يجري من قمة رأسها الى اخمص قدمها ومن طرفها الايمن الى طرفها الايسر من الوسائل ما هو اشد قوة واكثر فعلاً من الوسائل الاخرى التي شاهدناها الى الآن وهذه الوسائل المدخرة للايام العصيبة اي عند ما يتسمم الدم وتستعر النيران فيه — فات الدم والاحرى بنا ان نقول مصل الدم اي ذلك الجزء المائع منهُ الذي يمكن فصله بعد تخثره من الخلطة الدموية — ان هذا المصل يحتوي على مواد مهلكة تبيد الميكروبات سماها العلامة (بوخنر) الذي كان اول مكتشف لها (الالكين). والتي يمكن ان يعبر عنها بالعربية بالمواد الداحرة. وبالطبع لا يمكننا مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما نشاهد ظاهرة البلعمات تحت الميكروسكوب ولكن يمكن تتبعها بواسطة التجربة وذلك انهُ اذا اخذنا جزءاً من المصل الدموي وأضفنا اليه قليلاً من الميكروبات الحية ثم اخذنا من هذا الخليط نماذج في فترات متعددة وزرعناها على البيئات الملائمة لنمو هاته الميكروبات رأينا ان عدد الميكروبات النامية على المستنبت يقل شيئاً فشيئاً حتى ينتهي الامر الى عدم الثور عليها لانها تكون قد ماتت وأبيدت من جراء تأثير المصل فيها — كذلك توجد في المصل مواد اخرى اقل فعلاً من المواد الداحرة فهي لا تهلك الميكروبات وتقتلها ولكنها تشل حركتها فقط وتجمعها بعضها على بعض كتلاً كتلاً مانعة اياها من المرح داخل البدن وفي الوقت نفسه مسهلة للبلعمات التهامها وتدميرها — هذه المواد هي التي اكتشفها كل من «جروبر وده هلم» ويطلق عليها اسم (الاجلوتينات او المنزنات)

﴿ الوقاية النوعية ﴾ ان البدن لا يقف حيال العدوى عند حد الاستعانة بوسائله الطبيعية في مكافحتها بل هو قادر ايضاً على تجديد ما فقده من المواد الواقية ومن البلعمات المكافحة التي تكون قد سقطت في ساحة القتال اثناء الدفاع ولكن عملية التجديد لا تقف

عند حد الاستعاضة فحسب بل انها تنزع في العادة الى التعويض المفرط — وانهُ لمن العجب النظم في الكائنات الحية ما نشاهدهُ فيها عند مقاومتها للعدوى كيف انها تتعلم أن تقاوم بنوع خاص صنف هذه العدوى ، فمثلاً اذا كانت العدوى حمى تيفودية وجه البدن كل قواه الى تحضير المواد الواقية ضد ميكروب التيفود وان كانت العدوى كوليرا مثلاً قام البدن بتحضير المواد الواقية ضد حمات الهيضة الاسيوية وهكذا اي ان الوقاية تصح كما يعبر عنها « وقاية نوعية »

﴿ الخلاصة ﴾ والخلاصة اننا حقًّا مدينون الى مقاومة وقدرة خلايا الجسم وبالحري الى الخلايا الاكلة (البلعمات) في الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة . وهذه الخلايا لا تقوم بعملها الجليل الذي وصفناه الاَّ لان تلك هي وظيفتها التي اختصت بها بين افراد مملكة الجسم البشري ولولا هذه الاداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل

ولقد عرفتم الآن كيف ان الجسم يبيد في حياته اليومية الملايين من الميكروبات من دون ان نشعر بذلك ومن دون ان يعلن عن نفسه او يفتخر بعمله انهُ في حرب صباح مساء مع اعدائه مضحياً بالآلاف من افراده في سبيل الحياة ، ولكنني اشعر انكم تتساءلون فيما بينكم قائلين اذا كان الامر كذلك فلماذا اذن تحدث الامراض المعدية بكثرة ولماذا تتاب الانسان الاوبئة بين حين وآخر — والجواب على ذلك هو انهُ في بعض الاحيان يكون هجم الميكروبات بشدة وقسوة بحيث يخرّ الجسم فريسة امامها قبل ان تأتيه النجدة من جنوده . على انهُ اذا كان هناك سبب آخر يجب ان تعرفوه وتتخذوا الحيطة لهُ فذلكم السبب هو تقصير الجنود ونقص مهمات الدفاع والكفاح . والمعروف ان نقص وسائل الدفاع يكون عادة في الممالك الضعيفة وكذلك الحال في مملكة الجسم الضعيفة فان وسائل الدفاع لديها تكون ايضاً ناقصة — اولا تلاحظون ان نسبة الامراض المعدية بين الفقراء اكثر منها بين الاغنياء — ولمَ ذلك ؟ اليس لان افراد هذه الطبقة هم بكل اسف ضعاف في تركيب بنيتهم ، ضعاف في اجسامهم لسكناهم في المنازل الضيقة التي لا تتخللها الشمس ولا يدخلها الهواء ، ضعاف بغذائهم القليل الضئيل ضعاف بتعبهم ونصبهم في الاعمال الشاقة المنضبة التي يجب ان يقوموا بها لكسب معاشهم . فاذا عرفنا ذلك اصبح لزاماً علينا ان نقوّي اجسامنا ونزيد في مكانة ابداننا كي نعطي جنوده القوة والنشاط للكفاح والدفاع

فالى العمل بنظام والى الراحة بقسط وافر والى الخلاء حيث الشمس والهواء ، والى الرياضة البدنية حسب مقتضيات المزاج — اننا بهذه الوسائل نكون حقًّا قد قمنا بالواجب علينا نحو اجسامنا وهيأناها للدفاع عن اعدائها

لورنس في الميزان

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرفة لورنس باللغة العربية

اللغة العربية اصعب على الاوربيين من اللغات الاوربية على ابناء العرب . ولئن قام عدد من المستشرقين يجيدون اللغة العربية في المحابر وبين طيات الكتب فان الذين يعرفونها منهم حية في الافواه قليلون . ولم يهتم لورنس لعربية «ضرب زيد عمراً» اهتمامه لعربية القبائل في المضارب . واذكر اني سمعته مرة واحدة يبحث عن اصل كلمة عربية في المعاجم وذلك عقيب ليلة في القاهرة قضاها في فندق كبير مُرهِق ولم يذق فيها طعم الكرى من شدة اللدغ فقلت لهُ ان الاحياء التي تعيش طفيلية على غيرها ثقيلة ومزعجة خصوصاً ما كان منها من ذوات المراشف التي تمتص الدماء الزكية فاقر كلامي وقد زعم ان البقّ لم ينتقل وحده من الشرق الى الغرب بل نقل اسمه معهُ الى بلاد الانكليز . واخبرني المجاهد السوري الباسل نزيه بك المؤيد العظم انهُ سمع لورنس يتكلم العربية مع قبائل الحويطات في سنة ١٩١٨ فكانت لهجتهُ بدوية قلّما يجيد مثلها اجنبي ولعل ذلك ناشأ عن تمرينه المديد في ايام الثورة . وهذا ما كتبهُ لورنس عن معرفته باللغة العربية في كتاب ارسله الى صديقه جرينز :

« قرأت وانا في جامعة اكسفورد قبل سفري لاول مرّة كتيباً في النحو العامي وفي غضون السنين الاربع التي تلت ذلك اضفت الى هذا الموجز النحوي معجماً لا يستهان به من كلمات ذات فائدة في الابحاث الاثرية اجمالاً — اربعة آلاف كلمة

« ثم اني في السنتين الاوليين من الحرب ما تكلمت كلمة واحدة من هذا المعجم تقريباً، وبالنظر الى اني لم اتعلم احرف الكتابة والقراءة — ولما اتعلمها — فاني كنت انسى هذا المعجم كله بطبيعة الحال . فلما انضممت الى «فيصل» كان عليّ ان اباشره من جديد بلهجة جديدة مختلفة كل الاختلاف . وبالساعي حلتا كنت انتقل من لهجة الى اخرى بحيث اني لم أستقر في مكان لاتعلّم واحدة منها على الاصول . وكذلك فان تعلمي كان بطريقة الاذن — من غير علم باللغة المكتوبة — فكان تعلمي خطأ وكان اساتذتي خدّامي فكان في

انفسهم من الحرمة لي ما منعهم من الاستمرار على تنفيذي الى اغلاطي وقد استسهلوا ان يتلموا عريتي على ان يطووني عريشهم. واخيراً كان تحت تصرفي اثنا عشر الف كلة . وهذا مبلغ لا بأس به في الانكليزية ولكنهُ لا يكفي في العربية . لانها لغة واسعة جدًّا . وكنت أركب هذه الكلمات بعضها مع بعض بصرف وتحوير من اختراعي . وقد دعا فيصل عريتي (تشرُّداً مستمرًّا) فكان يستفزني للكلام تلذُّذاً . ولم اسمع في حياتي رجلاً انكليزيًّا اتقن اللغة العربية اتقاناً يوهم سامعيهِ لمدة خمس دقائق انهُ من ابناء قطر من الاقطار العربية »

خطط لورنس الحربية

تجاوز عدد الجيش العثماني في شمال الحجاز في المدينة وما يتصل بها من المواقع العسكرية على السكة الحديد الحجازية الى محطة (تبوك) ثلاثين الفاً، وكان هذا الجيش مزوَّداً بأمضى السلاح ولا سيما بالمدفعية السريعة الطلقات البعيدة المرمى مما كاد يثني عزم البدو عن المضيّ في الحرب مع الحلفاء ، وكان على قيادته رجل عنيد من اهل الشكائم المستعصية التي لا تخضع للنصيحة عرفته في دمشق واسمه فخري باشا ، وقد استحوذت عليهِ وعلى رهط الاتحاديين من زملائه الاعتبارات السياسية فصرفت اذهانهم عن الاعتبارات الفنية لانهم صموا آذانهم عن سماع التقرير المهم الذي رفعته هيئة ضباط الاركان حرب التي امَّت (المدينة) في سنة ١٩١٧ بعد ما درست وضعها الحربية درساً فنيًّا دقيقاً فكانت النتيجة التي اوصت بها وجوب اخلاء (المدينة) والمواقع العسكرية على خط السكة الحديد حتى (معان) واستخدام هذا الجيش اللجب في تأييد الحملة على مصر. غير ان الذين استولت عليهم فكرة « الجامعة الاسلامية » اللذيذة تعذرت عليهم رؤية النتائج المنطقية التي يؤدّيها اهل الفن فاستسلموا للعاطفة بدلاً من التسليم للمنطق وفضلوا ان يطمروا جيشاً قويًّا تحت جدران (المدينة) ارضاء للمتحمسين على صحبه لتقوية الجبهة في سيناء . واذ كانت فرنسا تصد الالمان حلفاء المسلمين عن اراضيها بالتونسيين والجزائريين والمراكشيين وانكلترا تفتح عاصمة العباسيين بالهنود وتشن الغارة على فلسطين بواسطة سكة حديدية بناها المسلمون كان الجيش العثماني في شمال الحجاز يموت من الجوع والمرض في سبيل فتوى اصدرها خير الدين افندي الاركوبي من الاستانة « بالجهاد المقدس » . وهكذا حقق قواد هذا الجيش اغراض اعظم المنتهية الخطة الباردة التي اختطها لورنس تحقيقاً تامًّا. قال لورنس في كتابه « ثورة في الصحراء » صفحة ٦٦ وعلينا ألا نكتسح (المدينة) لان الترك لا يخشى منهم ضرراً ما داموا فيها . وهم اذا كانوا في معسكرات الاسر في مصر كلفونا طعاماً وخفراً. وهنا ان يبقى اكبر عدد منهم في (المدينة) او في اي مكان

سحيق آخر وامنيتنا هي ان تستر سكتهم الحديد على عملها البسيط يعني ان تبقى في قيد الحياة فقط مع اكبر خسارة يتحملونها وارتباك يعانونهُ . وتجبرهم حاجتهم الى الطعام على ملازمة السكة الحديد، فأهلاً بهم وسهلاً في مدة الحرب في سكة حديد الحجاز وفي سكة حديد شرق الاردن وفي سكة حديد فلسطين وسورية ما داموا قد سلمونا ثمانمائة وتسعة وتسعين جزءاً من الالف من مجموع العالم العربي . ومتى استجدَّ في التركي ميل الى الجلاء على عجل كي يتمكن من الارتكاز في القمة الصغيرة التي يستطيع التسلط عليها فعلينا حينئذ ان نعيد اليه ثقته واطمئنانه بتقليل الحملات التي نوجهها عليه فيكون حقه والحالة هذه حليفاً لنا لان ضالته المنشودة هي الاحتفاظ بما يمكن من ولاياته القديمة ، وهذا الفخر بميراثه الامبراطوري سيبقيه على وضعته الحاضرة السخيفة يعني انهُ كلهُ جوانب معرَّضة للهجوم من غير جهة امامية »

وافضل برهان يقدمهُ لورنس على نجاح خطته المستندة الى الضبط الحسابي البارد وفشل خطة الاتحاديين المضطرمة بنيران الانفعال الطليق من الوازع العقلي ان الثلاثة والعشرين الفاً من الجنود العثمانيين المقاتلين في (المدينة) في سنة ١٩١٧ اصبحوا في نهاية الحرب نحو اربعة آلاف اسير في مصر ، واما السكة الحديد الحجازية فقد اكلت الاخضر واليابس وكانت سورية وفلسطين غاباتهما وجاناً كبيراً من اشجارها المثمرة وكانت للبدو مشغلة يلتهون بها ومخزناً يتبضعون منهُ ومدرسة يتعلمون فيها الكر والفر

لورنس والحضر من اهل سوريا

لقد حمل (جريفز) على السوريين حملة منكرة ولم يكن لورنس راضياً عن الحضر اجمالاً بل كان قلبه مفعماً بحب البدو ، وعندي ان هذا الحب كان من العوامل الكبرى التي ساقته رغم طبعه الملول القلّب الى السير في الحرب حتى النهاية . واني اخشى كثيراً ان يكون كل منهما قد بني من الحوادث الفردية التي لقيها قاعدة عامة تظلم شعباً بمجرد اختبارات موضعية شاذة ، وهذا كثيراً ما يصيب السياح ويعلل التناقض العجيب في الاخبار التي دونوها عن البلدان التي زاروها . فمن ذلك ان (لورنس) لما وصل الى (وادي السرحان) مع بعض رفقائه الدماشقة وذلك بعد انقطاع في البادية البداء اسبوعين كاملين قرأوا الواحات الكثيرة والمياه القريبة من سطح الارض جاء واحد منهم اليه وذكر لهُ

الخطط الزراعية الواجب تطبيقها لغرس الاشجار واحياء الارض الموات وجمع القلال لخدمة الحكومة العربية القادمة ! قال (لورنس) في كتابه « ثورة في الصحراء » معقباً على هذه الخطط الوهمية « وان مثل هذا الخيال الوثاب هو من خصائص السوريين الذين يسهلون لانفسهم قبول الاحتمالات الممكنة ثم يتقدمون بمثل هذه السرعة ليلقوا على اعناق غيرهم التبعات الحاضرة العالقة باعناقهم » ثم قال لرفيقه السوري « يا فلان ان ناقتك تتثاقل بالجرب » فاجابه « نعم ويا للاسف ولكننا في المساء عند مايل الشمس سنسرع في طلي جلدها بالرهم » وفي اثناء الرحلة التالية ذكّره لورنس بالجرب فاجابهُ صاحبنا ان مسألة الجرب هذه ولّدت في نفسه فكرة جديدة كاملة وهي « ان الشام متى سقطت بايدينا أسسنا فيها دائرة رسمية للبيطرة تعتني فيها بالابل والخيل والحمير حتى الغنم والمعز مع هيئة من جراحين ماهرين وبني مستشفيات مركزية فيها طلاب للدرس في المناطق الاربع ويكون في جملة الموظفين مفتشون متنقلون ومخابر للبحث والتنقيب الخ . . الخ » . . . اما الناقة التي كانت تقله فلم تكن قد حصلت بعد ويا للاسف على الاسعاف الضروري لها . وفي اليوم السادس هلكت

وعندي ان (لورنس) مفرط فيما ذهب اليه من ولع السوريين بالاوهام وفرارهم من التبعات ، بل دلتني تجاربي في البلدان الاجنبية التي نزلوا بها على انهم ربما كانوا اقرب الى التطبيقات العملية من غيرهم . واني لا انكر ابداً ان بعض النفسيين الوصوليين منهم سواء كانوا في الوطن ام في المهجر لا يشرّفون سورية كثيراً وهم يستحقون المعائب التي الصقها بهم (جريفز) ولكن الذي لا يسمح به التاريخ أبداً هو ان تلصق مثل هذه الهنات الفردية بشعب كامل يطلب الحياة الحرة من اشرف وجوهها وقد بذل في سبيلها من الغالي والرخيص ما ينوء به اي شعب آخر في الشرق او في الغرب . وقد رأينا في ابان الحرب العالمية بعض افراد في ارقى امم الارض كانوا عوناً لاعداء بلادهم عليها لكن حكمنا على تلك الامم لم يتغير ، لان العبرة بالشعب مجملاً لا بالافراد الشواذ . وفي الشرق اقطار تشكو من عقوق ابنائها الذين بنوا لحمهم وعظمهم ودمهم من ترابها وماثها وهوائها اضعاف اضعاف ما تشكو من جميع الاجانب النازلين بها

وعلى كل حال فالبدو الذين جاء (لورنس) لتحريرهم هم احرار في المهد ولا يقدر الحرية احد مثلهم وقد حادثت في الصحراء في سنة ١٩٢٦ زمرة منهم من قبيلة بني صخر عددهم خمسة فقلت لهم لو قدر لكم ان تعودوا الى عالم الذر ثم خيرتم قبل مجيئكم الى الدنيا فأي حياة تحبون البدوية ام الحضرية ؟ فأربعة منهم فضلوا البدوية من غير تردد وأجمعوا على ان البداوة اذا كان وراءها كفايتها — ابل وبيوت شعر واوطاب لبن ! — ضمنت للمرء استقلاله في منزله

وحريته في تنقله من غير اسر لاحد، وهكذا فشغف العيش مع الحرية اوقع في قلوبهم من اليسر مع الاسر

ومما تحسن الاشارة اليه ان الكولونل لورنس اختلف في الرأي مع السوريين في (وادي السرحان) فقد ذهبوا الى وجوب ترك العقبة وشأنها والسفر توًّا من الشمال حيث يقيم المجاهدون الدروز اليوم الى دمشق الشام ، لكن لورنس كان عالماً بوجود جيش لجب من الترك في حلب لاجل استرجاع العراق فاذا ما هدَّد العرب الشام زحف هذا الجيش بخيله ورجله لانقاذها ، اما الجيش البريطاني فكان مقيداً بجانب (غزة هاشم) لايستطيع حراكاً وانزال الجنود في بيروت متعذر لفقد المواصلات ، وهكذا ارتأى (لورنس) ان مثل هذه الحملة التي اقترحها السوريون اذا ذهبت الى الشام باءت بالفشل واضمحلت معها الثورة العربية من الباب الى المحراب ، فاستعمل لورنس الدسائس لارجاعهم عن عزمهم ومما فعله انهُ قال لوده ابي تايه يا عودة اذا جملنا دمشق هدفنا فان الكسب والشهرة يذهبان الى الفوري الشعلان بدلاً منك وقال للشريف ناصر ان الواجب يقضي بمهاجمة العقبة ثم ملقه بالاشادة بأصله وبشرف بيته وعرِّض بأصل السوريين على الطريقة التي تستفز العرب عادة وتثير النعرات بينهم والتي كانت في تاريخهم وتاريخ خلافتهم بلاء لا يعادلهُ بلاء . واخيراً بمثل هذه الاساليب التي جازت على البدو ولم يفطن لها السوريون تغلب رأيه عليهم ، على ان بعضاً منهم بقي مصرًّا على السفر شمالاً وطلب من (لورنس) اسعافه بالمال فوعده وهو غير مؤمن بنجاحه، ومما اشترطه عليه ان يعطي من المال الذي يحمله جزءاً للشريف (ناصر) ففعل وهكذا غادر هؤلاء المجاهدون وادي السرحان الى جبل الدروز فكان لهم مع « ابناء معروف» حديث طويل تحققت فيه نبوءة لورنس

تطوّح لورنس

قبلت الحكومة البريطانية المطالب التي تمسك بها الحسين بن علي وهي استقلال العرب ليس في الحجاز وما اليه من البلدان العربية الغربية فقط بل في اجزاء كبيرة من القطرين السوري والعراقي وحدَّدت هذا القبول بجملة معترضة هي السم في الدسم اذ قالت (من غير اخلال لمصالح فرنسا حليفتنا) وهذا الشرط الموضوع بين هلالين ستر تلك المعاهدة السرية المعقودة بين انكلترا وفرنسا وروسيا باسم معاهدة «سايكس — بيكو» وفيها تم الاتفاق على ضم بقاع واحداث مناطق نفوذ في بقاع اخرى . ولم يجهم (المستر جريفز) عند ذكرها ان

يقول « والواقع انها لا احتمال معها لتحقيق اية حرية صحيحة » ولم يكن المندوب السامي عالماً بها ولا الحسين بن علي. اما الاعتذار الذي تقدّمه بعض الكتّاب عن هذا التناقض المعيب في السياسة البريطانية بقوله ان الذي حدث انما هو وجود دائرتين في وزارة الخارجية البريطانية استقلت كل منهما بواحدة من هاتين المعاهدتين من دون ان تكاشف الاخرى فهو من سقط الكلام ولا يليق ان يقال حتى عن الصين في اعظم ايام تكبّها وانتشار الفوضى في ربوعها ناهيك بأن ينسب الى اعرق دولة في التنظيم السياسي وانسجام الخطط الخارجية. ومما هو حري بالتدوين ان المندوب السامي البريطاني في مصر لما تناول امراً بعقد اتفاقه مع الحسين بن علي أرسل انذاراً الى حكومته شديد اللهجة قال فيه انتا بتأييدنا القضية الوطنية في بلاد العرب نعمل عملاً محفوفاً بأعظم الاخطار واشد المهالك لان حُرّية العرب قد تنمو في احد الايام فتصير الثول الذي افترس صانعهُ في رواية (فرانكنشين)

ومن جعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا

فلما حدثت الثورة في روسيا في ربيع سنة ١٩١٧ نشر البولشفيك صورة هذه المعاهدة فتناولها الترك ورزعوها في الاقطار الحساسة ذات التأثير في المصالح الانكليزية. ورأينا في القاهرة في تلك الايام (السير مارك سايكس) يعود من لندن ليخفف من سوء وقعها في الاوساط العربية وما قد تحدثه من رد الفعل فاجتمع بنا وبالمرحوم رفيق بك العظم وبآخرين من اخواننا فلم تكن دهشتنا من حديثه دون دهشته من قسوة اجوبتنا. وذكر (المستر جريفز) أن (نوري باشا السعيد) لما اطلع عليها دخل على (لورنس) فسأله اي المهدين ستربط به انكلترا فاجابه بعد تردد نفساني عميق ستحافظ انكلترا على كلتيهما لفظاً ومعنىً وأن العهد المتأخر ينسخ المعاهدة المتقدمة

لكن تألم النفساني من هذه المواربة اللفظية وخوفه من الغدر المضمر للعرب وقلة ثقته بالحضر من ابناء سورية والعراق والحكومات التي يؤلفونها كل ذلك في نظر (المستر جريفز) حمل لورنس على تطوح كاد يكون انتحاراً مقصوداً فغادر (وادي السرحان) في اليوم الثالث من يونيه (حزيران) سنة ١٩١٧ مع نفر من حرسه ولم يعد الاّ بعد مرور اسبوعين زار في خلالها (دمشق الشام) ووصل في الشمال حتى (رأس بعلبك) وقد صرّح لكثير من اصدقائه عن هذه الرحلة التطوحية التي بلغت نحو اربعمائة ميل انهُ ما تستر في اثنائها قط بشيء سوى الظن بان مثل هذا الجنون لا يقدم عليه احد فيه مسكة من العقل على انهُ اضطر ان يؤجل رؤيته المواقع المحصنة الى وقت الظلام

والذي يلوح لي من جميع ذلك ان النفس تطوح الوثابة في (لورنس) كانت كلما

احست بفشل في الخطة او خيبة في الامل اقدمت على عمل اشد خطراً للتعويض عما شعرت بما لحقها من العيب . وقد قام يوسف بك العظمة وزير الحربية على عهد الحكومة الوطنية بدمشق بعمل فذ محفوف بالاخطار على هذا النمط فذهب الى ساحة القتال في (بسلون) ووقف — وهو اكبر موظف في الجيش — في الصف الاول بين المحاربين يقاتل بجسده حتى قتل : انهُ فعل ذلك للهواجس النفسانية المرّة التي استولت عليه من بعد ما تبين خصومهُ في المراكز الدقيقة ان الجيش الذي يريد ان يحارب به أعظم دولة عسكرية على وجه الارض مسلح بخمسة آلاف بندقية وخمسين مدفعاً وان لكل بندقية مائتين واربعين رصاصة ولكل مدفع مائتي واربعين قنبلة فقط ! فنفسه الكبيرة لما شعرت بالتبعة العظيمة من كشف هذه الاسرار التي وصلت الى اذن الاعداء طلبت راحة لها في الاقدام وأعمال البطولة فذهبت الى ساحة المجد والشرف حيث تمتعت براحة الموت. وان انسَ لا انسَ وداعه لنا في مجلس الوزراء وذلك عقيب القرار السري الذي اصدره المجلس الحربي الاعلى برئاسة الملك بأن جيشاً هذا سلاحه وهذا عتاده لا يستطيع الوقوف في جبهة حربية نظامية اكثر من خمس دقائق. قال يوسف بك العظمة في جوابه عن هذا القرار « اني بعد فضح اسرار الجيش لم يبق امامي غير الذهاب الى الجبهة فالوداع الوداع » . وذكر (جريفز) عن لورنس انهُ ما احجم عن الانتحار الا لان ذلك يكون افراطاً في الاهتمام بالموت وهو لم يرضه لنفسه بل جل ما سمح به هو ان يتعرض للخطر الدائم على ان يكون من السلامة قيد انملة فقط مع تمني الكارثة في كل حين

تقصير (لورنس) في بث الدعاية للجيش العربي

ومما يعاب على (لورنس) تقصيره في بث الدعاية للجيش العربي وسكوته العميق عن الثورة العربية وغاياتها في إبان اشتعالها . وهذا واضح لمن تتبع اخبار الحرب العظمى في المدوّنات ومذكرات الكتب فاذا ما ذكر الحسين واولاده والسوريون والعراقيون واليد على ابواب (المدينة) او تخوم الشام فانما يذكرون على سبيل النادرة المستملحة ، على ان عملهم الباهر الاخير في احتلال (درعا) ودخول (الشام) حمل الجنرال (اللنبي) على الاعتراف من غير اقل تلجلج بالمساعدة الثمينة البالغة التي قدّمها العرب للحلفاء . ولما كان للدعايات شأن عظيم في عصرنا هذا حتى قيل ان الالمان انما قهرت في الحرب العالمية بدعاية الانكليز فالتبعة على (لورنس) من قصوره في تقديم التقارير الضافية عن الاعمال التي كانت تجري في جزيرة

العرب هي تبعة عظيمة وهي ايضاً درس بليغ لكل امة تطلب الحياة الحرة بالبذل الثمين من غير تنظيم سياسي ينشر في العالم اخبار هذا البذل

تردُّد لورنس

مما اعيب على لورنس تردده في الامر وعدم استقراره على الرأي فقد حدث في ربيع سنة ١٩٢١ ان عقد مؤتمر في فندق (سميراميس) في القاهرة برئاسة المستر (ولستن تشرتشل) دعي اليه من الرجال الذين عرفتهم السير (برسي كوكس) المندوب البريطاني على العراق والجنرال (ووترستيلر) والكولونل (لورنس) و (جعفر باشا العسكري) والمورد (رجلان) و (ساسون افندي) ومعهم (المس جرترود بل) المستشرقة الاثرية المعروفة ورئيسة القلم الشرقي في العراق. فدعاني السير (برسي كوكس) لتناول العشاء معهُ في الفندق فقلت فرصة سانحة جداً لمعرفة ما يمكن معرفتهُ مما يجري في الخفاء وراء الجدران. والتقيت بعد العشاء بصديقنا القديم الكولونل (لورنس) وهو بزته الملكية وعينيه المتوقدتين فجرى بيننا حديث ادبي سألته في نهايته هل كان مسروراً بما يجري في المؤتمر فأظهر لي على التحقيق اشمئزازاً عظيماً ونفرة جلية ومما قالهُ لي « ليتني لم اجيء الى هذا المكان ولم اجتمع بؤلاء الناس ولا رأيت هذه الوجوه وما أحلى عودتي من حيث أتيت » مما دلني على ان رغائبهُ التي عهدناها فيه ايام الثورة لم تجد آذاناً مصغية. وبقيت هذه الفكرة مطبوعة في نفسي الى أن اطلعت على رسالة بقلمه تم على رضائه الصريح عن المستر (تشرشل) المحافظ المشهور والاستعماري القح في معالجة الشؤون العراقية فعجبت كل العجب من هذا التناقض الغريب

ومن هذا التردد وعدم الاستقرار ما ذكرته فيما سبق من قبوله ان يسافر الى العراق لافساد الجيش العثماني بالرشوة وانقاذ الجنرال (تونزند) المحصور في كوت الامارة ولكنهُ حالما انتبه وجداننا الى ان مثل هذا العمل ليس شريفاً تراجع شأن كثير من الرجال الذين لا يعرفون الشر الاَّ اذا نبهوا اليه في حين ان النفوس الروحانية الرقيقة سباقة الى معرفة الشرور من غير المنبهات الخارجية، ولعلَّ صغر سنهِ وقلة تجاربهِ وميله للتطوح كل ذلك دفعه يومئذٍ الى ركوب هذا المتن. واما ما اعتذر بهِ عنهُ المستر (جيفز) من حرصه على الالتقاء بالنوري الشعلان وقبائل الرولا فهو في نظري « تعليل بعيد التوقوع »

واطلعت على بعض معاملات خاصة جائرة تتعلق باناس عرفهم (لورنس) كل المعرفة وكان بوسعهِ ان يحول دون هذه المعاملات ولكنهُ استسلم للدعايات الكاذبة واجاز لنفسه

السكوت عنها . وفي الرسالة الآتية التي كتبها الى صديقه المستر (رتشاردس) في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩١٨ ما يدل على ذهنية متقلقلة مضطربة وقد جاء فيها :

« اما أنا فقد اقتلعت من منبتي بعنف شديد وغرست على عمق بعيد في عمل كبير لا اتسع له حتى صرت ارى الاشياء كلها وهمية ، وقد القيت وراء ظهري كل شيء عملتهُ حتى الآن واعيش لعلّ يسترق الفرص أني سنحت وحبّذا رأيتها . والغالب ان جماعتي اخبروك ان هذا العمل هو اشعال ثورة عربية على الترك فعليّ والحالة هذه ان استرمظهري الافرنجي والاّ ابتعد عن الهيئة العربية جهد طاقتي . فانت ترى ان هذا مسرح اجنبي على الممثل ان يلعب عليه ليل نهار بلباس مبهرج ولغة اعجمية وثمن الفشل في التمثيل ينصبّ على رأسه اذا هو لم يجد دوره

« لقد اصبت في ظنك ان العرب راقوا لخيالي : فدنياهم هي تلك المدنية القديمة التي تخلصت من اصنام المنازل ومن معظم الزخارف التي تسرع مدنيتنا الى الاكتساء بها واتخيل القلة في الماديات اتخيل صالح ويشمل على ما ارى نوعاً من القلة في الاخلاقيات ايضاً : فالعرب يفكرون آنيًّا في الحالة التي هم عليها ويسمون للانسياب في الحياة من غير ان يدوروا الزوايا او يتسلقوا الهضاب . . . . ليس في طاقتي ان اتخيل ما قال لك قومي عني ، وانا حتى الآن كنا نهيء الاساس الذي تبنى عليه الثورة فقط ولما نقف على حافة العمل ، ولست ادري ازبح ام نخسر ولا اعرف متى نضرب ضربتنا ، وكل ذلك رواية تمثيلية ولا يستطيع المرء ان يتساول بعقيدة اعانية ثابتة الاحلام التي يحلمها في يومه . انا اذا ما نجحنا فاني اكون قد أجدت استخدام المادة التي اعطيتها واما اذا خسرنا فسنستمر على حفر الاسس . . . . ان هذه الرسالة بلاهة وغاية ما ترمي اليه طلب التغيير من حال الى حال وهو بلاهة ، لانني ابدل مكاني كل يوم وعملي كل يومين ولقي كل ثلاثة ايام ومع ذلك ابقى دائماً غير راض . واني اكره ان اكون في الامام واكره ان اكون في الوراء ولا احب التبعة ولا اطيع الاوامر ولا خير يرتجى مني الآن مطلقاً . وكل ما اتطلع اليه سكون مديد كالمسهل يطهرني ثم تفكير عميق واتخاذ قرار حازم في انتهاج منهج للمستقبل »

سننشر في الجزء القادم المقال الاخير وهو مسك الختام لهذه المقالات التاريخية الشائقة البليغة

وقفة الوداع

حبستُ الدمعَ فازداد انهمارا ... وفاض تخلتُهُ في الخدّ نارا
كماء النار في خدي وقعاً ... وأقسى منهُ فوقهما انحدارا
بنفسي من بكيتُ لهُ فراقاً ... ومن لفراقهِ بتُّ الوقارا

* * *

تنزّى القلبُ فاستوجستُ شرًّا ... فقلتُ اصبر فقال كفى اصطبارا
فقلتُ وما اعتزمتَ فما تأنى ... وحقّق ما استشار ولا استخارا
مضى خلف القطار فهل أحسوا ... بما عاناهُ مَن ركبوا القطارا
أتدري أيهذا الركب أني ... أودّع فيكَ قلباً مستطارا
وهل يدري الذي أقللتَ أني ... أسيرُ وراءه أيان سارا

* * *

ترفّق أيها النأي اختيارا ... لقد خليتني أحيا اضطرارا
أحسُّ كأنني في الارض وحدي ... وأن الارض قد أضحت قفارا
فما عيني برائية سروراً ... ولا روحي تحسُّ لها قرارا

* * *

تعلّم يا هزار الروض مني ... أنا لحن النواح ولا تغارا
فغيري من يقلّد حين يبكي ... ولكني أنا الباكي ابتكارا

محمود ابو الوفا

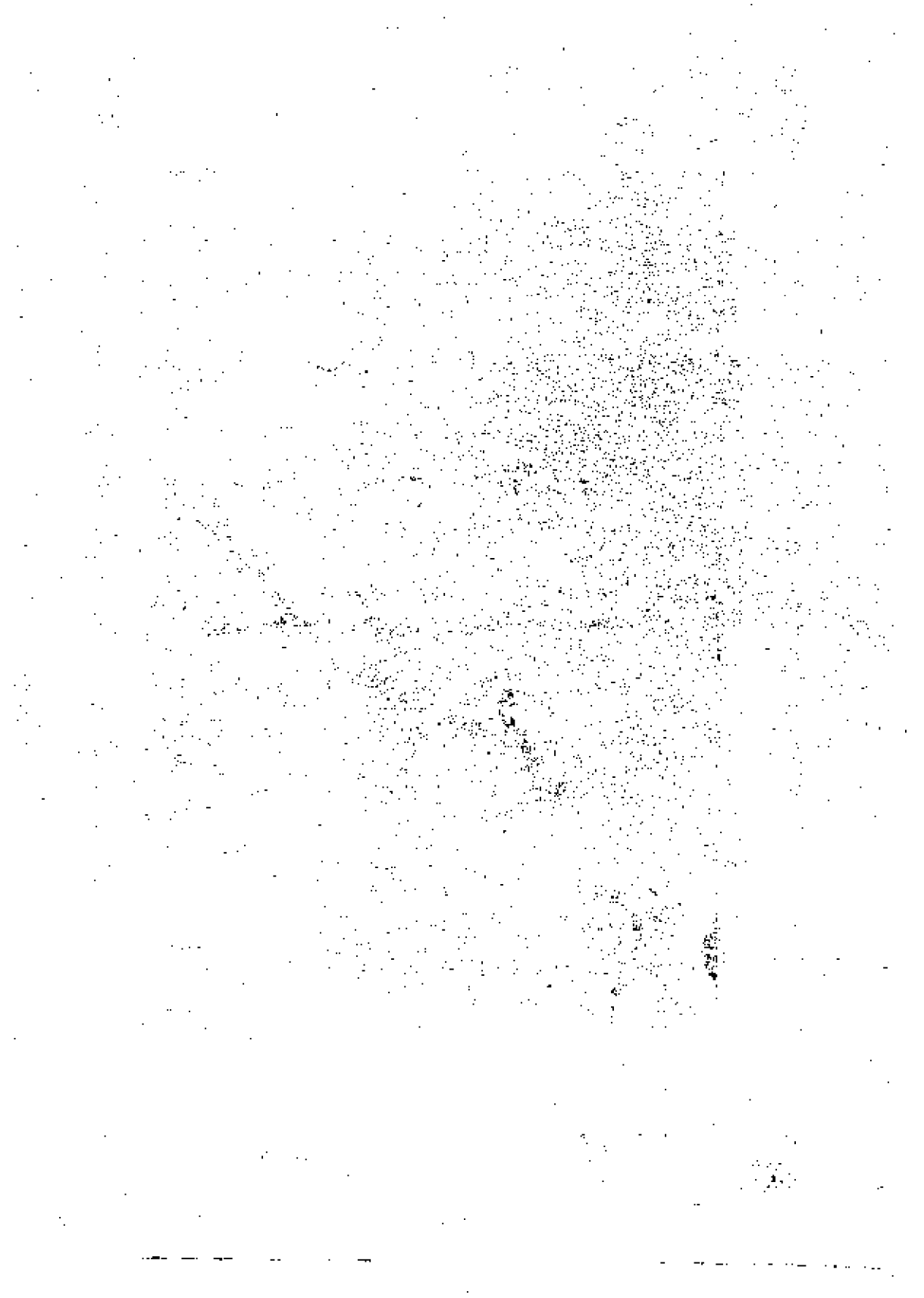

صورة رمزية لروح الاكتشاف والاختراع

متحف بوبو ١٩٣١ أمام الصفحة ٦٦٥

منطق الاكتشاف والاختراع

حديث اخّاذ لاسرار العقول المبتدعة التي نفحت العمران باعظم المكتشفات والمخترعات

المنطق وجهانِ من وجوه التطبيق الاول هو منطق الاستدلال والتحقيق وبهِ نمحن الحقائق وتنظّم . والثاني منطق الاكتشاف والاختراع وبهِ يكشف عن حقائق جديدة . فلننظر الآن في منطق الاكتشاف والاختراع

قد لا يستطيع الانسان ان يزيد بالتفكير المنطقي قدماً الى قامتهِ ولكن لا ريب في انهُ يستطيع ان يكشف عن حقائق مجهولة ويبدع ادوات ووسائل اذا اجاد استعمال الفكر . فاذا وجدتَ في بلدٍ ما عقولاً مبدعة فقلّ ثمة شيء جديد تحت الشمس

ونحن كلنا مكتشفون ومخترعون في نواحينا الصغيرة المتواضعة . وتكون هذه الناحية فينا على اقواها واظهرها في حداثتنا اذ تكون احرازاً في السير وراء عقولنا المتحيّرة المتساءلة عن كلّ ما تجهلهُ — وما اكثر الامور التي تجهلها ! فاذا تخطينا دور الحداثة اخذنا نستند الى ما تعلمناهُ ونعتمد على ما ابدعتهُ عقول الافذاذ من رجال الفكر

والغرض من هذا المقال النظر في طرق التفكير التي تنطوي عليها عمليات الاكتشاف والاختراع

اذا نظرنا الى التاريخ نظراً مشارفاً رأينا ان اعظم المخترعات ابسطها لانها كانت خطوات العقل المبدع الاولى في طريق الاستنباط . وقد تمت لما كان الجنس البشري في حداثتهِ . ولسنا نضع في رأس القائمة استنباط العجلة او الدولاب . فالدولاب لا يزال هو هو في مبدإه سواء كان قطعة من جذع شجرة اسطوانية الشكل او عجلة من عجلات السيارات الحديثة خارجهُ اطار من المطاط وعند محوره كريات صغيرة وزيت لمنع الاحتكاك على محوره . والناس في هذا العصر يتنقلون وينقلون ما يحتاجون اليهِ على العجلات . ومع ان هذه العجلات من صنع الانسان لكنها لا تشتمل من الاختراع الاول الاّ على مبدإه

فالعجلة هي رمز للصناعة والتنقل . ومع ذلك لا نستطيع ان نرفع نصباً تذكاريًّا لمخترعها بصفتهِ محسناً الى الانسانية لانا لا نعرفهُ . ولا نعرف كذلك هل اخترعت العجلة ثم أُسدل عليها ستار النسيان فاعيد اختراعها ثانية وثالثة . على ان جهلنا اسم ذلك المخترع او

اولئك المخترعين لا ينقص من قيمة العمل الذي ينطوي على استعمال الخيال استعمالاً مبدعاً فان فيه قبساً من شعلة العبقرية

اوخذ مثلاً بعض المخترعات البيتية التي تستعمَل كلَّ يوم وكان الانسان البدائي يعرفها ويمارسها كالدباغة والخياطة والحدادة والطبخ والطحن والخبز وصهر المعادن وبناء الزورق وصنعه والقوس وسهمها والخيام والفؤوس والنبابيت والصنانير والابر والسكاكين والسطوح المنحنية والمثلثات (العَشَّة : الراقصة او المخل) كل هذه المخترعات لمخترعين مجهولين. ولكنها تنبت ما في خيال الانسان البدائي وتفكيره من قوى الابداع التي جرت على قواعد من المنطق فصحت في عصر العلم منبثق اللولب والعدسة والبوصلة والترمومتر (ميزان الحرارة) والبارومتر (مقياس ضغط الهواء) والفرملة والمكرسكوب والتلسكوب والآلة البخارية والمغناطيس المكهرب والتلغراف والتلفون والفونوغراف والصور المتحركة والراديو والاشعة اكس

اضف الى كل اولئك وجوه التطبيق والاتقان التي تضاف كلَّ سنة الى المخترعات الاساسية يصبح مشهد الارتقاء البشري سلسلة محكمة الحلقات من مبتدعات الخيال المبدع. ان مصلحة تسجيل المستنبطات الجديدة في الحكومة الاميركية تخرج كلَّ سنة ستين الف اجازة للمستنبطين — اي بمتوسط مائتي اجازة كلَّ يوم

الاكتشاف والاختراع اهما ناحيتا التفكير المبدع. فكيف يختلفان؟ الباحث يكشف مبدأ جديداً من مبادىء الطبيعة او يكشف عن علاقة بين سبب ومسبَّب كانت مجهولة. ولكنهُ يخترع (او يستنبط) أداةً تكون وسيلة لتوسيع نطاق البحث او لاستخدام القوى الطبيعية

فيوتن اكتشف مبدأ الجاذبية وناموسها. وغاليليو ناموس الاجسام الساقطة. وباستور علاقة الجراثيم وروس ان البعوض (انوفيليس) ينقل جراثيم الملاريا. وموتن ان الاثير يخدّر وينوّم. فكل هذه الاموركائنة في الطبيعة وهي تبين من حقائق مفردة الى نواميس تشمل حركات الاجرام. فكلما كانت قبلما جاء الباحثون المبدعون فرفعوا الغطاء الذي كان يحجبها عن عيوننا الفكرية

اما المكرسكوب والتلسكوب وغيرهما من ادوات العلم فمخترعات اي انها اشياء لم تكن فخُلقت. وقد يندمج الاكتشاف والاختراع في عمل واحد. فبدأ المخاطبات اللاسلكية وادواتها الاولى ظهرت في وقت واحد. على ان الاكتشاف يتقدم الاختراع غالباً. ثم يفضي الاختراع الى مكتشفات اخرى. فلولا التلسكوب والمكرسكوب وغيرهما من آلات القياس والتدوين الدقيقة لما تمكن العلماء من كشف المذهب الكروي ونظرية النسبية وتحقيقهما

والمكتشفات ترتبط عادة بالاسباب والنتائج العامة في عالمي الطبيعة والعقل . واما المخترعات فتطبيقات عملية . وكلاهما يقتضي قوة ابداع في الخيال والفكر

الحاجة والاستطلاع

قيل ان الحاجة تفتق الحيلة . وان الحاجة ام الاختراع . والواقع ان الحاجة في هذا العصر قد تلبس ثوب الرغبة في الربح او الرفاهة . ومن اشهر الامثلة على ذلك اكتشاف مبدإ ثقل الاجسام في الماء الذي اكتشفهُ ارخيدس احد المكتشفين العظام في التاريخ القديم. ويقال ان الملك هيرو ملك سيراقوسة بصقلية ارتاب في صائغهِ الذي عهد اليهِ في صنع تاج من الذهب الخالص وظن انهُ قد صنعهُ من ذهب مخلوط بفضة او نحاس وانهُ يطلب ثمنهُ على انهُ ذهب خالص فطلب الى ارخيدس ان يبيّن لهُ هل التاج ذهب خالص او ذهب خليط من دون ان يصاب التاج باذًى . فاكبَّ ارخيدس على هذه المسألة حتى كلَّ ولم يهتدِ الى حلها فلجأ الى حمامهِ طلباً للراحة من الكدّ الذهني واتفق ان الحمام كان ملآناً ماء ساعة غطس فيهِ ففاض الماء على جوانبهِ ومن هنا تبينت له طريقة لحلّ مسألة التاج فخرج عارياً وهو ينادي وجدتها ! وجدتها ! ذلك انهُ اكتشف حينئذٍ طريقة لتطبيق مبدأ الثقل النوعي باكتشافهِ ان قدر الماء الفائض في الحمام — اي القدر الذي يفيضهُ الجسم الغاطس — يتوقف على كثافة مادة الجسم. وللحال اخذ ارخيدس يجهز كتلة من الذهب الخالص وزنها كوزن التاج تماماً وغطسها في وعاء ملآن ماء وقاس قدر الماء الفائض . ثم اخرجها وملأ الوعاء من جديد وغطس فيهِ التاج فوجد ان مقدار الماء الفائض لدى تغطيس التاج يزيد على القدر الاول فحكم بان ثقل التاج النوعي اخف من ثقل الذهب النوعي وعليهِ فالتاج ليس ذهباً خالصاً . بل هو خليط من ذهب ومعدن آخر اخف من الذهب

وتنشأ المكتشفات والمخترعات من طلب المعرفة عن طريقة حب الاستطلاع. وفي هذا الطلب يعترضنا صنفان من المسائل : — اولاً — ما سبب الكسوف والخسوف والسرطان والمدّ والجزر والاحتقار والصدإ والانفجار والصمى اللوني والجنون ؟ والجواب نظرية والبرهان عليها — وهو الاكتشاف . والصنف الثاني — كيف نحقق غرضاً معيناً : كيف نجتاز نهراً او نجفف مستنقعاً او نقيس الزمان او نتخاطب على مسافة ؟ والجواب جسر وبيفون وساعة وتنفراف وتلفون وراديو — وهو الاختراع

وما نريد ان نوضحهُ في هذا المقام — وهذا هو الجانب المنطقي او الفكري في الامر — ان الاكتشاف يتناول المبادئ والاختراع يتناول التطبيق . وقد يكون احد العلمين بعيداً

عن الآخر في الزمان والفكر وقد يندمج احدهما في الآخر حتى يتعذر فصلهما . ولكن وراء الاكتشاف والاستنباط المقدرة على تعرّف مشكلة تتطلب الحل والبراعة في توجيه السؤال الذي يفضي الى اكتشاف او استنباط يكون ذا اثر في التاريخ والعمران

لنضرب على ذلك مثلاً بالستيريوسكوب وهو نظارة معروفة توضع امامها صورتان لشيء واحد فيظهر الشيء مجسّماً كأنك تنظر اليه حقيقة لا كأنك تنظر الى صورته الفوتغرافية المسطحة . فهذه الآلة بنيت على السؤال الآتي : كيف نرى الاجسام مجسّمة ؟ وكان لابدّ من عقل مبدع وخيال نافذ لتوجيه هذا السؤال وادراك ان رؤيتنا الاجسام مجسّمة تنطوي على مسألة تتطلب حلاً . فالعقل العادي يسلّم بأننا نرى الاجسام مجسّمة ولكن السر تشارلس هويتستون — وغيره — اكتشف ان صفة التجسيم في البصر تنجم عن ان كل عين من عيني الانسان تتلقى من الجسم الصلد المرئي اشعةً تريها جانباً يختلف قليلاً عن الجانب الذي تراه العين الاخرى . والعقل يوحّد بين الصورتين الواصلتين اليه فيظهر الجسم للعين مجسّماً . فاذا اخذت صورتين لجسم واحد تختلف احداهما عن الاخرى اختلافاً طفيفاً كأنك تنظر اليه بعين واحدة ثم بالعين الاخرى ، ثم وضعت الصورتين على لوحة ونظرت اليهما بحيث ترى كلُّ عين الصورة الخاصة بها فهذا يكفل رؤيتك الشيء مجسّماً . هكذا بنى هويتستون ستيريوسكوبهُ . ثم حسّنهُ دافيد بروستر ثم اتقنهُ غيرهما — وفي هذا المثل يتضح لنا ان الاكتشاف والاستنباط سارا جنباً الى جنب

وقد مضى الستيريسكوب كلمة يتسلى بها الناس في مجتمعاتهم البيتية ولكنهُ ادّى خدمة علمية جليلة . ولا يزال المشتغلون بشؤون الصور المتحركة يؤملون استنباط طريقة تمكنهم من تطبيق مبدإ الستيريوسكوب على السينما فنرى صورها مجسّمة كما نشهد التمثيل في مرسح . ولا يزال الطبيب ينظر الى صور اشعة اكس ليرى العظام المصورة فيها مجسّمة

باعث الابتداع

ان ذكر السينما يعيد الى الذهن اكتشاف مبدأ آخر يعرف علميًّا بالمبدإ (الستروبوسكوبي) او تصوير الحركة . ونحن لا نعلم من اكتشفهُ اولاً ولكن يظهر انهُ كان معروفاً من بضعة قرون . واما السؤال الذي افضى اليه فكان : كيف نستطيع ان نرى جسماً متحركاً ؟ فكان الجواب عن هذا السؤال مؤلفاً من ثلاث مراتب (اولاً) اعرض امام العين لمحات من الجسم المتحرك متعاقبة سريعة منفصلة . (ثانياً) لكن كل لمحة صورة هذا الجسم المتحرك في حالة تختلف قليلاً عما يسبقها وعما يليها . و(ثالثاً) لكن بين الصورة والاخرى

فترة قصيرة معينة حتى لا تدمج اشباح الصور المتعاقبة بعضها في بعض. فاذا تمكنا من تحقيق هذه الشروط الثلاثة تمكنا من رؤية جسم متحرك حركة سريعة. ولكن الصعوبة كانت قبلاً في امكان تصوير الجسم المتحرك صوراً سريعة متعاقبة في حالاته المختلفة . فحلت هذه المشكلة لما استنبطت طريقة التصوير الشمسي السريع على فلم متحرك ومن ثم استنبطت آلة التصوير السينمائي وآلة عرض الافلام وهكذا نشأت الصور المتحركة وارتقت

فصناعة الصور المتحركة العظيمة بنيت كلها على هذا المبدإ السيزيوسكوبي . وترجع كلها الى ذلك العقل المتأمل الذي لم يكتف برؤية جسم متحرك بل وجد فيما يحدوه الى فهم هذه الرؤية وكيف يمكن احداثها

قلنا ان التطبيق العملي وجني الفائدة المادية من اهم البواعث على الاستنباط . فصورة التخاطب على المسافة البعيدة التي رآها بل Bell بخياله دفعت به الى محاولة استنباط طريقة لتحقيقها فاخترع التلفون المبني على اكتشاف مبدإ القرص المتذبذب تذبذباً كهربائياً . اما اديسن فبحث في كل انحاء الارض عن مادة لمصباحه الكهربائي . ومع ذلك لم يحلم هرتز ولا رنتجن لما قاما بمباحثهما في الاشعة المجهولة (الاشعة اللاسلكية واشعة اكس) انه سيجيء يوم تستعملان فيه في الطب والجراحة والمخابرات . وكل ما هنالك انهما شعرا بدافع غريب لاستطلاع طلع هذه الامواج . وقد بني على اشعة اكس سلسلة من التطبيقات تتباين من استعمال اشعة اكس في الجراحة والطب الى فوائدها الصناعية في امتحان قوة المعادن ومعرفة تركيبها الذري الى معرفة الصحيح والمزيف من الصور الزيتية القديمة

وقد يبعد مجال التطبيق والاختراع عن ميدان الاكتشاف فيكون فاتحة عصر جديد في التفكير ومن هنا نرى ان المكتشفات أعمق اثراً في تطور العمران من المخترعات

ومما يجب الاشارة اليه اشارة موجزة ان سبيل الاختراع هو في الغالب سبيل التحسين والاتقان والتوسع والجمع بين مستنبطات مختلفة لابداع مستنبط جديد. فالمخترعات الاساسية هي في الواقع قليلة جداً. واما الاشكال التي تتخذها فعديدة تكاد لا تحصى

خذ المطرقة مثلاً فهي مخترع اساسي. ولكنها مع ذلك تنطوي على مبدأين كان لابد من اكتشافهما قبل استنباط المطرقة وهما المبدأ القائل بأن المادة الصلدة القاسية تستطيع ان تخترق المادة اللينة وان الضربة اقوى فعلاً من الضغط. فصنع المسمار لاختراق الخشب وصنعت المطرقة لادخاله بالضرب عليه لا بالضغط عليه . ومن هذين المبدأين نشأت كل الادوات المستعملة في الطرق من مطارق البد الى المطارق البخارية وغيرها

والسكين هو منشأ كل الادوات القاطعة التي تنطوي على وجوب كونها قاسية وذات

حدّ ماض. وما كنة الخياطة ليست الاّ اداة معقدة مبنية على المبادىء الآتية — تماسك دقائق الخيط واختراق الفولاذ الاقمشة وتحويل الحركة الدائرية الى حركة عمودية

وهكذا نرى ان نول « لاجديد تحت الشمس » يستطاع تأويلهُ من ناحيتين. فاذا حسبنا ان معظم المخترعات انما ينطوي على بضعة مبادىء ومخترعات اساسية فقليل ما هو جديد تحت الشمس . ولكن جمع هذه المبادىء والمخترعات في اشكال طريفة لتأدية اعمال خاصة يجعل كلَّ مخترع جديداً تحت الشمس

وطريق ارتقاء المخترعات طريق معروف — فيه تتجلى لنا القيود التي تقوم بها اكبر العقول. فالمكتاب الاول وآلة الخياطة الاولى والسيارة الاولى والطيارة الاولى — كلها لعب اطفال ازاء ما يقابلها الآن رغم تفوق مستنبطيها. فالمخترعات تبلغ مرتبة الاتقان بالتحسين المتوالي — وكل خطوة في هذا السبيل هي خطوة اختراع بحد ذاتها

الخيال . . . او الوحي . . .

والحجر الذي يتم به عقد التفكير فيسفر عن اكتشاف او اختراع مقتطَع من منجم الخيال او هابط من منزل الالهام

قد يحتّم على الباحث ان يقضي سنوات متوالية في المشاهدة والتجربة ليؤيد صحة نظرية او ليصحح خطأً تسرب اليها . ولكن هذا لا يغني عن لمحة الوحي التي لا بدَّ منها لاخراج النظرية من العدم الى الوجود . لو اتيح لنا ان نسأل داروين كيف كشف عن مبدإ النشوء لما اجاب بغير هذا : — تأثرت بما شاهدته في اصناف الحيوانات من وجوه التشابه واسترعى انتباهيَ ان وجوه الاختلاف كانت تتفق عادة مع بيئة كل صنف منها فظن ان لا بد من مبدإ عام لتعليل ذلك . وكان مبدأ الخلق المستقلّ — اي ان كل صنف خُلق على حدة — مما لا يسلم به العقل العلمي فاستنبط المبدأ القائم على اثر البيئة وتنازع البقاء وبقاء الانسب لتعليل نشوء الانواع . ولكن كيف خطر مبدأ النشوء على ذهن داروين ؟ انهُ لا يستطيع ان يبين لك ذلك . سمّه وحياً والهاماً او لمحة من لمحات العبقرية — او سمّه ما شئت فان تسميتهُ لا تعلل حقيقتهُ

ومما لا ريب فيه ان في كل اكتشاف او اختراع حلقة يتوقف عليها نجاح كل عمل فكري مبتدع . فكأنها عمل الجمع بين شيئين او معنيين على وجه جديد

فنيوتن من اعظم المكتشفين في التاريخ. كان الشيء الاول « وقوع التفاحة » وهو فعل عاديٌّ يعرفهُ كل الناس . فجمعهُ الى شيء آخر « هو القوى الكونية » كقوة الشمس في حفظ السيارات دائرة حولها فخرج من الجمع بينهما بناموس الجاذبية. كم تفاحة نضجت على امها

وسقطت الى الارض قبل نيوتن. ولكن هذه التفاحة الساقطة امام عينيه اثارت عقله المبدع فأصبحت بحق ثمرة شجار العلم

وقد تمت مكتشفات فراداي الكهربائية العظيمة عن طريق التجربة . فهذه الكهربائية من جهة . وتلك المغنطيسية من جهة اخرى . فجمع بينهما وبذلك كشف عن القوى الكهربائية المغنطيسية التي نشأ منها المولد الكهربائي والمحرك الكهربائي وعليهما بنيت كل الصناعات الكهربائية العظيمة . واعتمد فرنكلين على المشاهدة والتجربة فجمع بين الصاعقة وانطلاق الشحنة الكهربائية فاستنبط قضيب الصاعقة . واجتمع لفلقني ثلاثة عوامل هي المشاهدة والتجربة والصدفة — صدفة لمسه لنخذ ضفدع بقضيب حديدي مكهرب — فلاحظ انقباضها — فأفضى كل ذلك الى مباحثه في كهربائية الجسم الحي التي كان لها أثر كبير في ارتقاء الفسيولوجيا ولولا خيال غلفني وعقله المدرك لذهبت هذه الصدفة في سبيل غيرها لا يقام لها وزن

او خذ قصة غليليو . فان مشاهدته لخطرات مصباح معلق في كاتدرائية بيزا خلقت في عقله مبدأ استعمال الرقاص (او البندول) للتوقيت المبني على ان سرعة حركة الرقاص تنقص بزيادة طوله وتزيد بزيادة قصره . وجاء بعده مستنبط فصنع الساعة ذات الرقاص. فالمصباح المعلق كان في نظر سائر المصلين رمزاً دينيًّا وأما في نظر غليليو فكان اداة للكشف عن اسرار الطبيعة . وفي تلك اللحظة كانت الكاتدرائية معملاً طبيعيًّا له . ومن ثم مضى في مباحثه ومكتشفاته فاضطهد وسجن وحمل على نبذ آرائه ولكن طريقة التجربة والبحث انتصرت

ادوات الفكر

نقع في علم الطبيعة على أشهر الامثلة في تاريخ الاكتشاف والاختراع ولكننا اذا استقصينا فروع علوم الاحياء والاجتماع وجدنا امثلة لا تقل عما تقدم بلاغة في دلالتها ومن اشهر المكتشفات المبنية على التجربة في علوم الاحياء اكتشاف هرفي لدورة الدم (١٦٢٨) فكان ذلك باعثاً على اثارة روح البحث وتوسيع نطاقه ووضع نظاماً صحيحاً للخيال المبدع ربطهُ ربطاً محكماً بالحقيقة والدليل . فمضى الناس بعد ذلك التاريخ يبحثون بروح جديدة ومنطق صحيح . كان الخيال قبل ذلك وثاباً لا يقوم بالحقائق التي يمكن تأييدها ولا يتصل بها . وكان اكثر الاعتماد قبلاً على المشاهدة فصار على المشاهدة والتجربة . ومن نواميس الارتقاء العلمي انهُ حيث يعتمد البحث على المشاهدة فقط يزحف العلم زحفاً واما حيث يعتمد على المشاهدة والتجربة معاً فيكاد يطير طيراناً

واكتشاف هارفي خطير لانهُ كان دافعاً قويًّا لترقية علوم الاحياء . وهذا العلم كان

مثاراً لجدل كثير لصلته الشديدة بالناس. فكانوا يقولون: تجربة التجارب بالجوامد شيء واما تعريض النسيج الحي للتجربة فتاف لنظام الخالق. ومن هنا الاعتراض على تشريح الجثث للبحث الطبي. ولا ريب ان طائفة كبيرة من الناس مقاومة لتجربة التجارب في الحيوانات الحية

وعليه نستطيع ان نلخص ارتقاء المعرفة الحديثة في ثلاث خطوات (١) فوز الطريقة التجريبية (٢) تأسيس معامل البحث (٣) تشجيع البحث العلمي المجرد والعملي. هذه هي الخدمات التي ادتها العصور الحديثة لتوسيع نطاق الاكتشاف والاختراع وتنظيمهما. ولكنها كلها لا تخلق العقل المبدع وانما تتيح له فرصة الظهور

على ان المكتشفات والمخترعات لا تنحصر في الشؤون والاشياء الطبيعية والمادية. اذ ثمة مخترعات عقلية غرضها ان تكون ادوات للتفكير. فاللغة والنطق والكتابة والعدد كلها مخترعات ابدعها العقل المبدع ليرتفع عليها الى اعلى قمم المعرفة والفهم

فأصول اللغة والعدد ضائعة في صفحات التاريخ المطوية. ولعل الصوت الاول الذي فاه به الانسان للتعبير عن شيء او علاقة بين شيئين هو اعظم المخترعات الانسانية على الاطلاق. وتنويع هذا الصوت وتنظيمه حتى يستطيع الانسان ان يعرب به عن كل حالاته النفسية والفكرية، عن افراده وجموعه، عن زمانه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، عن الصفات والعلاقات والمسائل وكل ما يقوم في ذهنه من صور — هو ابلغ مثل على العقل يبدع ادوات لخدمته. فاللغة افضل ادوات التفكير

وما النطق والكتابة الا اختراعين صينيين كما ان القوس والمحراث اختراعان. وفي ارتقائهما تظهر الآثار التي تبدو غالباً في تاريخ اتقان المخترعات المادية. فالكتابة كانت اولاً صوراً وهذا في حد ذاته اختراع عظيم. ولكن العبقرية تجلت لما استعملت الحروف للدلالة على الاصوات ومن مجموعها صنعت الكلمات للدلالة على الاشياء والمعاني. ولولا استنباط الابجدية لقضي على كل المخترعات القديمة بالاندثار الا ما امكن نقله سماعاً. فالكتابة توسع نطاق الذاكرة القومية وتكمل الذاكرة الفردية. والعالم الحديث مبني على مدونات الماضي

ثم ان العد والقياس والعدد مخترعات فكرية لا مثيل لها في الطبيعة ابدعها الانسان معواناً له على التفكير. فالقياس اساس العلم. ان موازين القوى ومقاييس الزمان والمكان عندنا بلغة مضبوطة للمقادير. فنحن الآن لا نكهن بل نحسب ونضبط. وما يصح في عرض البحار باستعمال السدس والبوصلة لقياس المسافات وضبط سير السفينة يصح كذلك في كل نواحي الحياة. ولولا القياس الدقيق لتعذر خلق العلم الحديث. فعصر الآلة هو عصر الدقة. والآلة تحل محل الطاقة الانسانية وتفوق بتاجها تاج براعته. والمخترعات الفكرية هي ادوات التفكير التي لا يستغنى عنها

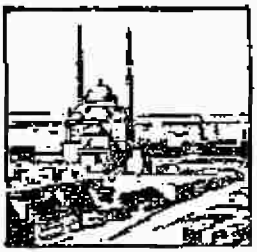

حنين العرب الى بني امية

لبتدلى جوزى
الاستاذ في جامعة باكو بروسيا

وانهم معدن الملوك فلا تصلح الاّ عليهم العرب

لم تكد الخلافة تنتقل من بني امية الى بني العباس حتى اندفع هؤلاء ومن مالأهم ووالاهم او من اشتروه باموالهم واصطنعوه بعطاياهم من المؤرخين والشعراء والفقهاء المحدثين وناقلة الاخبار او من اضطروه الى ذلك بطرق الارهاب والتنكيل من الوزراء والكتبة وسائر طبقة الموظفين في الطعن على الاسرة المغلوبة وتصوير اعضائها وحكمهم في اقبح صورة فلم تبق رذيلة الاّ نسبوها اليهم او مثلبة الاّ الحقوها بهم[1] او القاب قبيحة الاّ نبزوهم بها فصار معاوية في نظرهم « عدو الله وغلاماً مترفاً جبّاراً عنيداً لا يراقب الله في قتل الاخيار واسع الدنيا ضيق الآخرة قريب الثرى بعيد المرعى يجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات »[2] ويزيد ابنهُ شر الناس اجمعين فاسقاً سكّيراً منهتكاً جائراً « كان قرعون اعدل منهُ في رعيته وانصف منهُ لخاصته وعامته »[3] والوليد بن عبد الملك « جباراً عنيداً ظلوماً غشوماً » وهشام « احول خشناً غليظاً جباناً بخيلاً » وسليمان « .... اكولاً شرهاً يأكل كل يوم نحو مئة رطل »[4] والوليد بن يزيد « صاحب شراب ولهو وطرب ومتماعاً للغناء منهتكاً خليعاً ماجناً » وهلمّ جرًّا وياليتهم اكتفوا بذلك لكنهم حاولوا ان يكفروهم ويخرجوهم عن دين السنة والجماعة ليقضوا عليهم في نظر الشعب البسيط فاخذوا يؤوّلون الآيات القرآنية حسبما شاءت اهواؤهم واغراضهم السياسية فقالوا ان الله لمّح في كتابه بقوله « والشجرة الملعونة في القرآن » نحوهم فما يزيدهم الاّ طغياناً كبيراً (١٧ : ٦٢) وانهُ تعالى عنى بقوله « ليلة القدر خير من الف شهر » مدة ملك بني امية ووضعوا فيهم الاحاديث ولم يستحوا ان ينسبوها الى النبي والنبي بريء منها فقالوا ان محمداً قال « يطلع من هذا الفج رجل من امتي يحشر على غير ملتي » واراد بالرجل معاوية وانهُ قال « اذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه » واوردوا الحديث « المرفوع المشهور » « ان معاوية في تابوت من نار في اسفل درك منها ينادي يا حنان يا منان الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين »

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ١٠ ص ١٣ و ٣٠٠ (من الطبعة المصرية)
(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٥٦ (من الطبعة المصرية)
(٣) « « « ٢ : ٦٨
(٤) كتاب الديارات والحدائق في اخبار الحقائق ج ٣ ص ٣٤ (ليون ١٨٦٩)

الى غير ذلك من الاحاديث الملفقة والتهم الكاذبة التي تجدها مذكورة في رسالة[1] المأمون او المعتضد بالله التي امر بانشائها وقراءتها على المنابر يوم رأى الناس في عاصمته وبالقرب من قصره يقضون الليالي في استماع اخبار بني امية والتحدث بمآثرهم وعزهم الغابر ويوم شاهد بنفسه حنينهم اليهم وانتظارهم خروج «السفياني» كما سترى بعيد ذلك. ثم هم لم يقفوا عند ذلك بل عمدوا الى تزوير الحقائق التاريخية المعروفة وصاروا ينسبون لانفسهم مآثر اعدائهم ويتحلون ما قيل فيهم من طيب الشعر والمديح فبدلوا اسم عبد الملك باني قبة الصخرة في القدس باسم المأمون لكنهُ عَزُبَ عن بالهم ان يبدلوا سنة بناء القبة اي سنة ٧٢ للهجرة بغيرها من سني خلافة المأمون فانفضح عملهم وظهر تلاعبهم حتى بالتاريخ ولما خيل اليهم انهم لم يتركوا حسنة لبني امية الا واتوا عليها اخذوا يضطهدون من والاهم واساعدهم او انتسب اليهم فامر المهدي سنة ١٦٠ ثم ردّ آل زياد الى نسبهم فردوا[2] وامر المستعين سنة ٢٥٠ فاسقطت مرتبة من كانت له مرتبة في دار العامة من بني امية كابني الشوارب والعثمانيين[3] الى غير ذلك مما يطول شرحه. على ان كل ذلك لم يكن ليقوى على محو آثار بني امية والحط من قدرهم وتنفير الامة العربية منهم فقد بقيت في اكثر البلاد التي فتحوها آثار خالدة واخبار مبعثرة تصوّر سياسة بني امية وشخصياتهم على خلاف ما حاول ان يصوّرهم اعداؤهم وبعض مؤرخي عصر بني العباس او من اعتمد عليهم من مؤرخي العرب. وهذه الآثار وتلك الاخبار كانت ولا تزال تذكّر العرب بهذا الدور المجيد من ادوار تاريخهم وتخلق فيهم حنيناً دائماً الى اصحاب هذا الدور. وانهُ يسرنا ان نرى ان بعض مؤرخي العرب ممن اشتغل بتاريخ العرب قد انتبه اخيراً الى ما ادخله اعداء بني امية على تاريخهم من التزوير فاخذ يعمل على كشف الحقيقة واعطاء كل ذي حق حقه. واول من اقدم على هذا العمل الطيب هو الاستاذ الشهير J. Wellhausen[4] ثم تبعه الامير Caetani[5] والاستاذ كلية بيروت اليسوعيين الاب H. Lammens[6] وعضو اكاديمية بطرسبرج المتوفى حديثاً الاستاذ بارتولد وقليل غيرهم. على ان البحث في تاريخ بني امية وعصرهم لا يزال في اوله واذن لا يزال واسعاً لمن يريد ان يطرقهُ وأملنا ان يعنى به مؤرخونا حتى لا نكون حتى في تفهم تاريخ امتنا والتنقيب عنهُ عالة على غيرنا من الامم كما نحن عالة عليهم في جميع منوجاتنا العقلية وهذا ما حملني على وضع هذه المقالة التي اتوخى منها القاء بعض النور على ناحية صغيرة من نواحي

(١) الطبري ١١ : ٣٥٤ — ٣٦٠ (٢) الطبري ٩ : ٣٣٤ (٣) ابن الاثير : التاريخ الكامل ٧ : ٤٦ (من الطبعة المصرية). (٤) طالع كتابه في الالمانية «الدولة العربية وسقوطها» وقد ترجم الى الانكليزية (٥) طالع عن الاخص تأليفه في الايطالية : «تاريخ الاسلام» (٦) طالع تأليفه في الفرنسية عن «معاوية» «ويزيد» وغيرهما

هذا الدور التاريخي فان وُفّقت فيه والاّ فقد بذلت جهدي

لو تتبعنا اخبار بني امية باسهاب لا يشوبه شيء من الغرض او التعصب السياسي من يوم انقطع حبل دولتهم وانتقل الحكم الى بني العباس الى ان تلاشت هذه الدولة فعلاً واسماً على يد هولاكو خان المغولي سنة ١٢٥٨ م لامكننا أن نستخرج منها حقيقتين لا غبار عليها احداها ان العرب على الاطلاق كانوا دائماً يحنون الى بني امية ويودون لو يعود الحكم اليهم وانهم كانوا يفضلونهم وسياستهم على بني العباس وسياستهم بل أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يقدمون اكثر خلفاء بني امية حق قدرهم ويمثلون بهم في امورهم وسياستهم ويتقربون بمن بقي منهم او من اتباعهم وموالهم ولو تظاهروا احياناً بضدّ ذلك. ولنا على كل ذلك ادلة كثيرة لا يتسع المكان لذكرها كلها فلنقتصر اذن على بعضها

من اكبر الادلة على تعلق الامة العربية ببني امية وحنينهم اليهم بعد سقوط دولتهم محاولة بعض امراء الجيش الاموي وشيوخ اكثر القبائل العربية ولا سيما القيسية منها انتزاع الحكم من ايدي المغتصبين الذين استحوذوا في اخذه بالاعاجم وردّه الى بني امية . وقد ظلت هذه المحاولات تتجدّد وتتمدّد الى اوائل العصر الحادي عشر ولقد كانت تنجح هذه المحاولات لو لم يكن امر الذين كانوا يقومون بها «مشتتاً» ولو كان عليهم رأس يجمعهم (كما قال الطبري وأصاب)[1]

ان اول من انتقض على بني العباس وبيّض اي رفع الاعلام البيض اعلام الامويين هو حبيب بن مرة المرّي ومن كان معهُ من اهل الشام. قال الطبري «وكان عبد الله بن علي (عم المنصور وقائد جيوش العباسيين) مشتغلاً بحرب حبيب بن مرة المرّي بأرض البلقاء او البثنة وحوران وكان من قواد مروان وفرسانه فبايعهُ قيس وغيرهم ممن يليهم من اهل تلك الكور البثنية وحوران»[2] وبينا عبد الله كان يقاتل حبيب بن مرة او قبل ذلك على رواية اخرى خلع ابو الورد بجزاة بن الكوثر بن زُفر بن الحارث الكلابي «من اصحاب مروان وقواده وفرسانه» ودعا اهل قنسرين الى خلع ابي العباس «فبيضوا بأجمعهم» وكان سبب تبييضهم على ما رواه الطبري ان قائداً من قواد عبد الله بن علي عبث بولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم فشكا بعضهم ذلك الى ابي الورد فخرج من مزرعة له يقال لها زراعة بني زفر ... في عدة من اهل بيته حتى هجم على ذلك القائد فقاتله حتى قتله ومن معه»[3] وفي ذلك من الوفاء لبني امية والذود عن شرفهم ما لا يخفى على احد . ثم خلع اهل الشام وحمص وغيرهم فاضطر عبد الملك ان يصالح حبيب بن مرة ويؤمنه ومن معه ثم صالح اهل قنسرين

(١) الطبري ٩ : ١٣٩ (٢) الطبري ٩ : ١٣٩ (٣) الطبري ٩ : ١٣٧

والشام وآمنهم ولم يأخذهم بما كان منهم » خوفاً ولا شك من استفحال الامر

وفي هذه السنة اي سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩—٧٥٠م) بيّض اهل الجزيرة ونقضوا حين بلغهم خروج ابي الورد وانتقاض اهل قنسرين ولو انتقضوا في آن واحد مع من انتقض من اهل الشام وقنسرين وغيرهم لاحرجوا جيوش بني العباس وربما قضوا على دولتهم الحديثة في البلاد الشرقية على الاقل لا سيما وان بعض قواد بني امية كابن هبيرة في واسط واسحاق بن مسلم العقيلي بسميساط وغيرهم في غيرها كانوا لا يزالون يقاتلون باسم بني امية وكان يخشى بأسهم فقد ذكروا ان اسحاق بن مسلم المذكور اقام بسميساط سبعة اشهر وابو جعفر محاصره وكان يقول « في عنقي يمنه فانا لا ادعها حتى اعلم ان صاحبها قد مات او قتل فارسل اليه ابو جعفر ان مروان قد قتل فقال حتى اتيقن ثم طلب الصلح وقال قد علمت ان مروان قد قتل فآمنهُ ابو جعفر وصار معهُ وكان عظيم المنزلة عنده »[1] فلما أيس ابو جعفر جانب العقيلي وجنوده لم يبق امامه وقتئذ الاّ ابن هبيرة فوجه اليه خيله ورجله وبعد حصار طويل قبض عليه وقتله ثم اخذ يقبض ويقتل من بقي من شيعة بني امية حتى بلغ عدد القتلى على ما ذكروا ستمائة الف في اقل من سنة . على ان ذلك لم يجتث من قلوب العرب وعلى الاخص قلوب سكان سوريا والجزيرة وفلسطين حب بني امية والتغني بأخبارهم والاشادة بذكرهم ولم تقعد بهم عن الخروج على « الاسرة المباركة » كلما كانت تسمح لهم فرصة

ففي سنة ٢٠٢ (٨١٧—٨١٨) بيض اخو ابي السرايا في الكوفة واجتمعت اليه جماعة[2]

وفي سنة ٢٠٩ (٨٢٤—٨٢٥) خرج لنصر بن شبث وجماعته دوكانوا جند بني امية [3] فأرسل اليه المأمون جعفر بن محمد من بني عامر يدعوه الى الطاعة « فأذعن وشرط شروطاً منها ان لا يطأ المأمون بساطاً » فلم يجب الى ذلك وأصر المأمون الاّ ان يطأ بساطه اسوة بغيره ممن خرج عليه قبله فلما عاد اليه جعفر بن محمد بالخبر « صاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال ويلي عليه (اي على المأمون) هو لم يقو على اربعمائة فدفع تحت جناحه يعني الزط (فهل) يقوى على حلبة العرب » ؟[4] فكتب اليه المأمون كتاباً يذكره ويتهدده ان هو لم يخلد الى الطاعة ومما جاء في هذا الكتاب ويحسن هنا ذكره قوله « ولا ظُنّ بمن سعى من انصار الدولة كواهل رعاع اصحابك ومن تأشب[5] اليك من اداني البلدان وأقاصيها وطغامها واوباشها ومن انضوى الى حوزتك من خرّاب الناس ومن لفظته بلده ونفته عشيرته لسوء موضعه فيهم »[6] مما يستدل منهُ على ان عدد من لبى دعوة نصر بن شبث من العرب كان كثيراً وانهم اجتمعوا

(١) الطبري ٩ : ١٤٠ (٢) الطبري ١٠ : ٢٤٥ (٣) الطبري ١٠ : ٢٦٧
(٤) الطبري ١٠ : ٢٦٧ (٥) اجتمعوا عنطين (٦) الطبري ١٠ : ٢٦٨

اليه من اداني البلدان واقاصيها» ولولا ذلك لما استطاع ان يقف في وجه جنود الخليفة «خمس سنين» كما روى الطبري ولما اضطر الخليفة ان يراسله ويتهدده ثم يتملقه ويستعطفه. والذي يظهر لي من حديث الطبري ان خروج نصر على الخليفة ووقوفه في وجه جيوشه خمس سنين كان داعياً لخروج غيره من عرب سوريا . فقد روى الطبري ان عبدالله بن طاهر ابن الحسين رجع من مصر سنة ٢١٢ه (٨٢٧—٨٢٨) وسمه المتغلبون على الشام كابن السرج وابن ابي الجحل وابن ابي الصقر»[1] لكنهُ لم يبين متى وكيف تغلب هؤلاء على الشام[2] ثم لم يمض خمس عشرة سنة على اخماد حركة نصر بن شبث حتى خرج في فلسطين ابو حرب اليماني «مدعياً انهُ اموي ...فاستجاب له قوم من حراثي اهل تلك الناحية واهل القرى»[3] اعتقاداً منهم بأنهُ «السفياني» المنتظر ولما كثرت غاشيته وتباعه من هذه الطبقة من الناس دعا اهل البيوتات من اهل تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية ورجلان آخران من اهل «دمشق» فصار حوله على قول بعضهم زهاء «مئة الف» او خمسين الف على قول غيرهم[4] وفي كلا القولين مبالغة ظاهرة . ولولا ذلك ولولا ان اتباع ابي الحرب كان اكثرهم من الحراثين واهل القرى مما يستدل منهُ على ان حركته كان لها صبغة اشتراكية لما قويت جنود المعتصم على قتلها بهذه السرعة . كانت حركة ابي حرب اليماني على ما اعلم آخر حركة اريد بها القضاء على حكم بني العباس في سوريا عهد الدولة الاموية ومنشأ عزهم ومادة قوتهم اذ لم يذكر المؤرخون بعدها حركة من نوعها[5] وليس في ذلك ما يدعو الى العجب لان دولة بني العباس فقدت بعد وفاة المعتصم حربتها واصبحت العوبة في ايدي امراء الجيش من الاتراك ولان اكثر البلاد العربية انفصلت عنها فعلاً ولم تعد تفكر الا في مصلحتها الخاصة واستقلالها عن مركز الخلافة على ان ذلك لم يكن ليُنسي العرب اعظم دور من ادوار تاريخهم واقرب دولة الى قلوبهم فظلوا يذكرون في ايام محنهم بني امية بخير ما تذكر به الامم العظيمة الغابرة وينتظرون مجيء «السفياني» كما لا يزال اليهود ينتظرون مسيحهم والمسيحيون مجيء المسيح الثاني واصحاب زرداشت مخلصهم او بالاحرى مخلص العالم Saoshyant وقد تحول هذا الانتظار الى عقيدة دينية[6] وانتشر حتى بين

(١) الطبري ٣: ١٠٢٧٨ (٢) لا نعلم متى كانت هؤلاء المتغلبين بعد في ثورة اهل الشام في ايام الرشيد (الطبري ٣: ٦٠٣١١) (٣) الطبري ٣: ١١٥٠ (٤) الطبري ٣: ١١٥٠ (٥) لخروج اسحاق بن اسماعيل مولى بني أمية في تنيس وليث بن نصر بن سيار في سمرقند سنة ١٩٠ غاية غير التي كانت لمن سبقهم ممن ذكرنا (٦) سنفرد «للسفياني» واخباره مقالة خصوصية ننشرها على صفحات المقتطف (ان شاء الله) ولهذا لا نرى حاجة الى الاطالة في ذكره هنا على انه لا بد من التنبيه الى ان لا صحة البتة لقول مصعب بن عبدالله بن يزيد بن معاوية هو الذي وضع خبر السفياني وكبره واراد ان يكون للناس فيه طمع حين غلب مروان بن الحكم على الملك وتزوج امه فان السفياني قد رواه غير واحد وتابعت فيه رواية الخاصة والعامة وذكره كثيرون من اهل البيت

الاعاجم[1] وهو لا يزال شائعاً حتى اليوم في شنشان (في بلاد الهند) وبعض اطراف اسيا الوسطى عند الاسماعيلية. وقد تبين لي وانا اضابع مؤرخي العرب وشعرائهم ان حنين العرب الى بني امية وانتظارهم ظهور احدهم كانا يشتدان ويقويان كلما كانت الامة تشعر بضعف الدولة العباسية وتراجعها امام اعدائها في الخارج والداخل وكلما كان خلفاء بني العباس يمسون شعورها القومي بتقديم الاعاجم عليها واعتمادهم عليهم في ادارة الخلافة يؤيد ذلك انهُ لما ساءت احوال الدولة واخذ حبلها يتقطع على اثر خروج بابك واصحابه المعروفين بالخرّميين واقتحام الروم للثغور وثورة افريقية الى غير ذلك اخذ الناس يتحسرون على ذهاب ملك بني امية وما كان لهم من السلطة وانبطش واخذوا يقابلون سياستهم على سياسة بني العباس فاغاظ ذلك المأمون فامر منادياً ينادي « برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير »[2] على ان ذلك لم يمنع المحدّثين والقصّاص من جمع اخبار بني امية[3] وطلبها في طول البلاد وعرضها حتى اصبح طلبها كما يظهر مهنة كطلب الحديث وصار له رواة متخصصون كما كان رواة لغتر او لابطال الاياذة عند اليونان القدماء. ولم يمنع ذلك الناس من التعود على طرقات وفي مساجد بغداد ودمشق وغيرها لاستماع هذه الاحاديث والتأسي بها. لنستدل على ذلك من الكتاب الذي امر المعتضد بالله بوضعه سنة ٢٨٤هـ (٨٩٧—٨٩٨م) ليقرأ على الناس. قال ابو جعفر الطبري «وفي هذه السنة عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن ابي سفيان على المنابر وامر بانشاء كتاب بذلك يقرأ على الناس فخوّفه عبيد الله بن سليمان بن وهب اضطراب العامة وانهُ لا يأمن ان تكون فتنة ...» وقال ايضاً «ان اول شيء بدأ به المعتضد حين اراد ذلك الامر بالتقدم الى العامة بلزوم اعمالهم وترك الاجتماع ... ومنع القصّاص من القعود على الطرقات ... وفي الجامعين ... وفي جمادى الاولى نودي في المسجد الجامع بنهي الناس عن الاجتماع على قاصّ او غيره ومنع القصّاص واهل الحلق من القعود

(يتلوه البقية) الاستاذ ب. جوزي

---

(١) ذكر المقدسي (ص ٣٨٤ من احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ليدن ١٩٠٦) ان سكان اقليم الجبال (في العراق العجمي) ... عوان (غلاة) حنابلة يفرطون في حب معاوية. وقال ايضاً (ص ٣٩٩) «ان في اهل اصفهان نصباً وظرف في معاوية وان معاوية كان مرسلا»

(٢) كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق ج ٣ ص ٣٢٠

(٣) لا نعلم هل حفظت هذه الاخبار في هذا اليوم ام ليت بها ايدي اصحاب الغرض على اننا نعلم ان كثيرين عنوا بها وجامعوا عن بني امية خير دفاع منهم الجاحظ صاحب كتاب (العثمانية) وكتاب (امامة المروانية) وكتاب (امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان) وقد اتصر له فيه من على وايد امامة بني امية ثم وضع كتاباً آخر امجاد (مسائل العثمانية) وكتاب (امامة ولد العباس) ضد بني العباس انظر (مروج الذهب للمسعودي ٣ : ١٤٣)

جفاء الطبيعة

الشمس تنزل في الغروب ، وقد تورّد خدُّها
لتقبّل الأفقَ البعيدَ ، وقد تسمّر وجدُها
تخفي الاسى خلف النخيل
مثل ابتسامات العليل
حتى اذا احتجبت تماماً خلف استار الأفق
وتراكضت زُمَرُ النهار ، وأسرعت زُمَرُ الشفق
نزل المساء برجله
وجرى الظلام بخيله
خطّت عليّ كآبةٌ : كالنسر حطّ وقد وهَى
لم أدرِ كيف تسلّلت للنفس مدّت ظلّها
أمن المساء ولونه
يحكي الضليل بحزنه
أم من أفانين الحياة ؟ وآهٍ من تفكيرها !
دَوْماً تساورها الشكوك ... فآهٍ من تسييرها !
تدع النفوس على الثرى
من بعد مرتفع الذرى
لابدَّ أن وراءها سرًّا وإني أرهبُ
ماذا تريد كآبتي ؟ ماذا تُسيرُ وتحجبُ ؟
النجم يبدو ساهيا
هلاَّ يحس بما بيا ! ؟
وتبعثرتْ بعضُ النجوم كما تبعثرت الفِكَرْ
يلهو بها عَدَمُ القرار كأنها بعض الشررْ
نثرته انفاس الهواء
فطار من دون اهتداء
أولستُ من هذي الطبيعة بعضها كالنجم منها ! ؟
فلعلَّ اشجان النجوم تلفتها النفسُ عنها
فاذا مضى شجن النجوم
تسري عن النفس الهموم !

وأتتْ على وجه الهلال سحابةٌ حجبت سناهُ
فشعرتُ أن كآبتي في القلب هدّت من قُواهُ
فلعل ان مضت السحابة
تمضي عن النفس الكآبة

وجلستُ أدعو ذكرياتي من مراقدها الهنيّة
كيما تطارد ما أحسّ به من الرُّهب القويّة
لكنها بعدت كما
بعد الخيال الى الخيا

وشعرتُ أني قد فُصِلتُ عن الطبيعة وانفردتْ
فزهتْ أساورُ النجوم وحدّثت من بعد صمتْ
تلك الربوعَ بنورها
فسمت بلاغة نورها

وزها الهلالُ. وكنتُ أحسبهُ سيطوي بين يأسِ
وجَدَتْ مباهجَها الطبيعةُ بعد فقدٍ، ما لنفسي!
فقدت مباهجها ولما تهتد
لا اليوم يكشفها ولا قلب الغد

فهل الطبيعة لا تحسّ بما تحسّ، وشقنا تأسى لها
أم أنها عافت مصاحبة الأناسي في الحياة؟ وما لها!
قد انكرتني بعد ما
تركتني ارتشف اللمى

تركتني أرتشف اللمى حتى سكرتُ من الرضابْ
هل كان ذاك حقيقةً، أم كان أخيلةَ السرابْ
فانا الحزين من البداءة للازل
حتى الطبيعة ينطوي فيها الامل

فتملّكي ما شئتِ أيتها الكآبةُ من فؤادي
ما دام حتى الأمّ تمنعُ في التجافي والبعادِ
فالطفل قد فقد الحنانْ
بين الطبيعة والزمانْ

حسن كامل الصيرفي

بيدرو في بلاط الامبراطورة كاترين ثانية الروسية

« ديدرو » وعصر الانسكلوبيذيا

صورة اثائر جنود الحرية الفكرية في العصور الحديثة[1]

— ١ —

ان ميزات اي عصر من عصور الانسانية هي اعم من ان تتمثل في شخص فرد من ابناء ذلك العصر . وليس من شك في ان القرن الثامن عشر كان يتسم بسمات هي اعم من ان تنحصر ضمن حدود سجايا « ديدرو » المعروفة عنهُ . ولكننا لسنا نغلو في القول حين نزعم ان « ديدرو » يمثل في شخصهِ نواحي روح ذلك العصر الاساسية خير تمثيل — فلقد كانت اهم ميزات القرن الثامن عشر المأثورة عنهُ هي حب الاستطلاع غير المحدود ، والتعطش الملحّ الى المعرفة ، والشغف الملتهب ببناء الطرائق الفكرية ، والايمان بمصير الانسان ، والرغبة في القضاء على آلام الانسانية ، والثقة بقدرة العلم على تهذيب الطبيعة ، واليقين باستطاعة الانسان الاستغناء عما وراء الطبيعة — هذه كلها من اظهر سجايا ذلك العصر وهي ولا شك تتمثل في شخص « ديدرو » خيراً مما تتمثل في اي مفكر آخر من مفكري ذلك الزمن

وحتى نستطيع ان نفي « ديدرو » حقهُ من التقدير لضطر ان نتناول روح العصر الذي اتمّ فيهِ « ديدرو » اعماله العظيمة — فأصحاب العقول المبتكرة المتوقدة ما كانوا يرجون خيراً او شبه خير من فرنسا سنة ١٧٥٠ ، لان فرنسا كانت قد افلست افلاساً سياسيًّا واقتصاديًّا وساءت حالها الاخلاقية سوءاً ابدع « فولتير » في وصفهِ لما قال عنهُ : « ان الرذيلة في فرنسا قد امسكت بدها في ذلك العهد حتى عن تقديم فروض الغلق للفضيلة » وكانت حياة فرنسا حينئذٍ تقوم على فكرة امتيازات الارستقراطية التي جعلت حقوق التفكير والفهم مسألة من المسائل التي تتطلب الحماية ، وكانت الجرأة في التفكير مساواها المخاطرة لمعاناة السجن او النفي . وايان تلفت الانسان في ذلك الزمن — قبل ظهور فلاسفته — وجد ان اضواءه تشوبها سحب مظلمة من اسباب المصاعب والويلات التي كان يتعرض لها

(١) من مقال للاستاذ هرولد لاسكي استاذ علم السياسة في جامعة لندن

كل صاحب فكر نيّر . الاّ انهُ في خلال الثلاثين سنة التي سبقت الثورة الفرنسية (سنة ١٧٨٩) اشتعلت في ذهن الشعب الفرنسي ونزعته ثورة فكرية تشبهُ في شدة حيويتها ثورة النهضة التي ظهرت قبل ذلك بنحو مائتي سنة — فلقد تفتحت اعين الناس على آمال ومكتشفات جديدة . وفقدت القيود التي كانت تضيق على روح الانسان في ذلك العهد شيئاً من قوتها على التقييد والضغط . وربما كانت تلك الآمال الجديدة لم تتحقق كلها ولا المكتشفات حددت بين دفتيها كل ما اختلج في اذهان اصحابها من طيوف احلامهم وأمانيهم . ولكن من ذا الذي يدرس الآداب الاوربية خلال السنوات العشر الاخيرة من القرن الثامن عشر ولا يقع فيها على اثر من آثار قوة تلك الروح الجديدة التي هبت رياحها من نفسية الشعب الفرنسي في ذلك العهد ؟ وليس من شك في ان تلك الروح قد استجمعت قوتها ثم ضربت ضربتها الاخيرة فاذا ببناء نظم الاستبداد الديني والسياسي في ذلك العصر ينهار على ألاّ تعود له سيادتهُ الماضية الكاذبة . واذا حقوق الانسان في ان يكون هو لا سواه ، سيّد نفسه ، قد اعلن اعلاناً لا تطيق الصبر على نكرانها اية قوة كانت ، واذا حق العقل في ان يتبع الهاماته ومكتشفاته اينما انتهت به ، وحرية التفكير للتفكير في اي لون من الوانه ، كلُّ هذه واشباهها من اسباب حرية النفس الانسانية قد ثبتت سيادتها نثبتاً تركخصوم الحرية منذ ذلك العصر مدافعين عن معاقل استبدادهم بعد ان كانوا مهاجمين . وفي الجملة فقد اتى على العالم في ذلك العصر فصل ربيع من التجديد بعد شتاء طويل من جمود الظلم والاستبداد

— ٢ —

اما « ديدرو » فيحتلّ في تلك الثورة الفكرية المباركة منزلة اولية لا تنكر

ولد سنة ١٧١٣ من ابوين من الطبقة المتوسطة وربي في احضان اليسوعيين على ان يخرج زهرة يانعة في رياضهم ، ولكن لا الكنيسة التي نشأ فيها ولا القانون الذي مهد له ابوه سبل دراسته ، استمالا نفس « ديدرو » . واما الشيء الذي امتلك عليه قلبهُ وجميع نواحي اعجابه هو حياة باريز . هناك عاش عشرين سنة عيشة الدرس والتحصيل المتواصلين مشهوراً في حيّ الكتاب بنفوره من كل ما يقيّد حريتهُ وبراعته في الابداع ودماثة خلقه حتى قيل ان « ديدرو » لم يعرف له عدوٌّ قط

وكألوف مثلهُ في ذلك الحيّ تزوج وندم واتخذ خليلة او خليلتين لم يتركا في حياته أثراً ما . الاّ ان رسائلهُ الى خليلته الثانية من اهم المصادر لفهم حياته ونفسيته في تلك الحقبة. ولم يترفع عن عمل اي شيء للارتزاق من كتابة مواعظ لليسوعيين الى اقتباس بعض الرسائل الانكليزية وتحويلها . والذي يلوح لنا ان الرجل كان اذا قرأ كتاباً استخلص لبابه ووعاه

في ذهنه وفي قلبه حتى ما يكاد ينسى منهُ شيئاً . وكانت له شهوة دائمة ملحة الى حب الاستطلاع ، فلقد قرأ وبحث في الفلسفة والدين والكيمياء والتشريع والطب والطبيعيات والآداب والدرامة وكان يحسن الكتابة فيها كلها ويجيد في بعضها البحث السيق والتقصي العويص

ولقد كان « ديدرو » في ذلك العهد ممن يثيرون مظان رجال البوليس واللاهوت بصداقته لروسو وكوندياك وسرعة نجدته لكل بائس من رجال القلم ، كان دائم العمل دائم التحدث . ولو انهُ مات سنة ١٧٥٠ لراح مجهول الاسم الا كأحد رجال الفكر الذين كانت تبشر حياتهم بمستقبل نير . فلقد كان وضع ، حتى تلك السنة ، كتابين او ثلاثة في الفلسفة ، ومجلداً آخر يحتوي على قصص مشوقة . اما العمل الذي اعدَّه للمنزلة الاولى في حركة القرن الثامن عشر الفكرية فهو انقطاعه لوضع انسكلوبيديا فرنسية على نسق ما وضعه « تشامبرز » الانجليزي ، فقضى في هذه المهمة عشرين سنة وخرج منهُ كأكبر داعية من دعاة الحرية . أن القلم ليعجز حقا عن تصوير الصفات التي تكشفت عنها نفسية « ديدرو » كمحرّر لتلك الموسوعة . فلقد ابدى من الوان الشجاعة والصبر وصدق العزم والاخلاص ما يندر أن يبدو من اي انسان آخر . وفي سبيل شجاعته النادرة استخفَّ بثورة الكنيسة ضده ، وتهديد الحكومة لهُ . بل لقد استخفَّ في هذا السبيل باقتضاض بعض اصدقائه كفولتير ودالمبر من حوله

ومشروع الموسوعة التي الفها وضعه بحق في طليعة رجال نهضة الفكر في اوربا . ولقد أكرمهُ « فردريك » ملك بروسيا وكاترين امبراطورة روسيا التي كانت تعجب وتكرم كل حركة فكرية تقوم في خارج حدود بلادها . . . وبمتاز « ديدرو » بقدرته على جعل كل انسان عرفه صديقاً محبّاً لهُ ، فقد كانت لهُ القوة الطبيعية الكافية لارضاء جميع الناس وتحبيبه اليهم ، ويكفيك منهُ انهُ كان يرضي الامبراطورة كاترين في بلاطها الملوكي في ذلك العصر كما كان يرضي عين الرضى اي عامل في المصانع التي كان يدخلها مستفسراً عن كيفية ادارة آلاتها

وليس من شك في ان « ديدرو » لم يكن لهُ ما كان « لفولتير » من سلطان على عقول عصره ، ولا هو أبعث الى النهضة الاوربية ما ابعثهُ فيها « روسو » من روح صبغت النهضة الاوربية بصبغتها ، وانما لما مات « ديدرو » سنة ١٧٨٤ كان حقاً على كل فرد ان يقول : — « قد مات اليوم رجل كان يعمل في الطليعة لاصلاح نفسية العصر ، وانهُ لولا تنظيم ذلك الرجل لمعركة النهضة ، لما أثمرت ثمارها اليانعة المعروفة »

* * *

وديدرو هو احد اولئك النفر القليل الذين اشتركوا في بناء الفكر الانساني دون

ان يخلفوا من تراثهم الفكري شيئاً يحتذى ، او ان يضعوا طرائق تعرف عنهم وتنسب اليهم

وحتى يستطيع المرء ان يفهم « ديدرو » يجب ان يفهم اولاً خطر الموسوعة التي وضعها ويتبيّن مقدار خصب الملاحظات التي سجلها في كل ناحية من نواحي الفلسفة تقريباً . و« ديدرو » لم يكن فيلسوفاً عظيماً ولكنهُ صرف جل عنايته الى الفلسفة ، ولم يكن نقاداً ولكنهُ اثر في الرواية وفي المسرح وفي فكرة الفن ايضاً — وبالرغم من انهُ لم يضع شيئاً مبتكراً في النقد اللاهوتي الاّ ان الكتبة اعتبرتهُ اقوى اعدائها بعد « فولتير » وقد كانت آراؤه السياسية خير ما كان شائعاً في عصره منها

ويصعب ان تجد اليوم اثراً واحداً من آثار « ديدرو » الادبية يصلح ليتداوله الانسان في هذا العصر باكمله ، ولكن كل هذا لا ينفي مقدار خصب عقله وغناهُ حتى ان المرء ليستطيع ان يستخلص من آثار قلمه مجموعة ممتازة لا تقلّ في جودة مادتها عن اية مجموعة اخرى من منتجات الفكر الحديث

ولقد وضعت موسوعات عدة قبل ان يضع « ديدرو » موسوعته هو ، وخاصة تلك المجلدات التي نبأ بها « بيل » Bayle عن مجيء عصر النهضة الفكرية . ولكن واحدة من تلك الموسوعات التي وضعت قبل « ديدرو » او بعده لم تحز ما حازته موسوعته من الخطر والشأن . وليست تنحصر خطورتها في نحو المواضيع التي حوتها بين دفتيها من مثل موضوع « كوني » الذي يعد فاتحة عصر جديد في درس الاقتصاد ، ولا من مثل موضوع « ترجوت » الذي يعتبر مرجعاً في تاريخ علم اللغات . ولا هي تنحصر في ان « ديدرو » كان اول من فكر في اخراج كتاب يعالج فيه جميع نواحي المعارف الانسانية كما كانت تعرف في ذلك العصر ، وانما خطورتها انما هي في النزعة التي كتبت بها . وفوق كل ما ذكر فلقد ادرك « ديدرو » في موسوعته كنه ما وصلت اليه جهود الانسان ، تلك الجهود التي غابت اهميتها الاجتماعية عن فطنة سائر من تقدمهُ من الباحثين

وموسوعة « ديدرو » هي انذار صارخ ارسله فريق من الناس يسعى لتحرير نفسه من قيود حكم مستبد وفلسفة دينية تعوق الارتقاء العقلي

وهي دعوة للمطالبة بحقوق الانسان غير المتناهية في حرية البحث ، والاصرار على ان العقل — لا الايمان — والفهم لا العقائد ، هما سبيل الحقيقة ؛ وليس من شك في ان موسوعة « ديدرو » لها اخطاؤها الكثيرة ، ففيها كثير من قلة التدقيق . وشيء من عدم الجهر بالحقيقة خوفاً من المراقبة . وغير قليل من النقل والانتحال . ولكن الانسان لا يقرأ صفحاتها الاّ ويشعر بان فيها كرامة عقل يسعى لاثبات حقوقه بحماسة أخّاذة . هنا نتيجة

تلك الثورة الفكرية التي في سيرها المجيد من ديكارت الى نيوتن وضعت المشاهدة محل الفرض، وتصورت الكون وحدة يمكن تعليلها تعليلاً معقولاً من غير توسط خارق للطبيعة . انها نقلت مركز العناية العقلية من القوى التي لا تفهم الى القوى التي تخضعها وتسيطر عليها . وجعلت العلم نتيجة للاختبار المحقق والبحث المنظم لا الاستلهام والتصوف والتحكم . فالانسكلوبيذيا تسجل انتصار الروح العلمية . وفي ذلك النصر الباهر كان ديدرو المنظم والقائد

والروح الاجتماعية التي تسود الموسوعة ليست تقص شيئاً في خطورتها عن خطورة الروح العلمية التي مرَّ ذكرها فيها . فجدة النزعة التي وسمت بها تلك الموسوعة هي في صميمها اعظم مما قد تبدو في ظواهرها ، ففي هذا العمل لا في سواه ، يمس الانسان لاول ما يمس تفسيراً شائعاً لنظرية « باكون » التي تقرر ان زيادة المعرفة العلمية هي قياس غلبة الانسان على بيئته ، وأن فهم العلم على انه سبيل اسعاد الناس يجب ألاَّ تشوبهُ شائبة واحدة من عرائيل القيود والتحفظات المعرقلة للارتقاء . والقارىء يتلمس في موسوعة «ديدرو» اصرار واضعها على ضرورة سعي الناس لمنع شقاء الناس لا لتقليله فقط، كما انهُ يشدّد على ضرورة عناية المرء بهذه الحياة الحاضرة ورفض جعل الحياة الاخرى وحدها حافزاً للجهاد

ومن المدهش حقاً ان يصرف « ديدرو » كل ذلك القدر الذي صرفهُ من الدقة والتفصيل حول الفنون الصناعية . وهو يبدو هنا مبتدعاً مبتكراً ادرك بصيرته شأن تطبيق العلم على الصناعة ومقدار اثر جهود الانسان العلمية في حياته الاجتماعية

و« ديدرو » لم يغفل يتلمس في كل ما كتب اصلاحاً لنظم التشريع القديمة ، وقد كانت له آراء عصرية حول التنظيم الاقتصادي فهاجم الامتيازات وعدم المساواة بشدة لا تقل عن الشدة التي هوجمت بها سنة ١٧٨٩ « سنة شبوب الثورة الفرنسية »

اما رأيهُ في نظام الحكم فقد كان متأثراً دائماً بما كتبهُ مرة عن ان « الحكومة الفاضلة هي التي تجعل مصلحة العامل غاية لها ، لانهُ اذا شقي العمال شقيت معهم الامة »

والمرجَّح ان احداً لا يقلب صفحات تلك الموسوعة اليوم سوى جماعة الاخصائيين . ولكن لها حق الادعاء بأنها احيت روح الحرية والنقد كجزء من ميراث الانسانية الخالد . وذلك اللهب البسيط الذي اشعلتهُ عصور النهضة في القرون الوسطى والذي سنتهُ ايدي رجال امثال « رابيليه » و « مونتاني » و « بل » — ذلك اللهب عينه انتقل بين ايدي « ديدرو » الى نار آكلة التهمت في شدتها غابة كثيفة من الجهل والظلام كان الناس يتخبطون فيها فلا يسترشدون في داخلها الى غاية تعرف

ومبادىء تلك الموسوعة ونظرياتها لها خطرها عند الناس ، لا من حيث ان اعدادها

سمحوا بنشرها على انها تمهد لمبادئهم ثم عجزوا عن مواجهته ، ولكن لانها تكشف للناس عن عجز الارتقاء ، وعن ان العالم في ذاته كاف لتغير ذاته ، ولأنها تعزز حقوق الطرائق العلمية التي لا تطاول ، وتقرر مع تلك الحقوق ضرورة اتباع وواجب الانسان للرضوخ امام مطالب العقل ، وان البحث للبحث ، لا للفائدة والمنفعة الشخصية ، هو مصدر عزاء وسعادة ، وان حروب الفتح ترجع بالحرمان القهقرى ، وانهُ من المستحيل على العقل البشري ان يقبل التحكمات الدينية كمقياس للحقائق

هذه هي مبادىء النظريات في موسوعة «ديدرو» وهي مبادىء ونظريات سائغة عادية يتنا . ولكن يجب ألاّ ننسى انها انما هي شائعة اليوم بيننا لان « ديدرو » وجماعتهُ كانوا على اتم استعداد للتضحية بحريتهم في سبيل اذاعتها . ولقد عدّ «ديدرو» جيشاً لتعزيز حقوق الفكر في استقلال انتصاراته ، وجمع تحت لوائه كل امرىء من ابناء عصره ممن تحترم اليوم اعمالهم . فليس بالشيء الوهمي ان نشبه من اشتركوا في وضع الموسوعة بجيش في الميدان وان ننسب الى القائد الذي تولّى الاشراف على تلك المعركة فضل الانتصار والغلبة[1]

— ٣ —

ومهما يكن من شيء فليست عظمة « ديدرو » فيما قام بهِ من الاعمال وانما هي في الرجل الذي كانهُ « ديدرو » . وما من انسان عرفهُ في رسائله او في رسائل اصدقائه الاّ احبّهُ . فطبيعة «ديدرو» الطيبة وجرأته وفطنته واخلاصه لعمله وتهالكه على السعي هذه السجايا وأمثالها من صفات الرجل تربط المرء بهِ رباطاً لا تفكّ لهُ عرى

وليس من شك في ان « ديدرو » كانت تنقصه رقة المزاج ورقة المعاملة ، وكثيراً ما كانت تزل بهِ حرارته واندفاعه الى غير مستواه . وهو ممن يرضخون للغريزة بسهولة ، شديد الاهتمام بنفسه ، سريع الانحراف الى الخشونة التي كانت سجية بارزة من سجايا عصره . الاّ انهُ كان ، كما قال فولتير عنهُ « يحمل في نفسه شيئاً سقراطيّاً » فكان يبعث في كل شيء بمسّهُ قوة وثابة ، وكان يضع الحقيقة فوق كل شيء آخر . ولم يبد من انسان ما قط ما بدا من « ديدرو » من شهوة ملتهبة الى المعرفة . ففي كل شيء بحثه كانت غايته الوصول الى قرارة ذلك الشيء . وكان له من قوة التأثير في الغير وحفزهم الى بذل اقصى ما يمكنهم بذله في مساعيهم ما لا يضارعهُ فيها ستة رجال من اقطاب تاريخ الفكر الانساني »

وكان يجد السعادة في كل مكان في الاشياء البسيطة وفي الناس البسطاء ، وكان يحافظ

(١) لو لم يكن لديدرو من اثر سوى اتمام الموسوعة لكفاه هذا فخراً واثراً في التاريخ ولكن له آثار في الاجتماع والفلسفة والفن سوف نجعلها موضوع مقال مستقل في جزء تال

على كرامة اخوانه في الانسانية محافظة تامة، وكان يبغض اشد البغض كلَّ ما من شأنه ان يؤدي الى القسوة او الغموض او الى الجهل ، وقد ساعد على تقدم المعارف بكل ما امكنهُ قواه من المساعدة

و «ديدرو» كان هو هو اينما نزل ، سواء كان في المصنع يتفهم من العمال سر مهنهم ، ام في صالون مدام نيكر ، ام في حضرة امبراطورة روسيا حيث تشتدُّ به اسباب الجدال وتلجئهُ حاجة الاقناع الى ضرب جلالتها على ركبتها ، او في مسقط رأسه يحتمياً بأبيه فلا يملك دموعه من الجريان اذ يضم اباه الى صدره . وفي سجنه حيث اعتاد روسو ان يتردد عليه . ان « ديدرو » في كل تلك الحالات وفي غيرها ، هو هو شدة تعطش الى الحياة والآراء وشدة تحبب للاذى وشدة كرم . ولقد قال باكون « ان النفس كلما كوم معدنها زادت امامها اسباب الرفق والرحمة ». واولئك الناس الذين قابلوا «ديدرو» لاول ما قابلوه في حياتهم لا بدَّ انهم وجدوا فيه من اسباب الفتنة ما اعتاد شباب اثينا ان يجدوه في سقراط المعلم الاول

و «ديدرو » هو من اوائل رجال القلم في تاريخ فرنسا ممن اعتزُّوا بالطبقة التي خرجوا منها وقط لم يسعوا ليعلوا بأنفسهم عن مستواها . وكان يتجلى حتى ايامه الاخيرة بالصفات المعروفة عن طبقته المتوسطة . ويعزى نجاحهُ في الحياة الى حبه للعمل ، وكان يحكم على النظم الاجتماعية او لها حسب اثرها في الطبقة التي كان هو منها . وليس من شك في ان المورد الذي صدرت عنهُ فلسفته انما كان هو مورد حاجات تلك الطبقة وانتصار مبادئه لم تكن تعني اكثر من سد تلك الحاجات . والمرء الذي يدرس مبادىء ذلك الرجل العظيم لا يخطىء فيها الدعوة الى الغاء الامتيازات والى انتصار الحرية المدنية ، والحكومة التمثيلية ، وتطبيق العلم على الحياة العملية ، والوطنية التي تضع غايات السلام فوق ضرورات الحروب ، وغير هذا من حاجات الشعب مما كان يتسمعها من افواه ابيه والخاصة من اصدقائه لما كانوا يجتمعون في منازلهم ، يهمسون بها همساً ولا يجرؤون على البوح بها . ولكن الرجل الفذ « ديدرو » رأى في هذه المبادىء والنظريات ما لم يستطع غيرهُ رؤيتهُ فيها . ولما شبَّ وهمَّ بالمناداة بها ألبسها من قوة معارفه قوة فعالة مؤثرة — وكما ان « روسو » عبر عن آمال العامة التي كانت تختلج في نفوسهم ولكنها تتجمد على افواههم ، فكذلك قد عبر « ديدرو » عن اماني طبقة اصحاب الاملاك الصغيرة الذين يشقون بالعمل ولكنهم لا يصبحون اغنياء قط

وتلك الاماني التي عبر عنها « ديدرو » ظهرت على مسرح السلطان والنفوذ عقب الثورة

الفرنسية ، وعلى ذلك « فديدرو » لهُ فخر العمل بكل قواه في سبيل وضع الاساس الفلسفي لحكومة الطبقة المتوسطة الصناعية

***

ولقد وضعت حول مشاكل الاجتماع واثر الصناعة فيها مؤلفات لا يستطاع مقارنتها بما وضعهُ « ديدرو » في هذا الشأن . كما انهُ قد وجد من الكتّاب من كان لروعة اسلوبهم اثر قوي في الاجيال التي اتت بعدهم فظلت اساليبهم تغري الناس بما تركوا وراءهم من آثار بالرغم من ان آراءهم قدمت والاغراض التي كانوا ينادون بها بليت . و « ديدرو » ليس له شيء من روعة تلك الاساليب المشوّقة المغرية ، بل يوجد من المفكرين امثال ديكارت ونيوتن وداروين من اذاعوا مبادىء هي من صميم الحقيقة حتى لقد غيرت الاساس الذي بُنيَ عليهِ معارف الانسان . وشيء من هذا او ما يشبههُ لا يمكن ان يُستقصَى في كل ما ترك « ديدرو » من آثار

ولكن بالرغم من هذا كله فاسم « ديدرو » حيٌّ لا يموت . وينسب الفضل في خلود اسم ذلك الرجل الى ان ذهنهُ قد بعث الى عصره باسباب الخصب والنماء . ولان شخصيته القوية جعلتهُ زعيماً بارزاً في المعارك الرئيسية التي جرت في سبيل الحرية ، وهي معارك لا يسع المؤرخ العصري ان يغفل اثرها

و « ديدرو » لم يحظ بغير القليل من اسباب المكافأة التي يناطها عادة الرجال الذين ينجحون في الحياة . فالاكاديمية لم تكافئهُ باكثر من اعفائه من الاشتراك ، وحتى ايامه الاخيرة كان « ديدرو » يحتاج الى الجهد في العمل حتى يحصل على قوته اليومي ، الا انهُ كان يعيش دائماً في عالم خاص به من المبادىء السامية ، وكان يشعر في نفسه بفرح اشتراكه فيما يدعوه « هيني » حرب تحرير الانسانية . والشيء الذي كان يشغلهُ في الحياة هو تطلعهُ الى الخلود الذي تقدره الاجيال المقبلة حين تعترف للذين اتوا من قبل بانهم قد خدموا الاجيال بعدهم اصدق خدمة

وحتى اذا اعتبرنا هذه الاماني مجرد احلام ، وما هي باحلام ، فانها على كل حال — كما قال « ديدرو » — « احلام قد امتدت بامتداد حياتي وجعلتني مأخوذاً بشعوبها طيلة ايام تلك الحياة »

والواقع ان تلك الاماني لم تكن احلاماً خلابة ، ففي حياته سمع « ديدرو » انغام ثناء ابناء عصره عليهِ وموسيقى تلك الانغام ما زال تتردد اصداؤها في آذان الاجيال الحاضرة وحسب الرجل بذلك خلود اسم

يوسف مُنّا

ادغام النفس في الاشياء والناس

وأثره في الدين والحنو والوطنية والفن

نرغب ان نشير اولاً الى ان هذا الميل الذي نطمح ان ندل على مكانه من حياتنا العقلية هو من الميول المعتدلة الوادعة ، ولكنه ، على دعته واعتداله ، ليس اقل لصوقاً بنا وملازمة لنا من كثير من ميول النفس القوية الجائشة — التي تثيرنا بعنف على التفطن اليها والعناية بها كلما صادفت ما يرجئها او يُزخر تيارها . فنحن اذ نعالج هذا الميل اذاً لا نعالج احد الميول الشاذة المضطربة التي يسهل على الفاحص النفسي ان يرسم خطاها ويشاهد آثارها ، اذ من المؤكد انه كلما بالغت الصفة النفسية في الشذوذ والانحراف كان من الهين افرادها ومعالجتها منعزلة — نقول اننا اذ نعالج هذا الميل لا نعالج احد الميول الشاذة ، انما نعالج ميلاً طبيعياً يكاد لطبيعيته ينفلت من بين اصابعنا كلما همنا به وحاولنا ان نقسره على الوقوف في مشهد من وعينا . ولذا فاننا فيما سأطالعهُ سأعوّل كثيراً على خبرة القارىء ، اذ يستحيل ان نرسم صورة صادقة لهذا الميل ان لم يسعفنا القارىء باختباراته في هذه الناحية النفسية الخفية التي يكاد يستعصي الولوج اليها من الخارج ، ويكاد لا يصل اليها الباحث عن غير طريق الفحص الداخلي للنفس (الاستبطان)

اما هذا الادغام فبالطبع لا يتم على نحو ما نشاهده من ادغام الاشياء المادية بعضها في بعض . انما هو هذه الغفلة وهذا الذهول عن النفس اللذان يسمحان لشعورنا ان ينسل ويتسرب الى ما يحيط بنا ويلاصقنا من حي او جماد محاولين ان نقسره بعض صفاتنا الانسانية . اوهما يدعان بعض ما يحيط بنا يستغرقنا بصفاته ، فنشعر عندها ، على غير وعي منا ، كاننا اصبحنا بعض هذا الناس او بعض ذلك الشيء . او بتعبير آخر هو ان نستشعر هذه الوحدة العميقة التي تربطنا بالكون والتي يعيننا على تحسسها نسياننا انفسنا قليلاً وخروجنا عن حدود انانيتنا المنطقة . فاساس هذا الميل هو اذاً الشعور بوحدة الاتصال بيننا وبين الاشياء التي تحيط بنا وتكتنفنا ، واستعارة بعض صفاتها او اسباغ بعض صفاتنا عليها ، فنحس عندها كلها اياناً واننا اياها وكأنها اصبحت بضعة منا واننا اصبحنا بضعة منها

ترى صخرة ضخمة تتشبث بصدر جبل يشرف على هاوية عميقة ويبدو لك ان مركز

هذه الصخرة غير ثابت اذ تلاحظ انها ترتكز على سن من الصخر يهم ان يخلي مكانهُ . وانت بالطبع لا يهمك من امر هذه الصخرة شيء . ولكن بالرغم عن ذلك تشعر بان حاسة من القلق الغامض تشيع في نفسك . ويظلُّ هذا الاساس يستولي عليك كلما شهدت هذا المشهد الى ان تخلي هذه الصخرة محلها فيزايلك وقتها الشعور بالقلق كأن في استقرار هذه الصخرة على وضع ثابت استقرار لهذا القلق الذي كان يستولي عليك. وترى عموداً مائلاً يرتكز عليه بناء من الابنية فلا تتمالك ان تميل بجسمك في جهة تعاكس الجهة التي يميل فيها هذا العمود كأنك تحاول ان تسنده وتعدّل مركزه بحيث يقوم مستوياً على قاعدته فلا يسود يخشى عليه من السقوط

ثم تنظر الى ذلك الطائر يحلق في الفضاء مازئاً بهذا الجبار العنيد الذي يكبّلك ويشرك الى الارض فتحس عندها بنشوة السرور تشيع في نفسك وبالغبطة تتمرك حتى ليكاد هذا الاحساس يقفز عن اعصابك بما يشبه حركات ذلك الطائر. هذه ومئات غيرها من الامثلة تشير الى تأصل هذا الميل في طبائعنا وتمكّنه منا . وعبرة هذا ان الانسان مهما قسرتهُ حقائق الحياة وتنازع البقاء على العكوف على نفسه والتوجه اليها في جميع اعماله ، فان فيه من الدوافع والميول الخفية ما يجعله اكبر انسانية مما يفرضهُ عليه النضال في سبيل الحياة

على ان هذا يبدو لنا اتمّ واجلى اذا اعتبرنا بعض الافعال التي نجريها اتجابة لدواعي اتصالنا بالاحياء من الناس او ما يمتُّ اليهم بنسب قوي . وفي الحقيقة ان مجال هذا الميل ووجهته الاخيرة هو الانسان . والواقع انهُ عنصر قوي في نشوء الاديان وتكوينها وفي تركيز كثير من الفضائل الاجتماعية وفي الفنون على اختلاف وجهاتها

* * *

من اي الجهات تأثر الدين بهذا الميل الانساني الصرف ؟ ان تاريخ نشوء الخرافات يتكفّل بالاجابة عن هذا السؤال . فانهُ مما لا شك فيه ان ديانات الانسان القديمة نبتت في ثرى الاساطير التي حاكها خياله وبثها اوهامه . فديانات الامم الحاضرة والامم الغابرة لها من الصلة بهذا الميل النفسي بقدر ما لها من صلات بالخرافات التي حاكتها مخيلة الانسان الاول . ولكن اين نجد الصلة بين ما ندعوه الادغام النفسي وبين خرافات الانسان القديم؟ ليس الجواب بعسير . ويكفي ان نرجع الى هذه الخرافات التي تركها لنا المصريون والكلدان واليونان في الاخص فنرى ان الاوصاف التي كانوا يسبغونها على ابطال خرافاتهم وآلهتهم هي اوصاف انسانية محضة . وآلهة اليونان باوصافهم ونعوتهم وعواطفهم هم اناس لا يختلفون عن سكان نيويورك والقاهرة وباريس. فهم آلهة يحبون ويبغضون، ويختصمون ويتراضون، يحقدون ويتصافون ، يطمعون ويقنعون ، يجدّون ويهزلون ، وهكذا مما له شبه في حياتنا الانسانية

وديانة العبران الاولى متأثرة الى حد بعيد بهذا الميل . فالله العبراني الاول اله قاس يحب شرب الدم والانتقام ويرتاح الى القسوة والبطش . وهذا يصف لنا الى حدّ بعيد نوع الحياة التي كان يحياها هؤلاء القوم البداة وما كان يعتلج في صدورهم من مختلف العواطف الخشنة والاحساسات الغليظة ، لما كانوا يلاقونهُ من شظف العيش وما كانوا يتكبدونهُ من عدوان الامم المجاورة حتى وقر في اذهانهم ان الهم لكي يستطيع ان يبسط عليهم حمايته يجب ان تكون له صفات الشدة والقوة والبطش . وهي الصفات التي كانوا يشهدون آثارها شهوداً متواصلاً

واساس هذا كله الخوف والجهل . فالانسان القديم لما كان يرى اثراً من آثار الطبيعة لا يستطيع تفسيره تفسيراً طبيعيًّا كان يرتدُّ الى مخيلته ويحاول ان يجد صلة تربطهُ بهذه الاشياء التي تروعهُ وتقضُّ مضجعهُ من جهة وتلقي عليهِ ما تلقي من أحساس بالغرابة والدهشة من جهة اخرى . فكان — لذلك — يُسبغ عليها من صفاته وعواطفه ما يرى انهُ يلائم افعالها الشريرة والخيّرة . كان ذلك يسهّل عليهِ تصوّر افعال هذه الآلهة ويسهّل لهُ طريقة العبادة، اذ كان عليهِ ان يتوجه اليها بما يرضي هذه العواطف والاوصاف الانسانية التي اسبغها عليها . وهو بعدُ لم يكن مختاراً في هذا ، لانهُ كان يستحيل عليهِ في ذلك الوقت ان يتصوّر عملاً يقوم بهِ لا يشبه الايدي الانسانية . فكل ما كان يحيط بالانسان القديم من اعمال الطبيعة كان له مثيل من اعمال هذا الانسان نفسه . وليس هذا العجز عن تصور افعال الآلهة منفصلة عن افعالنا الانسانية مقتصراً على الانسان القديم . فان ارقى الطبقات المهذبة الآن يصعب عليها ان تتصور صفات الله والملائكة على خلاف ما عهدناه في البشر . ويكفي ان تنظر الى التصاوير التي خلقها الفنانون لله والملائكة على جدران الهياكل والاديرة لتدرك مبلغ تأصل هذا الميل فينا . والجدل الذي قام حول صفات الخالق وهل يصح ان تطلق عليهِ صفات انسانية أو لا يصحُّ هو اثر من آثار هذا الميل العميق المتأصل فينا . ولعل انجح الاديان عمليًّا هو الدين الذي يُقرُّ بالواقع ويدرك ان مدارك الانسان اقصر واكلُّ من ان تتصور او تتوجه الى شيء لا يشارك هذا الانسان ببعض صفاته المحسوسة . وهذه الاديان الراهنة اكثرها استيلاء على اذهان اصحابها هي الاديان التي لا تتناسى الصفات الانسانية . فتقوم فيها الصفات والاعمال البشرية المعقولة مقام الصفات الغامضة المستحيلة. والذين صوروا لنا الجنة والنار على هذا النحو الذي نعرفهُ والذي نجد لهُ شبهاً في حياتنا الارضية كانوا ادرك للحياة وافهم للطبيعة البشرية ممن حاولوا ان يأتونا باوصاف للعالم البعيد لا خبر لنا بها ولا معرفة

وليس من قبيل المصادفة ان تجمع اكثر الاديان على ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله فان في هذه المشابهة بين الله والناس مايدنينا من الله ويجعلنا افهم له واطوع لاوامره. والعبارات التي كان السيد المسيح يكررها على اتباعه من مثل: كونوا كاملين كما ان ابا كم الذي في السموات هو كامل لم تكن الا صدى لما كان يتردد في نفوس هؤلاء التابعين من شوق الى الاتصال بالله ورغبة في ان يفهم بصفاته

وخلاصة القول ان هذا الميل قد لوّن الاديان البشرية قديمها وحديثها بهذه الالوان الانسانية المحضة. ولذا فنحن لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الانسان يضع نفسه في اديانه

***

اما العواطف التي تتأثر بهذا الميل النفسي فهي ذلك النوع من العواطف الذي تثيره فينا دوافع انسانية، وهو ما نسميه بالعواطف الاجتماعية: كعاطفة الحنو والرأفة وعاطفة الوطنية والحماسة. هذه العواطف واشباهها مردُّها ما نشاهده من نقص او عيب في احوال الجماعة التي نحيط بنا، فنحاول بالفعل او بالنية ان نزيل هذا النقص. فعاطفة الحنوّ التي ذكرنا هي استهجان لما نشاهده من آثار البؤس والشقاء فيمن حولنا. وهي حالات لا نرغب في بقائها فيمن يحيط بنا اذا كانت صلتنا بهم صلة طبيعية لا يفسدها شيء من العداء او الفتور. فالانسان بفطرته يكره ان يرى آثار الشقاء في الغير. ولكن لكي يشعر المرء بعاطفة الحنوّ شعوراً صادقاً لا بدَّ له من ان يساهم الغير في الاحساس بالشقاء. والا فيكون مظهر الشفقة فينا مظهراً كاذباً. والذي يعيننا على مساهمة الغير حس الشقاء ماذهبنا اليه من سعة الخيال وهذا الميل الذي فطرنا عليه من قدرة على ممارسة احوال بواعثها ليست واقعة علينا مباشرة. فليس صعباً ان نستشعر الم الحرمان ولوعة الحزن في الغير مهما كانت العلاقات بيننا وبينه بعيدة والصلات مشتتة. وزداد تأثير منظر الشقاء بلوغاً وشدة فينا كلما كان في احوال الشخص المبتلى ما يشبه ما نحن فيه او ما كنا مرونا عليه في طور من اطوار حياتنا. فالمرأة التي لم تذق مرارة الثكل وآلام الفجيعة لا يبلغ منها الحزن في مشهد الموت مبلغ المرأة التي ذاقت لوعة الثكل ومرارته. فالاخيرة اصبحت طريق الاحزان الى نفسها ممهودة ومعبدة ولذا فهي اسرع تأثراً واكثر استعداداً لادغام نفسها في نفس الثاني فحزن بفقد عزيز. ونحب ان نلاحظ هنا ان المرأة — على الاجمال — اقدر من الرجل على الانسلاخ من شخصيتها والاندماج في غيرها. فهون عليها — والحالة هذه — ان تحس الالم يتلج في نفوس الغير. والذي يشهد مأتماً من المآتم يدرك ذلك جيداً. فهو هناك يكاد لا يسمع نأمة من غير النساء او يرى عبرة تسكبها غير عيونهن. اما الرجال فقد لا يرى احد منهم يندى له جفن. وليس

الفرق ان الرجل جامد العواطف متبلّد الاحساس الى هذا الحد : انما هو ان الرجل اقدر على تقدير الواقع واكثر التصاقاً بشخصيته من المرأة. فلا يستولي عليه من الذهول والغفلة عن النفس ما يستولي على المرأة

وعاطفة الوطنية، وأساسها الشعور بالمظالم الواقعة على الامة والرغبة في ازالتها ، مثل آخر يرينا كيف ان المرء يستطيع ان يحسّ اموراً ويستشعر احوالاً قد لا يكون له بها صلة مباشرة او يكون لها اليه سبيل. فالذين يتحمسون للوطن شاعرين أن في ازالة الحيف عنهُ ترفيهاً عنهم ومغنماً لهم ليسوا اكثر من الذين يتحمسون له وهم لا يشعرون بشيء من هذا او ذاك. انما كل ما يشعرون به هو احساس كالذي يستولي علينا حينما نرى ضعيفاً يتألم او يُظلم ، فنهبُّ لنصرته شاعرين كأن هذا الذي يقع عليه من ظلم ويصيبهُ من الم يصيبنا ويقع علينا. واساس هذا كله هو هذا الاحساس السليم الذي فطرنا عليه — الاحساس بما يحسّه الغير الى حد الذهول عن الواقع ونسيان المشاهد الملموس

ذانك مثلان من عديد الامثلة التي ترينا مقدار اثر هذه النزعة في حياتنا العاطفية ومبلغ ما تحدثهُ من تعميق في غور العواطف. وتثبيت لاصولها في ثرى النفوس

***

ثم في الفنون ما هو اثر هذا الميل ؟ أثره انك اذا ذهبت الى مرسح من مراسح التمثيل او جلست تصغي الى خطيب او وقفت امام احدى الصور الفنية الرائعة او في مشهد من احد الشوارع المشرئبة تضحي بالرغم عنك غير الشخص الذي كنتهُ قبل ان تشهد هذه الامور، وتحسّ كأن هذه المشاهد التي تجري امامك والآيات التي تواجهك ليست بمعزل عنك مهما حاولت ان تنفصل عنها وتقف امامها موقف المرتاب الناقد الذي لا يهمهُ سوى الدرس والانتقاد ، او موقف المتلهي الذي يتطلب شيئاً يطارد به جيوش السآمة والملل. انت امام فرقة تمثل هملت او مكبث او كليوباترا . فما هو موقفك هنالك ؟ أتستطيع ان تقول انهُ موقف من يودُّ ان يستعرض حوادث هذه الرواية استعراض الصرّاف نقوده ليرى صحيحها من زائفها ؟ او تستطيع ان تقول انهُ موقف المتفكّه الذي يدرك ان ما يجري امامهُ هو من قبيل الرمز الى اشياء قد لا تقع مرة واحدة في الحياة ؟ ما نخالك تقول هذه او تلك

أيها القارىء اذا كنت ممن اعتادوا الجلوس امام منصة التمثيل قد تكون نقاداً تحمل اقلامك وأوراقك وقد تدرك تماماً ان ما يجري امامك ليس الاّ خيال شاعر ، ولكن بالرغم عن هذا وبالرغم عما تفرضه عليك آداب الجلوس في المراسح قد لا تملك نفسك في بعض ادوار هذه الرواية او تلك ان تصرخ صرخة خانقة او تصفّق بيديك او تصفّر

خدّك او تنقبض ملامحك وتجهم او تشيح بوجهك هنا وهناك علامة على الاشمئزاز. فما الذي دهاك؟ هل انت احد الممثلين وهل طلب اليك الحضور ان تجري هذه الامور لتنغص عليهم لذاتهم وتفسد عليهم متعهم؟ الحق انها ليست هذه ولا تلك انما هو هذا الميل الغريب الذي انساك نفسك وجعلك راغماً تدغم نفسك في هؤلاء الممثلين فتبكي اذا كان ما يُبكي او تضحك اذا كان ما يضحك او تتجهم اذا كان ما يوجب التجهم. ومن هنا كان مقياس الاجادة في التمثيل هذه الغفلة عن النفس التي تسري جمهور المشاهدين، ومن هنا كان لا يصحّ ان يقال ان التمثيل لهوٌ وتسلية وان جمهوراً تستغرقهُ رواية من الروايات الرائعة الى حد الذهول عن النفس لا يجوز ان يقال انهُ يلهو ويتسلى. والصحيح ان يقال انهُ يمارس الحياة الشيقة الرائعة ويروض عواطفه ومشاعره ويتعلم كيف يمقت الرذيلة ويمجد الفضيلة. واذاً فالفن هو فن على قدر ما يستولي علينا ويستغرق حواسنا ومشاعرنا

واليك هذا الخطيب: يكون في اول الامر متدفقاً كالسيل غنيًّا كالبحر، ولكن فجأة يرتج عليه ويستعصي عليه الكلام. وقد تطول مدة ذلك فتحسّ عندها كأن غمة تغشاك وتودّ لو تخسف الارض بك وتغيبك عن الانظار، كأنما انت الذي يقف على منصة الخطابة واجماً ترمقهُ العيون وتتحداه الملاح. بل قد لا تحجم ان تغطي وجهك بيديك تريد ان لا يراك احد. واذا فتح الله على خطيبنا وانحلت عقدة لسانه تنفّستَ الصعداء وأحسستَ كأن جبلاً ازيح عن صدرك. وسرّ هذا انك والخطيب الذي ملك عليك نفسك بسحر بيانه اصبحتما متدانين متلاصقين الى حدّ ان تحسب نجاحه نجاحاً لك وخذلانه خذلاناً لك ايضاً. ومن هنا استولى عليك من قلق في الاولى وارتياح في الثانية

ومجال هذا الميل في استحسان آيات الفن الصامتة: الطبيعية والصناعية هو مجال واسع. فنحن اذ نقف خاشعين امام جبل اشمّ او بحر خضم او شلال متدفق نشعر بارتياح عظيم قد لا يفسره الا ميلنا الى انصاق ذواتنا بما يحفّ بنا، حينما نبشّر لنا اسباب ذلك، فنستشعر بعض صفاته. فالجبل المنيع في بسيط من الارض قد يمس فينا مرآة احساس الكبر والجلاء كأن نفوسنا كبرت وتضخمت الى جانبه. والبحر المسترخي استرخاء النائم قد يكون سبب روعته انهُ يبعث في نفوسنا احساس الخلود والابد فنقف امامه خاشعين خشوع العاجزين. والشلال المزبد المندفع نرى فيه معنى الاندفاع والحياة فيروعنا ومثل هذا يقال فيما يروعنا من كثير من آيات الفن التي سوّتها يد الطبيعة او يد الانسان

شرقي الاردن اديب عباسي

صفحة من الادب العالمي

التوراة مستوحى الكتاب

ومقامها في ادب الغرب

ينزع كتّاب العربية في نهضتهم الحديثة الى قراءة التليد من نتاج ادمغة الغربيين واقتباس ما يرونهُ حسناً وملائماً البيئة التي يعيشون فيها ، ويقصرون قراءتهم الادب العربيّ على مؤلفات الجاحظ وابن خلدون وابن عبدربه والاصبهاني والمتنبي والبحتري والفرزدق وجرير وغيرهم ، كأنّ في مضمون هذه المؤلفات غذاءً كافياً لقرائحهم وكأنّ قصارى ما يرغبون فيه تقوية لغتهم بالمترادفات ، فالاديب إذاً من قدّر لهُ ان يكتب كتابة صحيحة مزخرفة بألوانٍ من الكلام العالي ، والشاعر من استطاع أن يجيد رميَ القافية ، والفيلسوف من أدخل الى لغته فلسفة الغير

لا تستغرب هزال المادّة في نتاج معظم كتاب اليوم الذين لا طاقة لهم على الدرس والمطالعة لتغذية افكارهم ، فهم يقرأون ساعتين ويكتبون خمس ساعات او ثماني ، وجلّ ما يكتبون وجيزُ اقوال قالها عصرهم نفسهُ مائة مرّة من قبلهم

ترى ادباء الغرب يحيطون علماً بالكثير ممّا ولّدتهُ مخيّلات الاقدمين من اليونان ، الى العبرانيين ، الى اللاتين ، الى الفرس والعرب ، وترى في ثقافتهم آثاراً من تلك الثقافات مطبوعة بطابع نفوسهم الخاصّ ، ففي « أساطير الدهور » لثيكتور هيغو عرفٌ طيّب من التوراة والالياذة ، وفي « الفردوس المفقود » لملتون وحيٌ مستمدٌ من سفر التكوين ، وفي قصيدة لامرتين « سقوط ملاك » المتضمنة اثني عشر الفاً من الابيات وثبات متأثرة ببعض فصول تثنية الاشتراع وسفر الملوك الثالث وبعض فصول سفر التكوين ، وفي مطلع قصيدة « فوست » لغوته شبهٌ قريب بمطلع سفر أيوب

أما ادباء العرب في هذه الايام فلا نرى في منتوجات معظمهم إلاّ آثاراً غضّة من منتوج الادب الغربيّ الحديث لا تتناول شيئاً من حضارتهم إذ لا يعرفون أن يطبعوها بطابع خاصّ بل يرسلونها على تصرها في شكل مشوّه دميم ، ثم هم يكتفون من الادب القديم بقراءة دواوين سلفائهم وأقاصيصهم لاعتقادهم أن في هذه الكتب ما يتغنّى به الاديب عن سواه

لا سبيلَ لنا أن ننكر أن الادب العربي لم يبلغ في عصر من عصوره ، منذ فجره الى اليوم ، ما بلغه الادب اليوناني واللاتيني من الرقي ، وقد لا نخطىء اذا قلنا إنهُ لم يرتفع في شيء الى مستوى الادب العبرانيّ ربيب الفلاسفة وأنبياء التوراة ، ففيمَ يشحُ الادباء والمتأدبون في البلاد العربية عن تلك الذخائر الأدبية المدفونة في مطاوي كتب اليونان والرومان والعبرانيين ، وهي على ثقة الدهور أصدقُ أدب أخرجته أدمغة البشر حتى اليوم؟

أية فلسفة من فلسفات الناس تضاهي في صدقها وعمقها فلسفة ابن سيراخ ، وأية شاعرية تضاهي في جمالها وروعتها شاعرية سليمان في نشيد الانشاد وشاعرية أيوب في سفره ، وأية شرائع من شرائع البشر أثبت وأسمى من الشرائع الانسانية الجميلة في بعض اسفار تثنية الاشتراع؟

اسمع هذه الشرائع : « إذا حصدتَ حصادك في حقلك فنسيتَ حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها إنها للغريب واليتيم والارملة تكون . واذا خبطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان إنهُ للغريب واليتيم والارملة يكون . واذا قطفتَ كرمك فلا تراجع ما بقي منهُ إنهُ للغريب واليتيم والارملة يكون » . فهذه الشرائع السامية قد اوحت الى لامرتين أجمل مقطع في قصيدته الخالدة « سقوط ملاك » ، فاسمعهُ يقول بلسان النبيّ الشيخ : « دعوا خبزكم على عتبة بيتكم للجائعين ، واتركوا بعض ثمار على غصونها لمابري الطرق »

Votre pain
Restera sur le seuil pour quiconque aura faim.
Vous laisserez toujours quelques fruits sur la branche
Pour que le voyageur vers ses lèvres la penche.

وتكاد رائعة لامرتين هذه التي قال عنها ڤيكتور هيغو إنها رائعة روائع العصر تمتزج جميع فقراتها بأسفار التوراة . اما فكرة القصيدة فقد استوحاها لامرتين من الآيتين الاوليين من الفصل السادس من سفر التكوين وهما : « (١) ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الارض وولد لهم بنات (٢) رأى بنو الله بنات الناس إنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا »

كان الشاعر الانكليزي توماس مور قد نشر في العام ١٨٢٠ قصيدة رمزية في « غرام الملائكة » نبّهت الشاعر الفرنسي الفرد ده فيني الى قراءة التوراة فاذا به يطلع على الادب بقصيدته الخالدة « إيواء أو أخت الملائكة » التي ترمز الى انتصار الشرّ على الخير

استوحى الفرد ده فيني قصيدتهُ هذه من الآية (١٣) من الفصل الثالث من سفر التكوين وهي : « فقال الربّ الاله للمرأة ماذا فعلت . فقالت المرأة الحية أغوتني فأكلت » . ومن الآية (٦) من الفصل السادس من سفر التكوين وهي : « فندم الربُّ انهُ عمل الانسان على الارض وتأسف في قلبه »

قال ده فيني في مقطع « الطوفان » من قصيدته هذه : « كانت الارض ضاحكة وفي نضارتها الاولى ، وكان كلّ شيء على الارض لا يزال طاهراً نقيّاً ، إلاّ ان الانسان كان شرّيراً ! فتأسف الله في قلبه وحوّل نظره عنه » . وجاء في الآية (٥) من الفصل السادس من سفر التكوين : « ورأى الربّ ان شرّ الناس قد كثر على الارض وانّ كلّ تصوّر أفكار قلوبهم إنما هو شرّ في جميع الايام » . وفي الآية (٧) من الفصل نفسه « فقال الربّ أمحو الانسان الذي خلقت عن وجه الارض الانسان مع البهائم والدبّابات وطير السماء لاني ندمت على خلقي لهم »

وقال ده فيني في قصيدته : « أرى الحمامة في الجلّد تحمل غصناً » . وجاء في الآية (١١) من الفصل الثامن من سفر التكوين « فعادت اليه الحمامة وقت العشاء وفي فمها ورقة زيتون خضراء فعلم نوحٌ ان المياه قد جفّت عن الارض » . وقال في ختام هذه القصيدة : « وظهر قوس قزح في السماء إذ انتهى كل شيء » . وجاء في الآيتين (١٢ — ١٣) من الفصل التاسع من سفر التكوين « وقال الله علامة العهد الذي انا جاعله بيني وبينكم وبين كل ذي نفس حية معكم مدى اجيال الدهر . تلك قوسي جعلتها في الغمام فتكون علامة عهد بيني وبين الارض » . وقال الشاعر الفرنسي في المقطع الاخير من قصيدته هذه : « كزنبقة لاطمها الهواء فرّكت انداءها » . كأنهُ تذكّر عندئذٍ موت اوريال في النشيد التاسع من قصيدة ترجيل (الاناثيد) إذ جاء ما يلي : « وسقط ميتاً نضر الدم جسده الجميل — رائحة الطيبة — والنوى رأسه المثقل على كتفه كزهرة جميلة قطعتها شفرة المحراث فذبلت على الارض وماتت ، أو كاعشاب نهكتها العواصف فحنت رأسها المثقلة بالامطار »

***

قلنا ان معظم نوابغ الكتبة في الغرب قد استوحوا مواضيعهم من اليونان والرومان ومن التوراة بنوع خاص ، فملتون ، احد شعراء الانكليز العظام ، استلهم ملحمتهُ الخالدة « الفردوس المفقود » من سفر التكوين ، فالفردوس المفقود قصيدة ذات اثنى عشر نشيداً تتناول سقوط آدم وحوّاء

يُرى سطانائيل في الاناشيد الثلاثة الاولى عاقداً مجمع البالسة للائتمار على العالم الجديد الذي خلقهُ الله والاتفاق على فتحه ، الاّ ان الله يعرف بالخطة الجهنمية هذه فيعلن للملائكة سقوط الانسان وتصح عزيمته على ارسال ابنه لينقذه . ويتبعهُ القارىء في الاناشيد الخمسة التالية الى جنان عدن فيسمع حواء تطمع آدم على حمل اقلها . في تلك الآونة يهبط الملاك رفائيل من السماء ويحذر آدم من نفاخ الروح الشريرة على ان سطانائيل يكون في النشيدين التاسع

والعاشر قد السل الى عدن واستحال الى حية، فيبدأ عندئذ مشهد التجربة وينتصر الشيطان ولكن الانتقام السماوي لا يلبث ان يحول جميع رفاق الروح الشريرة الى حيات فيذهب القنوط عن آدم ويدعو حواء الى ملاشاة غضب السماء بالصلاة

ويرى ابن الله في النشيدين الآخرين ضارعاً الى ابيه لكي يغفر خطيئة الرجلين الاولين فيرضى الله بذلك ، الا انهُ يبعث الملاك ميخائيل ليقول لآدم وحواء انهما سنفيان وان المرض والموت سيلحقان بهما من الآن فصاعداً

لم يقتصر هذا الموضوع العظيم على تاريخ اسرة او شعب بل هو تاريخ الانسانية جمعاء ومنذ مدرجها الى اقصى عهد من عهودها المقبلة، وهو بجملته مستوحى من هذه الآيات في الفصول الاولى من التكوين وهي (١ — ١) في البدء خلق الله السماوات والارض (١ — ٣) وكانت الحية أحيل جميع حيوان البرية الذي صنعه الربُّ الاله فقالت المرأة أيقيناً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنة. (٦ — ٣) ورأت المرأة ان الشجرة طيبة للأكل وشهية للعيون وان الشجرة منية للعقل فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت بعلها ايضاً معها فأكل (١٤ — ٣) فقال الرب الاله للحية اذ صنعت هذا فأنت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحش البرية على صدرك تسلكين وتراباً تأكلين طول ايام حياتك (١٩ — ٣) بعرق وجهك تأكل خبزك حتى تعود الى الارض التي اخذت منها لانك تراب والى التراب تعود

ولقد زين ملتون موضوعه هذا بجميع زهرات الشعر القديم ، فاذا هو لا يزال واقفاً على احدى قمم الشعر التي لا يأمل ان يرقى اليها الا القليل من البشر

كان الشاعر الالماني هردر يرى في الاسفار العبرانية شاعرية الهية لا يرى ظلاً منها في الشعر الحديث، في شعر الشعوب المتحضرة، وكان يقول : « لماذا لا نستوحي الثقافة القديمة ونطبع هذه الثقافة بعادات العصر واخلاقه ؟ »

وكان غوته، صديق هردر واحد الادمغة العالية، لا يملُّ قراءة التوراة التي كان يفضلها على جميع ما انتجتهُ المخيلات البشرية، ولقد استوحى فكرة قصيدته « فوست » التي قضى ستين سنة في نظمها والتي لقيت في التاريخ الادبي بتوراة الالمانيين — لقد استوحاها من الاصحاح الثاني من سفر ايوب

جاء في مطلع هذا الاصحاح ما يلي : «(١) وكان ذات يوم ان جاء بنو الله ليمثلوا امام الرب وجاء الشيطان ايضاً في وسطهم ليمثل امام الرب (٢) فقال الرب للشيطان من أين جئت . فأجاب الشيطان الربَّ من الجولان في الارض ومن التمشي فيها . (٣) فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي ايوب لانهُ ليس مثلهُ في الارض رجل كامل ومستقيم

يتقي الله ويحيد عن الشر. والى الآن هو متمسك بكماله وقد هيجتني عليه لا بتلعه بلا سبب (٤) فأجاب الشيطان الرب وقال جلد بجلد وكل ما للانسان يعطيه لاجل نفسه (٥) ولكن ابسط يدك ومُسَّ عظمه ولحمه فانه في وجهك يجدف عليك (٦) فقال الرب للشيطان ها هو في يدك ولكن احفظ نفسه» . فاليك مطلع الفصل الاول من « فوست »

حوار في السماء

السيد والشيطان مفيستوفليس يتراهنان على روح فوست السيد — اتعرف فوست ؟
مفيستوفليس — الحكيم ؟ السيد — اجل ، خادمي
مفيستوفليس — حقًّا انهُ يخدمك بشكل غريب ، فلا شيء يحسب ارضيًّا عند هذا المجنون حتى الطعام والشراب وأرى روحه تطوف في الجوّ دائماً ، تطلب من السماء اجل كواكبها ومن الارض اسمى لذاذاتها . . .
السيد — بل هو يبحث عني في الظلام وقريباً اهديه الى النور . . .
مفيستوفليس — اتراهني على انك ستفقده من بين يديك؟ ولكن دعني اتخير الوسائل التي تمكنني من جذبه الى طرقي
السيد — تستطيع ان تمارس تجاربك فيه مادام حيًّا على الارض، فكل انسان يمشي معرض للضلال
مفيستوفليس — اشكرك. اني ليلذ لي ان يكون لي شأن مع الاحياء ، فأنا كالهر الذي لا يأبه للفئران الميتة
السيد — حسناً ، لقد اذنت لك ، فابعد هذه الروح عن ينبوعها وسر في طريقك اذا قدرت ولكن ستقر بأن رجل الخير يعرف ان يميز طريق الله القويمة ويتبعها
مفيستوفليس — لن يتبعها طويلاً ! سنرى اني اريد ان يأكل التراب بلذة كابنة عمي الافعي
وكلتخ ، كلتخ الشاعر الانكليزي العاتش في يومنا هذا ، كلتخ الذي لم ينشد الاحلام ولا الحب، وقصر شعره على اطراء المال والنظام والبحر والمادة وأنشد جميع العناصر التي تمثل القوة المنظورة في العالم ، كلتخ شاعر الواجب وشاعر « الخدمة » على حدّ قوله قد بنى قصائده « المادية » على اسس متينة هي التوراة

ولكي يتضح لقراء العرب وأدبائهم الذين لم تمهّد لهم سُبُل الوصول الى كتاب العبرانيين او بالاحرى سفر الانسانية اجمع أنّ التوراة اصدق اساس لاي بناء ادبي كان نذكّرهم ان كليوباطرة ، ملكة مصر ، واشدّ رجالات عصرها تمشقاً للعلوم وتسقاً في الآداب قد بلغ بها « الهوس » بالالياذة مبلغاً حدا بها الى تفضيلها على التوراة ، وقد اجمع الكل على ان هذا التفضيل إنما هو مبالغة ظاهرة بيروت الياس ابو شبكة

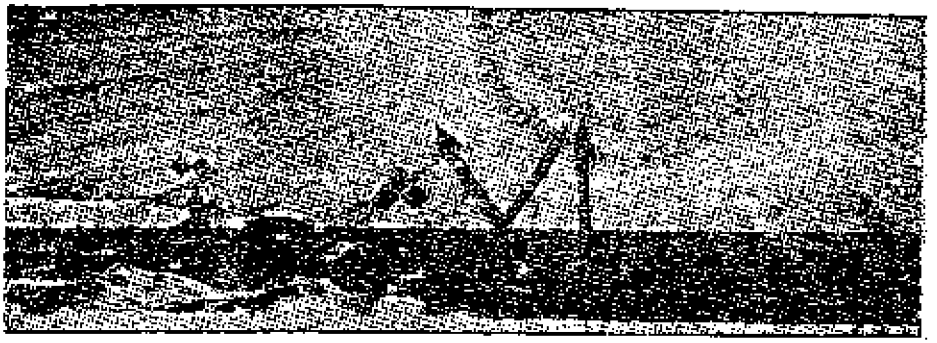

الشمس وفائدتها

بقلم الدكتور

غريب ان نذكر الشمس وفوائدها في بلاد الشمس حيث هي في متناول الجميع ولكن الواقع اننا لا نستفيد منها بقدر ما يجب ان نستفيد . فلهذه البلاد مواهب طبيعية لو علمنا كيف نستخدمها لكنا المثل الاعلى بين الامم في الصحة على الاقل . ويقول مثل ايطالي (اذا ظهرت الشمس احتفى الطبيب) . فقد ذكر هيرودوتس المؤرخ اليوناني في كتبه بعض مشاهداته اثناء سياحته سنة ٤٣١ قبل الميلاد فقال: « وقد رأيت هناك شيئاً غريباً ينبغي ان يعلمه الناس فقد وجدت اكواماً من عظام الهياكل البشرية مكدسة في ناحية منفصلة ولاحظت ان عظام جماجم الفرس خفيفة حتى يمكن كسرها اذا ضربت بحجر صغير بينما وجدت ان جماجم المصريين سميكة وقوية حتى لا يمكن تهشيمها ولو رميتها بحجر كبير . وقد ذكروا لي ان سبب ذلك يرجع الى ان المصريين اعتادوا حلق شعور رؤوسهم من صغرهم فتقوّت جماجمهم بتأثير الشمس بينما جماجم الفرس خفيفة لانهم يحجبون اشعة الشمس عن رؤوسهم من صغرهم بلبس القبعة واني اعتقد صحة هذا السبب» . ويقول في موضع آخر ان المصريين يأكلون الاسماك واللحوم بعد تمليحها وتشفيفها في الشمس

وقد ذكر احد الاطباء اليونانيين عن هيرودوتس قوله « ان التعرض لاشعة الشمس ضروري في احوال الضعف ولتحسين الصحة وانه يجب الامتناع عن التعرض للاشعة التي تمر من السحب وانه يجب تعريض جسم المريض للشمس مباشرة الا في الصيف وفي حالة المرضى الضعفاء ويجب تغطية الرأس اثناء العلاج » . وذكر ابن سينا الطبيب العربي الشهير ان الاشخاص الذين يتعرضون كثيراً لاشعة الشمس والهواء الطلق لا يصابون بالامراض

واذا رجعنا الى ابعد من ذلك الى الانسان الاول الذي كان يعيش في الكهوف لاحظنا ان فتحات هذه الكهوف كانت تتجه دائماً اما الى الجهة الشرقية او الجنوبية لضمان دخول الشمس اليها وقديماً كان قدماء المصريين يعبدون الاله رع اله الشمس واهب الحياة والصحة

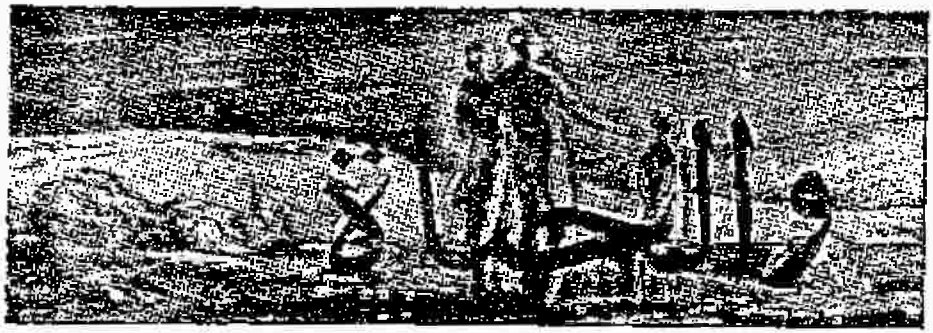

في الصحة والمرض

لبيب شحاتة

كذلك اذا راجعنا تاريخ الامم القديمة كالفرس والبابليين واليونان واليهود وجدنا ان اكبر آلهتهم التي كانوا يعبدونها كانت آلهة تمثل الشمس. وكان قدماء اليونان يستعملون حمامات الشمس في العلاج وكان الرومان يراعون دائماً بناء جناح خاص بحمام الشمس في منازلهم

ثم جاءت العصور المظلمة فاندثرت كل المعلومات القديمة وعدنا لا نعرف عنها شيئاً حتى القرن الثامن عشر لما اخذ المشتغلون بالعلاج يفكرون في استعمال اشعة الشمس في العلاج واخذوا في درس خواصها وتأثيرها في احوال الامراض المختلفة وابتدأوا فعلاً في علاج القروح والجروح المختلفة بتعريضها لاشعة الشمس ومنهم من استعان بعدسات زجاجية لجمع الاشعة على الموضع المطلوب من الجسم

﴿تركيب اشعة الشمس﴾ كان كل ما يعرف من اشعة الشمس الى ذلك الوقت هو الجزء الذي يرى بالعين فقط . فلما جاء العالم الفلكي الشهير نيوتن جرّب تجربة من ابسط التجارب وهي كما يصفها بنفسه اذ يقول : — في حجرة مظلمة عملت فتحة مستديرة في احدى النوافذ ووضعت امامها منشوراً زجاجيًّا بحيث ان اشعة الشمس التي تنفذ من الفتحة وتقع على المنشور تنكسر على الحائط المقابل للنافذة وبذلك وجدت صورة ملونة لاشعة الشمس

هذه تجربة من ابسط ما يتخيله العقل ولكنها كانت اساس جميع ما يعرف الآن عن الاشعة وتأثيراتها المختلفة . ولما جرّبت هذه التجربة كان الاعتقاد سائداً بان الالوان التي ترى بعد مرور اشعة الشمس بالمنشور الزجاجي تحدث من تغيرات بالضوء عند مرورها ولكن نيوتن اثبت ان اشعة الشمس البيضاء مركبة من هذه الالوان وانها عند مرورها بالمنشور تنكسر بمقادير مختلفة فتظهر منفصلة وظاهرة وهي ما يسمى الطيف الشمسي

وفي سنة ١٨٠٠ اي في اوائل القرن التاسع عشر قام عالم يدعى هرشل واعاد تجربة نيوتن ووضع ترمومتراً طيبًّا خلف المنشور الزجاجي على ١٢ سنتيمتراً تقريباً منهُ وبعد عن

آخر الطيف الشمسي من جهة اللون الاحمر بمقدار ٤ سنتيمترات تقريباً فوجد ان الزئبق داخل الزمومتر ارتفع وبذلك اثبت وجود اشعة تحت الاشعة الحمراء في الطيف الشمسي لا ترى بالعين ولكنها ترفع درجة الحرارة . وبعد مضي سنة واحدة اي في سنة ١٨٠١ اعاد هالم آخر تجربة هرشل واستعمل عوضاً عن الزمومتر مادة تتأثر بالضوء وهي ملح كلورور الفضة ووجد انها تتأثر اذا وضعت في الجهة الاخرى من الطيف بعد اللون البنفسجي وبذلك اثبت وجود اشعة فوق البنفسجية لها قوة كيماوية فعّالة . وفي سنة ١٨٧٦ اثبت بعض العلماء ان الاشعة البنفسجية لها تأثير كبير في قتل المكروبات . ومن ذلك الوقت اخذ العلماء في درس الاشعة وخواصها وقياسها وعمّ استعمالها في صناعات حديثة وهي الآن من اهم الاسلحة التي في يد الطبيب يستعملها في التغلب على امراض كثيرة كانت الى عهد قريب من الامراض المستعصية ومع ان درس تلك الاشعة بطريقة علمية حديث العهد فقد كان القدماء يعرفون قيمتها العلاجية فالرازي الطبيب العربي الشهير كان يعالج الجدري بالاشعة الحمراء في القرن التاسع . وكان الرومان يطهرون ملابس المصابين بالطاعون بتعريضها لاشعة الشمس

﴿ بناء الجلد ﴾ وقبل ان نبدأ ببيان أثر اشعة الشمس في الانسان يحسن ان نذكر شيئاً عن الجلد وتركيبه لانه هو اول واهم عضو يتأثر بأشعة الشمس وعليه يتوقف تأثير الاشعة في الجسم

تحيط بجسم الانسان طبقة من الجلد الجاف تسمى البشرة يختلف سمكها من $\frac{1}{2}$ الى $\frac{1}{4}$ من المليمتر وتحتها طبقة من الخلايا الحية وتحت هاتين الطبقتين يأتي الجلد الحقيقي حيث توجد اوعية الدم الشعرية الصغيرة التي لا يتجاوز سمكها $\frac{1}{10}$ من المليمتر وفيها كذلك توجد نهاية أعصاب الحس. فالبشرة تعكس اشعة الشمس التي تقع عليها ولكن جزءا من الاشعة التي ترى تخترقها وتصل الى الدم في الاوعية الشعرية فترفع حرارته. والاشعة تحت الحمراء يمتصها الجلد ويوصلها الى الدم بالتوصيل

اما الاشعة فوق البنفسجية فتمتصها البشرة جميعها فالقصيرة منها لا تجاوز حد البشرة اما الطويلة فتصل الى اوعية الدم وهناك تؤثر تأثيرها . فالجلد يقي نفسه من تأثير اشعة الشمس الشديد بواسطة بشرته فتجد البشرة سميكة في الاجزاء الاكثر تعرضاً للشمس حتى لا تحرق الشمس الطبقات الحية الداخلية من الجلد . فالمادة الملونة في الطبقات العميقة من البشرة تمتص الاشعة المرئية والاشعة فوق البنفسجية وبهذه الطريقة تحمي الخلايا الداخلية من الجلد من تأثير تلك الاشعة وتحوّل الاشعة المرئية الى حرارة تؤثر على نهاية الاعصاب الموجودة بالجلد وترفع حرارته وفي الوقت نفسه تتمدد اوعية الجلد وتزداد افراز غدد العرق فيتصبب العرق من الجسم وبتبخيره تقل حرارة الجسم وهذه هي الطريقة التي بها

يتقي الجسم تأثير اشعة الشمس المحرقة في الجبهات او الاوقات التي يتعرض فيها لها

اما تأثير الاشعة فوق البنفسجية في قتل الميكروبات فليست بالدرجة التي كان يتوهمها البعض عند اول اكتشاف تلك الاشعة فهي تقتل الميكروبات السطحية فقط ولا يمكنها ان تخترق الاقذار لتصل الى بقية الميكروبات كما هي الحال في الجلد

فاذا وضعت ميكروبات السل مثلاً في مصل وعرضتهُ لاشعة الشمس لم تتأثر لان وجود المصل يحمي الميكروبات من وصول الاشعة اليها (فالضباب) والدخان والزجاج العادي في النوافذ والجدران والسقوف والملابس جميعها تحجب اشعة الشمس وتحرمنا من تأثير الاشعة التي يتمتع بها الانسان الهمجي العاري والحيوانات البرية . وليُعلم ان انوار الشفق وهي الاشعة التي يمكسها الجو عند المغيب وكذلك عند الشروق تحتوي على اشعة فوق البنفسجية اكثر من اشعة الشمس المباشرة فيمكن الانتفاع بهذه الاشعة في المرضى الضعفاء لان تعرضهم لاشعة الشمس مباشرة لهُ اثر ضارٌ لاحتوائها على اشعة حرارة كثيرة

ولا يقتصر ضرر منع اشعة الشمس على احداث مرض الكساح في الاطفال بل يتأثر البالغون به ويحدث عندهم ليناً والتواء في العظام كما هو منتشر في بعض نساء كشمير في الهند لعدم تعرضهم لاشعة الشمس . ومع الكساح يحدث تلف في الاسنان وسرعة اصابة الجسم بالزلات المختلفة . فالاشعة فوق البنفسجية تمنع حدوث كل هذه الامراض . والدجاج اذا وضع في اوعية زجاجية وسلطت عليه الاشعة فوق البنفسجية ازداد بيضهُ ونفسهُ وامتنع حدوث ضعف في ارجل الكتاكيت التي تفقس . وكذلك تؤثر على افراز لبن الابقار التي تتعرض لها . وفي بلد تيسينو في سويسرا يصدّر السكان ويرجع ذلك الى عادتهم في انهم (يأخذون الشمس) بعد كل اكلة . اما الاشعة الحمراء وما تحتها فهي ترفع حرارة الجسم وبهذه الطريقة يزداد ورود الدم الى الجزء الذي يتعرض لها كما لو وضعت شيئاً ساخناً على الجسم (ككمدة ساخنة او لبخة) فتساعد على التئام الجروح والنواسير ففائدتها من هذه الوجهة لاتقل عن تأثير الاشعة فوق البنفسجية في علاج السل الجراحي والجروح المختلفة وقد اثبت بعض الباحثين ان تعريض الجسم لاشعة الشمس يزيد مقاومة الجسم للميكروبات المختلفة وتستمر هذه المناعة عدة ساعات بعد تعريض الجسم للشمس . اما اذا زاد التعريض للشمس عن المدة الكافية فلا تزداد المناعة بل على الضد تقل كثيراً . وقد ثبت ان اشعة الشمس تقتل الميكروبات وتزورها وسمومها ايضاً اذا تعرضت طامدة كافية . وتتأثر العين من الاشعة فوق البنفسجية تأثراً سيئاً ولذلك يجب لبس نظارات لونها قاتم لتمنع وصول تلك الاشعة الى العين في الجهات التي بها وهج شديد ومع ذلك لا يجب ان ينظر الى مصدر الاشعة مباشرة حتى مع لبس النظارات

﴿ تأثير اشعة الشمس في الجسم ﴾ تؤثر اشعة الشمس وخصوصاً الاشعة البنفسجية في جميع المخلوقات الحية سواء كانت حيوانية او نباتية تأثيراً يختلف بحسب نوعها. قد اخذت بعض الحيوانات الدنيئة (Gelop) ووضعت في وعاء يبعد عن مصدر الاشعة نحو ٢٥ سنتمتراً فوجدت ان حركتها تزداد كثيراً عند ابتداء تعريضها ثم تقل حتى تنعدم بعد دقيقة ونصف تقريباً . وانهُ اذا وضعت في مادة ملونة Flourseim قبل تعريضها فانها تحمل تأثير الاشعة مدة طويلة. فقد تمكث ثمان دقائق ونصف قبل ان تفقد حركتها مما يدل على ان المواد الملونة لها قدرة على حماية الحيوان من تأثير تلك الاشعة كما يحصل للانسان . فان الاشخاص ذوو البشرة القاتمة اكثر تحملاً لاشعة الشمس من الاشخاص ذوي البشرة البيضاء . ومن اهم التأثيرات التي تحدث في الجسم من اشعة الشمس تأثيرها في الجلد . فعند ابتداء التعرض لا يشعر الشخص سوى بحرارة بسيطة وبعد مدة تختلف بحسب الاشخاص وتتراوح بين ٤ — ٨ ساعات يشعر الشخص باحساس ساخن في الموضع الذي تعرض للشمس ثم يحمر الجزء المعرض ويسخن ويتورم قليلاً مظهراً جميع اعراض الالتهاب بدرجة بسيطة ثم تقل هذه الاعراض بالتدريج حتى تزول ويتبعها تقشر سطح الجلد . وتمدد اوعية الدم الشعرية في الجلد بواسطة حرارة الشمس يحدث دائماً انخفاضاً في ضغط الدم

ويقول رولييه وهو من اكبر المشتغلين بالعلاج بأشعة الشمس ان الشمس احسن مدلك للجسم وانها تحسن حالة العضلات تحت الجلد فتصير العضلات الرخوة المتهوكة قوية ومتماسكة. والاطفال المصابون بالسل في احد الاطراف يعالجون بوضع الطرف المصاب في جبيرة تمنع حركته . فالعادة ان عضلات هذا الطرف تضمر ولكن اذا عولج هؤلاء الاطفال بالشمس في اثناء العلاج امتنع حدوث هذا الضمور وتقوت العضلات

ومن التأثيرات غير المباشرة التي تحدث في الاطفال المصابين بالكساح عند تعريضهم للشمس هو امتناع حدوث النزلات المعوية والشعبية التي تحدث عادة في ذلك المرض

قلنا ان اول أثر لاشعة الشمس في الجلد هو حدوث احمرار به وان الاطفال سريعو التأثر بها . كذلك الشبان يتأثرون بها اكثر من الشيوخ وانهُ بعد تعريض الجسم بضع مرات للشمس يتلوّن بلون قاتم . وهذا اللون ينشأ عن ترسيب مادة ملوّنة في خلايا الجلد تسمى الميلانين فتكون بمثابة حاجز يمنع تأثر الطبقات العميقة في الجلد بالاشعة . والاشعة التي تحدث هذا التلوّن في الجلد هي اقصر اشعة الطيف الشمسي. فان الزجاج يحجبها فاذا تعرض الجسم للشمس من خلف زجاج عادي لا يحدث به تأثير ومن فوائد هذه المادة الملونة انها تحوّل الاشعة القصيرة وهي البنفسجية في الشمس الى اشعة طويلة وهي

اشعة حرارة وكذلك من فائدتها انها تمتص أكبر مقدار من الاشعة البنفسجية في الشمس فكلما ازداد رسوب هذه المادة في الجلد من تأثير الاشعة ازداد تحسن الشخص من تأثير الاشعة وقويت مقاومة الجلد للعدوى فالدمامل والبثرات الجلدية منعدمة تقريباً بين اهالي القبائل السود . وبوجود هذا اللون وتحويله للاشعة القصيرة الى اشعة حرارة طويلة ترتفع حرارة الجلد عند تعريضه للشمس وكذلك حرارة الدم وبالتالي حرارة الجسم كله فيزداد افراز عدد العرق في الموضع المعرض للشمس وكذلك في بقية الجسم نظراً لدورة الدم الساخن فيه

﴿ الدورة الدموية ﴾ : ولنظراً لتمدد الاوعية الدموية الشعرية في الجلد عند تعريضه للشمس وامتلاء تلك الاوعية بالدم يقل الدم الموجود بالاعضاء الداخلية بالجسم ويقل احتقانها ففي حالات ارتفاع ضغط الدم يقل هذا الضغط بالتعرض للشمس وهكذا تحسن حالة المريض ويخف الصداع في الرأس ويزول شعور التعب والثقل الذي يشعر به المريض في الاطراف وفي احوال مرض القلب يقل عمل القلب وتحسن حالته بنزول ضغط الدم

﴿ الدم ﴾ : يمتص الدم معظم الاشعة القصيرة من الطيف الشمسي وقد وجد ان مقدار الهيموجلوبين (وهو المادة الملونة الحمراء في الدم) وكذلك عدد كريات الدم الحمراء تزداد ازدياداً ثابتاً في جميع الاحوال تقريباً بعد تعرض الجسم للشمس وقد ازداد العدد في بعض الاشخاص في مدة ثلاثة اسابيع من ٤½ مليون الى ٥½ تقريباً . وكذلك يزداد بعض انواع خلايا الدم البيضاء

وبتعريض الجسم للشمس يزيد مقدار املاح الحير والفصفور الموجودة بالدم ولذلك كانت اشعة الشمس من اهم العوامل في منع مرض الكساح وعلاجه وهو المرض الذي ينشأ عن نقص او عدم امتصاص الدم لمقدار كافٍ من أملاح الحير والفصفور . وقد اخذت طائفة من الفيران ووضعت في الظلام وكان يعطى لها غذاء خالٍ من الفيتمينات بمعنى ان كل احوال معيشتها كانت تساعد على اصابتها بمرض الكساح وكانت تعرض يومياً مدة دقيقتين فقط للاشعة البنفسجية ومع ذلك لم تصب بأي مرض مع ان فيراناً اخرى كانت تعيش معيشتها بدون تعريضها للاشعة اصيبت بالكساح . وقد وجد ان مقدار الفصفور في دم الطفل يتضاعف مدة اسبوعين فقط اذا عرض للاشعة دقيقتين يومياً

﴿ الهضم ﴾ لا يعلم بالضبط كيفية تأثير اشعة الشمس في الهضم انما لوحظ انها تحسن حالة الهضم تحسناً ظاهراً كما يزداد نمو الجسم في الضوء عنه في الظلام

وقد ذكر احد الباحثين حالة شخص عمره ٤٥ سنة مصاب بمرض البول السكري اصابة عدة سنوات . ويمكن منع وجود السكر في البول اذا اعطى غذاء خالياً من المواد النشوية والسكرية ويعود السكر اذا اعطى غذاء عادياً فتعريضه لاشعة الشمس ازال السكر الموجود

بالبول مع تناوله غذاء عاديًا ولكن بعد امتناعه عن التعرض للشمس مدة ٢٤ ساعة فقط يعود السكر الى الظهور في البول . وقد عملت بعض تجارب على الابقار بان وضع بعضها في زرائب لا تنفذ اليها الشمس والاخرى تركت في الخلاء معرضة للشمس واخذت البانها واعطيت لحيوانات صغيرة فلوحظ ان جميع هذه الحيوانات نمت نموًّا عاديًا اما الحيوانات التي كانت تتغذى بلبن الابقار المعرضة للشمس كانت اقل عرضة للاصابة بمرض الكساح من الحيوانات الاخرى

﴿ العين ﴾ تؤثر اشعة الشمس وخصوصاً الاشعة البنفسجية في العين تأثيراً سيئاً ولذلك يجب حمايتها عند تعريض الاطفال للشمس ويحدث أكثر التأثير في القرنية والملتحمة وهما الجزء الظاهر من العين يحدث التهاب يعقبه عتامات وهذا التأثير لا يحدث مباشرة بل بعد مضي مدة كما يحدث للجلد

﴿ الجهاز الهضمي ﴾ لاحظ بعض الباحثين ان مقدار الحامض الذي في المعدة يقل بعد التعرض لاشعة الشمس وانه اذا عرضت اجزاء حساسة مخصوصة من الجلد للشمس زال الالم الذي يحدث في معظم امراض المعدة . وكذلك تؤثر اشعة الشمس في الامعاء فتقلل عدد الميكروبات التي تعيش فيها ويمنع بذلك التعفن الذي يحدث في الغذاء وبالتالي الاسهال فيجعل الامعاء تمتص اكبر مقدار من المواد الغذائية الموجودة بها

﴿ الجهاز العصبي ﴾ يحدث التعرض لاشعة الشمس الشعور بالغبطة والسرور والنشاط وتتحسن حالة الشخص العقلية وقد ثبت ذلك بتجارب عملية

﴿ الميكروبات ﴾ في سنة ١٨٧٧ ثبت ان لاشعة الشمس أثراً في نمو الميكروبات . وقد اخذ زرع من ميكروبات في انابيب وضع على بعضها الواح خفيفة من الرصاص لتمنع وصول تأثير اشعة الشمس اليها ولكنها لا تمنع وصول الحرارة وعرضت جميعها للشمس فوجدت ان الميكروبات في الانابيب التي لم تكن محاطة بألواح الرصاص ماتت جميعها ولم تنمُ بعد ذلك مما يدل على ان اشعة الحرارة لا تؤثر في الميكروبات بل ان التأثير من الاشعة البنفسجية . وفي سنة ١٨٩٠ أبان كوخ (وهو مكتشف ميكروب السل) ان هذا الميكروب يقتل اذا تعرض للشمس . وقد اخذ بصاق شخص مصاب بالسل وعمل منه شريحة على لوح زجاج ووضعها في الشمس فوجد ان الميكروب يموت بعد عشر دقائق

والماء لا يحجب اشعة الشمس وخصوصاً الاشعة البنفسجية فهي تؤثر في الميكروبات التي في الماء فتقتلها وهذه الطريقة هي احدى الطرق التي تستعمل في الوقت الحاضر في تعقيم الماء وذلك بجعل الماء يمر ببطء بعد ترشيحه حول جهاز هو عبارة عن مصباح يرسل اشعة بنفسجية فعند مرور الماء حوله تؤثر تلك الاشعة في الميكروبات الموجودة به فتقتلها وبذلك يتعقم الماء . اما تأثير اشعة الشمس في الماء في الاحوال العادية كماء الانهار مثلاً فبسبط

جداً وسطحي لان وجود المواد العالقة بالماء تمتص اشعة الشمس كما تمتصها المادة الملونة في الجلد وتمنع وصول تأثيرها الى الطبقات السفلى فلا تؤثر الا في سطح الماء فقط

﴿ الامراض التي تؤثر في علاجها اشعة الشمس ﴾ اهم مرض يحتاج في علاجه لاشعة الشمس هو مرض السل وكل شخص مصاب بأي نوع من أنواع السل يجب تعريضه لاشعة الشمس. فاصابات السل في العظام والمفاصل والجلد والغدد والبريتون تتحسن كثيراً وفي اغلب الاحيان تشفى بعلاجها بأشعة الشمس وكذلك حالات السل الرئوي الا انها تحتاج الى عناية وتدريب خاصين ويوجد الآن في اكثر بلدان العالم مصحات لعلاج السل بواسطة اشعة الشمس والهواء فقط

ويلي مرض السل مرض الكساح في الاطفال فان علاجه الوحيد تقريباً هو اشعة الشمس وقد عرف ذلك منذ سنة ١٨٩٥ فقد كان يصيب بعضهم مرض الظلام وسبب هذا المرض كما قلنا نقص في مقدار املاح الجير والفصفور في الدم واشعة الشمس تجعل الدم يأخذ اكبر مقدار ممكن من هذه الاملاح من الغذاء في أثناء الهضم ويكثر هذا المرض في المدن بين اطفال الاحياء الفقيرة التي لا تنفذ اليها أشعة الشمس. وقد قال بعض الباحثين انهُ اذا اعطى الطفل غذاء ناقصاً في مقدار الفيتامين الذي يمنع حدوث مرض الكساح وتعرض في الوقت نفسه لاشعة الشمس فانهُ لا يصاب بالمرض ولكنهُ يصاب به اذا ترك بدون التعرض للاشعة

وفي بعض الاحيان يمكن الاستعاضة عن اشعة الشمس خصوصاً في زمن الشتاء باعطاء الاطفال زيت كبد الحوت فان هذه المادة لها قدرة على منع مرض الكساح وشفائه. الا ان تأثيرها لا يعادل تأثير اشعة الشمس. اما استعمالها معاً فهو اتم ويأتي باحسن النتائج وفي جهات القطب الشمالي حيث يمكث سكان تلك الجهات ستة شهور بدون التعرض للشمس لا يصاب أحدهم بمرض الكساح لان اكثر غذائهم هو زيت كبد الحوت

ولنظراً لما وجد من الفائدة العظيمة لاشعة الشمس في مرض الكساح ولما اتضح من ان الجزء الفعال في العلاج هو الاشعة البنفسجية منها فقد اخترعت اجهزة كهربائية تعطي هذه الاشعة لاستعمالها في العلاج خصوصاً في الجهات التي لا تشتد كثيراً على اشعة الشمس لكثرة الضباب وتغير الجو المستمر بها وهم يفكرون الآن في جعل تعريض الاطفال لهذه الاشعة اجبارياً كالتطعيم ضد الجدري بحيث يعرض كل طفل لهذه الاشعة مدة شهر عندما يبلغ الشهر السادس من عمره. وقد وجد أن لهذه الاشعة تأثيراً حسناً في علاج عدة أمراض مهمة فيعالج بها الآن مرض السل الديكي في الاطفال وعدة امراض في البالغين كأمراض الامعاء والمعدة والكبد وبعض امراض الاذن والانف وأمراض النساء

دمعة القلب

إن ناتول فرانس اشهر كتاب فرنسا المحدثين ترك آثاراً خالدة لا تبلى لها جدة لكن هذه القصيدة من ابلغ ما خطته يراعته، لانه استمدها من عواطفه البنوية الحياشة اثر موت امه التي كان حبه لها يبلغ حد التقديس وهي « مرفوعة الى تلك الروح الطاهرة ، الى ذلك الملاك المتجسد ، الذي لم يكد يمس الارض بجناحيه حتى انف منها فعاد الى مقره السماوي » .

سرت وراء النعش مشيعاً آمالي ومُنى نفسي، وانا سامٍ ذاهل، اتطلع ولا ابصر، واسمع ولا اعي، فقد نضب معين دمعي، وجفت مآقيَّ، ولم يبقَ ما استقطره غير دماء قلبي، فالحزن العميق الصامت لا يَسخَب فيه ، وما هو الا تلاشي القوى المستمرة وانصهارها ، في الامل الخائب والاماني الضائعة

وقفت في المقبرة ، إزاء الحفرة العميقة، الفاغرة فاها لابتلاع هنائي وسعادتي، وقد وُضع على حافتها نعش الام الحنون، والجموع تحفُّ به ساكنة خاشعة ، واصوات التراتيل ترتفع على اجنحة الملائكة ، والبخور يعبق في الجو مثلوياً منسابا ، تعبث به انفاس الموتى ، فيشبه نفسي المترددة الحائرة ، التي تسير في الحياة لتُبتلى ايامها

وكانت الصلوات المنبثة من فم القسيس ، تَطنُّ في اذنيَّ، كأنها صدى دوي عظيم ، آتٍ من فج عميق، ويخيَّل اليَّ ان الكلمات اتخذت شكلاً ، وانها تئن وتبكي كما يئن قلبي الحزين ويبكي، وان التراتيل المرسلة الى العليِّ، تشيد روحي المحترقة التي الهبتها الاحزان، فارتفعت الى السماء شعلتها الاخيرة بعد ما تقد ما يقيتها على الارض

سكت المصلّي بعد ما استنزل على الراحلة الكريمة غيث الرحمة، فسكتت الانفاس المردَّدة وخشعت نفوس القوم، وطأطأوا رؤوسهم، لا اجلالاً لعظمة الموت، بل روعةً منهُ وخشية ، وأُنزل النعش بحبله المتين ليُوارى عن نظري الى الابد ، وتساقط عليه التراب تحت معاول الحفارين ، كأنهُ رذاذ المطر ، فعاودني احساسي ، وشعرت بأن كل نقرة حصاة تصيب النعش يردِّد صداها قلبي، فتقطر منهُ الحياة قطرةً فقطرة

قلب المرء ارضي، لانهُ يحب ليُحَب، اما قلب الوالدة فسماوي، لانهُ يحب من دون غاية ولا غرض، فشعور الام شعلة من قبس الله ، اودعها فؤادها ليسمو بالنفس الى مقرها العلوي، مطهراً ان ثمت شيئاً ارضياً لا يمتُّ بصلة الى المادة العالقة به

غادرت الرمس وقلبي على صغره وضعفه ، يحمل من عبء الاحزان ، ما تنوء به العواتق على قوتها، لان حبي البنوي ليس كغيره : راحة القلب الهادئة الساكنة ، بل هو عاطفة الحاجة السعيد تلتهم النفس التهاماً

***

سرت جارًا عبء الحياة وراءي كما يجر الميتُ كفنه اذا ما نُفخ في الصور، وقد مسحت يدُ الموت وجهي، وظلت سحابة العدم شابي وآمالي، فالوقت اعظم بلسم لإلتئام الجرح ، ولكن الّذي له ان ينال مني، وجرحي كنين، في النفس لا يصل اليه دواء، ولا يدركه عزاء فما سَلْوَى تلك الام في الثرى الذي دفنت فيه ، بل في اعماق روحي، تحوطها عواطفي بكل لهفة ، ويذرف عليها قلبي دموعه قطرة فقطرة ، ليرطب ثراها ، ويعطر ذكراها

***

ان في الحياة آلاماً مُبَرِّحَة تُصيب من لا يستحقها ، فتزعزع ثقته مهما قويت وتفلّ عزمته مهما اشتدت، وتذرُّ على محياه ظلال نفسه الحزينة الباكية ، فتبدو اساريره متحجبة، تعبّر بدون لفظ ، عن شجون روحه وآلامها

بُليتُ وانا في مستهلّ السادسة عشرة من عمري، بآلام كهذه استطار لها قلب امي، وهل في الحياة عطف وحنان، اشد وأقوى من عطف الام وحنانها، على من هم قطعة من كبدها ؟

***

وكانت احزاني تُلقي بذرّات شابي على الارض، كما تُلقي الرياح اوراق الورود الذابلة ، فتسلقفها عواصف الحياة الهوجاء ، وتذروها في فضاء اللانهائية ، ولم اكن اجد عزاء عما بي ، الا بوحدتي وانفرادي، لان بعض الاحزان لا سَلْوَى لها ، ولا تحتمل رؤية الناس والاختلاط بهم ، فكانت امي تُقبل عليّ حزينة القلب ، دامعة العين ، تودُّ لو تفديني بنفسها ، عارضةً عليّ بذلَ حياتها في سبيل راحتي وهنائي

***

ضمّتني طويلاً الى صدرها ، وانا اسمع وجيبَ قلبها الحنون ، وتمتمت : « لفّ نفسي على شبابك الغضّ يا بني ، لفّ نفسي على هذين الخدّين الذابلين ، وهاتين العينين الساجيتين، وهذا المحيّا الشاحب ، الذي كان يشعُّ بنور الصبا ، وضوء الشباب . . . اعرف يا بنيّ ان داءك ليس في جسدك ، بل في نفسك ، لانك تتذوّق ما فوق ، لا ما على الارض ، فهلاّ بحتَ لي بخبيئة صدرك ، لان الاحزان اذا تنفّست ، خفّ وقعها على القلب »

***

ابتسمتُ ابتسامة مريرة ارتسمت عليها احزان نفسي ، فالمكست اشجاني على صفحات قلب امي الحنون ، فهمّتْ عناها تأثراً، وطوقتني بذراعيها مُسِرّةً اليّ : للشباب يا بنيّ مطالبُهُ التي لا ينجح فيها دواء ، ولا يؤثر بها عزاء ، فعبثاً احاول نصحك ، او تخفيف لوعتك

ولكني واثقة بان ما تسلّل الى قلبك ، هو تدفق الروح في الروح ، لا ميل الحاسة الى الحاسة ، لان الحبّ زنبقة الحياة الطاهرة العبقة ، يستنشق عبيرها دون مسّ ، فاذا مانالتها يدٌ ، ذبلت اوراقها ، وعفا اريجها ، وتناثرت اكمامها

القلب قائم في حياة الانسان على قدم وساق ، بين سعادته وتعاسته ، والانسان هو الرهان الذي تتراهنان عليه ، لكنهُ يقف جامداً غير عابئ بما يجري امامه ، حتى ينتهي الشوط فيتلقفهُ الرابح ، ويتصرّف به وفقاً لاهوائه واميالهِ الى الابد ، ولم اشذ عن هذه القاعدة ، ولكن الشقاء رحمني فلازمني ، غير ان من لم يذق العذاب لايرثي لحال انسان ، فقد تألمت امي ولذا رثت لحالي ، ومنحتني كل ما تملك ، لأرفهَ عن قلبي في بلاد اخرى ، فضربتُ في رحاب الارض وشعابها ، ولكن في نفسي الغصّة كان بصيص الحياة الضعيف ، يمتزج بشعاع الموت المبهم ، فلم ينقشع عن قلبي شتاء الالم ، لان الهناء وهو الشمس بحرارتها ونورها ، لم تكن تجد سبيلاً اليه لتطرده منهُ

الأسى والالم هما حاجة النفس الحيّة ، التي لم تقتلها ملاذ الدنيا الحسيّة ، فهي لاتُنعم إلاّ بهما ، ولو انها تجد فيهما شقاءها وتعاستها ... مالت الشمس للغيب وغشت الارض ظلمة الليل ، كما غشّى على روحي غيش آلامي واحزاني ، فسارعت الخطى الى المقبرة ، حيث مرقد الاماني الضائعة والآمال التي لم تحقق ، وتسللت بين التُرب وانا اشبه بروح حائرة ، تسير مدفوعة بقوة غير منظورة ، دون ان تجد لها مكاناً تستريح فيه ، فوقفت على جدث الوالدة الرؤوم ، وامواج عواطفي تقذف من داخلي ، بقطع كبدي ومزق فؤادي ، وجثوت على ترابهِ معفّراً وجهي به ، لأستروحَ نفحاته العبقة الطاهرة ، فتمثلتْ تفاهة الدنيا ، وخطر لي ان ادفن نفسي بجانب من هي قطعة مني ، وانا قطعة منها ، لأتخلص من هذا الليل المرعب الذي يسمونهُ الحياة ، فمددت يدي ، وشرعت احفر الارض ، وانا مكبٌّ بكليتي عليها ، فخُيّل لي اني اسمع صوتاً في تلك الارجاء الساكنة الهادئة ، فاقشعر بدني ، ورفعت رأسي ، فابصرت الموتى قد نهضوا من مضاجعهم ، وتطلعوا بعيونهم المجوّفة ، ومدّوا ايديهم نحوي بغضب ، وطرق مسمعي اصوات تصيح ، كانها خارجة من اجواف القبور : لماذا تعكّر علينا صفو راحتنا وسكينتنا ؟ يا ابن الشقاء ، عُدْ الى دنياك ، فانك لم تتمّ بعد عذابك فيها ، فكدتُ افقد عقلي ، وقفزت من مكاني ، وشبحُ امي يودّعني بنظرة مفجعة ، واسرعت هارباً ، لا أوي على شيء ، والام الحياة تدفعني الى العدم ، والاموات تصدني عنها ، وتطردني من حظيرتها ، والموت وهو سعادة الانسان في حياته يهرب مني ويبتعد عني

القاهرة جورج نقولاوس

فروق الذكاء بين السلالات البشرية

هل ثمة سلالة متفوقة على غيرها كل التفوق[1]

العلم لا يميل الآن الى وضع تاج التفوق العقلي على رأس سلالة بعينها من السلالات البشرية

سمعنا كثيراً عن تفوق الشعوب النوردية مما يحملنا على الاعتقاد بان ابناء تلك الشعوب هم نسل الآلهة القدماء — آلهة اليونان والرومان . ومآل ذلك انك اذا وازنت بينهم وبين سائر الشعوب حُتِّم عليك ان تحكم لهم بالتفرُّد في العقل والقوة والفضيلة . ولكن اذا راجعت مؤلفات الكتّاب الذين رفعوا الشعوب النوردية على هذه القمة رأيت معظمهم ممن لم يتمرّس باساليب البحث العلمي المنزّه الدقيق تمرُّساً يمنحهُ الحق في ان يقيم نفسهُ حكماً على سائر السلالات البشرية

والواقع ان موضوع التفوُّق بين السلالات لا يُحَلُّ الاّ على يد الثقة الخبير فيه . فاذا كان لديك مشكل في الكيمياء ذهبت به الى كيماوي حلّيه ولم تذهب قط الى متعلّم يعنى بشؤون الكيمياء فقط ! واذا شئت ان تبني مصنعاً على الاصول العلمية ذهبتَ الى مهندس بارع واذا اصيب ابنك بالجدري تلمست معونة طبيب معروف . فثمّة في فروع العلم ما لهُ حق الفصل في موضوع تفوُّق النورديين دون غيره . وعلى عاتق الانثروبولوجي والسيكولوجي يقع عبء الفصل في هذه المسألة . وحكمهما يختلف اختلافاً كبيراً عن رأي الكتّاب الذي يضعون النورديين في الذروة وسائر السلالات البشرية في الحضيض

لم يثبت لنا بعد ، انْ ثمّة فروق في مرتبة الذكاء بين السلالات المختلفة

لننظر اولا في ما يقوله الانثروبولوجي في الموضوع . انهُ يدرس تاريخ السلالات القديم . فموضع عنايته مرتبط بالتاريخ اولاً . اين نشأت هذه السلالة ؟ ولماذا هُزمت الشعوب المستطيلة الرؤوس في اوربا امام الشعوب المستديرتها من نحو عشرة آلاف سنة ؟ من اول من دجّن الحيوانات ؟ واية سلالات خلقت الحضارات الزاهرة في مصر واميركا الوسطى ؟ هذه هي المسائل التي يعنى بها الانثروبولوجي

(١) مترجمة من مقالة في السيكتفك اميركان لدكتور راستا بروكس الاستاذ المساعد لعلم النفس في كلية كولمبيا

فاذا سألتهُ رأيهُ في ذكاء السلالات قال : « فكرة حسنة . ولكن لنبدأ البحث في تحديد ما تنطوي عليهِ لفظة سلالة » . وهنا اول صدمة نصطدم بها . لان الانثربولوجي يبني تحديده لمعنى السلالة على الصفات الطبيعية والجسمانية التي يتصف بها الناس . فابناء شمال اوربا شقر الشعر زرق العيون طوال القامة رؤوسهم عالية ومرتفعة وانوفهم دقيقة . فلا يصح ان نصف شعباً او سلالة بانهم « نورديون » الاَّ اذا اتصفوا بهذه الصفات . ثم هنالك سلالتان اخريان في اوربا بحسب التقسيم المسلَّم بهِ وهما السلالة الالبينية وهي التي تقطن اواسط اوربا ولكنها انتشرت الى اقاصيها والسلالة المنسوبة الى البحر الابيض المتوسط . فالالبيتون قصار القامة سمر الشعر والعيون وذوو رؤوس مستديرة . اما شعوب البحر الابيض فقصار ايضاً ولكنهم يميلون الى الهيف سود الشعر سمر العيون ورؤوسهم مستطيلة منخفضة

فاذا شئنا ان نتكلم عن فروق الذكاء بين السلالات البيضاء وجب ان نحصر كلامنا في هذا التقسيم او في ما هو من قبيلهِ — اي يجب ان يكون التقسيم مبنيًّا على الصفات الطبيعية والجسمانية. فالانكليز ، جريًا على هذا ، ليسوا بسلالة . هم امة . ومن العبث ان نشير مثلاً الى انحطاط السلالة الايطالية — اذا سلَّمنا جدلاً بانحطاط الايطاليين — لانهُ لا يوجد شيء اسمهُ سلالة إيطالية . وانما هناك امة ايطالية مؤلفة من السلالات الثلاث المذكورة — النوردية والالبينية والمتوسطة البيضاء . فالنورديُّ الذي يرمي الايطاليين بحجر من هذا القبيل لا يأمن ان يصيب منهم رجلاً من ابناء سلالتهِ

وعلى ذلك فاليهود ليسوا سلالة بهذا المعنى . فمن اليهود قوم طوال القامات وآخرون قصارها . ومنهم زرق العيون ومنهم سمرها . ومنهم شقر الشعور ومنهم قاتموها . ومنهم مستطيلو الرؤوس ومنهم مستديروها . ففي استطاعتك ان تبرهن على ان اليهودي متفوق او منحط بحسب رغبتك ، ولكن ذلك لا علاقة لهُ قط بمسألة السلالة التي نحن في صددها . حتى اذا نظرنا في زنوج الولايات المتحدة وهنودها الحمر وجدنا اختلاطهم بعضهم من جهة وبالبيض من جهة اخرى يجعل الكلام عن سلالة زنجية صريحة او سلالة هنود حمر صريحة متعذراً

فالنقد الاول الذي يوجههُ الانثربولوجي الى هذه المسألة يهدم اكثر ما قيل في موضوع الاختلاف بين السلالات المختلفة من حيث الذكاء . لان جلَّ ما قيل انما ينطبق على الامم المختلفة — والامة كما تقدَّم مزيج في الغالب من سلالات مختلفة

ثم ان الانثربولوجي ينظر الى المسألة من وجهتها التاريخية . فنحن نميل في الغالب الى النظر في الامور كما هي لا كما كانت في الماضي القريب او البعيد . فاركان حضارتنا الحالية ترتدُّ الى مصر وبابل واليونان . من هذه البلدان خرجت اصول حياتنا المدنية كتدجين الحيوانات وزراعة

النباتات الغذائية . فالتورديون في نظر الانثربولوجي لم يؤدوا اية خدمة في سبيل هذا حتى في القرن الخامس عشر بعد المسيح كان التورديون لا يزالون اقواماً متوحشين اذا قيسوا بسكان جنوب اوربا . فالانثربولوجي يعرف هذه الحقيقة ويعترف بها . ثم هو يعرف كذلك ان هنود اميركا الوسطى المحتقرين كانوا قد شيدوا حضارة سامية قبل القرن الخامس الميلادي لما كان السكسون لا يزالون قرصاناً لا همَّ لهم الا النهب والتدمير . وان الصينيين كانوا قد بنوا سورهم العظيم لما كان التورديون يحاولون استعمال الحديد . وان المصريين والبابليين كانوا قد استنبطوا لغة للكتابة وابدعوا ثقافة عالية لما كان سكان شمال اوربا في بدء محاولاتهم تدجين الحيوانات البرية وزراعة بعض الحبوب

فالتورديُّ في بناء الحضارة العالية كحديث النعمة بعد الحرب ، تراه موفقاً في كل اعماله ولكن تاريخهُ اذا قيس بتاريخ غيره قريب العهد جداً

ثم اذا التفتنا الى ناحية علم النفس ، وهو الفرع الآخر من فروع العلم الذي له شأن في ابداء حكم في هذا الموضوع وجدنا ان العالم النفسي لا يزال كثير التردد والحيرة . فهو يحاول ان يقيس الذكاء بما يدعوه « مقاييس الذكاء » وينجح في عمله اذا طبقهُ على تلاميذ مدرسة نشأوا في بيئة واحدة او بيئات متماثلة . ولكنهُ يتململ ويقلق اذ يأخذ غيره المقاييس التي ابتدعها لغرضه الخاص ويحاول تطبيقها على ابناء سلالات الشعوب الاخرى

فأخذ حائل اللغة . فلا حق لي ان امتحن ذكاء طفل من الهنود الحمر « بمقياس ذكاء » مكتوب باللغة الانكليزية اذا لم يكن ذلك الطفل قد تعلم اللغة الانكليزية تعلماً وافياً كالاطفال الذين وُضع لهم المقياس . وقد امتحن هذا القول في حزار الفلبين بطريقة لا تدع مكاناً للريب . ذلك ان طائفة من الاطفال عدد افرادها ٣٢ الفاً اعطوا مقاييس ذكاء متعددة . وكان هؤلاء الاطفال لا يجيدون التكلم باللغة الانكليزية . فلما جمعت النتائج وبوّبت ظهر ان مرتبة ذكائهم ادنى جداً من مرتبة ذكاء الاطفال الاميركيين الذين من عمرهم . ولكن لما اعطوا « مقاييس ذكاء » تمتحن ذكاء الطفل من غير التجاء الى اللغة ثبت ان مرتبة ذكائهم مساوية لمرتبة ذكاء اقرانهم من الاميركيين

والعالم النفسي لا يتغافل عن مسألة الزنجي في الولايات المتحدة . اذ يقول بعضهم هو ذا الزنجي يعرف الانكليزية ولكن مرتبة ذكائه ادنى من مرتبة ذكاء اقرانه البيض . لان الذكاء كما يقاس بمقاييس الذكاء يتوقف الى مدى بعيد عن البيئة التي نشأ فيها الممتحَن . ومن المؤكد ان الزنجي الاميركي لا يساوي الابيض في هذه الامتحانات . ولكن كل من خبر احوال الاجتماع في جنوب الولايات المتحدة الاميركية حيث يقيم معظم الزنوج الاميركيين

لا يستطيع ان يدعي ان الزنجي اتيحت له فرص التعلم والتثقف كما اتيحت للبيض. ونسمع كثيراً عن انحطاط الزنوج (الاميركيين) ولكن ثمة حقيقة او حقيقتان ينظلهما كل داعٍ مؤيد لتفوق البيض. فالزنجي الاميركي الساكن في شمال الولايات المتحدة يفوق الزنجي الاميركي الساكن في جنوب الولايات المتحدة، ذكاء اذا صح لنا ان نعتمد على امتحانات الجيش الاميركي الواسعة النطاق التي تمت في اثناء الحرب الكبرى. فالاحوال البيئية التي ينشأ فيها الممتحن لها شأن كبير في امتحان الذكاء يساوق شأن التعلم في المدارس وغيره. والدارس النفسي يعرف هذه الحقائق ويحترز كل الاحتراز من اطلاق الآراء من غير استنادها الى ادلة كافية. وما يسيء الى العلم ان كتّاب الصحف وبعض المجلات المصورة يقارنون نتائج بعض الامتحانات ويبنون عليها نتائج لا تسوغها الحقائق

وللبيولوجي رأي في الموضوع. فبعض الكتاب يذهب الى ان الهنود الحمر او سكان جزائر اتلانتيكي الجنوبية اخذوا يبيدون امام فتوحات الانسان الابيض، مما يدل على ضعفهم وانحطاطهم عن مستواه العقلي — فحجتهم مبنية على ان عجز هؤلاء عن الوقوف امام تيار الحضارة الاوربية او الاميركية دليل على ضعفهم العقلي!

ولكن الحجة فاسدة من اساسها. لان التيار الذي لا يستطيع هؤلاء الاقوام مقاومته هو تيار الامراض التي يصاب بها البيض وينقلونها معهم ولا قبل لسكان تلك الجزائر باحتمالها. فالثابت من مطالعة تاريخ الحملة الاسبانية على المكسيك ان المكسيكيين صدّوا كورتز عن مدينة المكسيك لدى هجومه الاول عليها. ورغم تسلح الاسبانيين بأدوات الحرب الفولاذية والبارود قاومهم الهنود الحمر مقاومة عنيفة فردوهم خاسرين. ولكن الاسبانيين جاءوا بمرض كان خير معوان لهم في نهاية الامر على افتتاح المدينة وغزوة البلاد. ذلك ان ميكروبات الجدري تفشت في المدينة بعد الهجوم الاول فوجدت فيها مرتعاً خصباً فلما حاول الاسبانيون ثانية افتتاح المدينة كان نصف سكانها من الذكور قد ماتوا بالجدري فسهل على كورتز اخضاع الباقين

وكل من يتصل بالاسكيمو يعجب بذكائهم ومضاء عقولهم. ولكن الاسكيمو مقضيّ عليهم لانهم لا يستطيعون ان يقاوموا امراض الانسان الابيض فالسل والجدري يفتكان بهم فتكاً ذريعاً. وسكان الجزائر في جنوب المحيط الباسفيكي يشبهون الاسكيمو من هذا القبيل وانقراضهم ماض على قدم وساق لانهم لا يستطيعون مقاومة امراض البيض

فالانسان الابيض يشعر — وشعوره طبيعي — بان هذه الاقوام ضعيفة منحطة فهي لا تستطيع ان تقاوم الامراض مقاومته لها. فيحتقرهم من جميع الوجوه ويحكم عليهم بقلة الذكاء وضعف العقل. ولكن الذكاء لا علاقة له قط بهذا كله. والبحث العلمي الحديث اشار الى ان الاوربي

نفسهُ اذا عاش في الاحوال التي يعيش فيها هؤلاء فقد قوتهُ على المقاومة. فالجرذان البيض مثلاً تولد سلائل ضعيفة اذا حُكِم عليها بالاغتذاء بطعام يحتوي على كحول او اذا اصيبت غددها الدرقية بما يضعفها

هذا فرع جديد من فروع البحث والظاهر مما تم فيه حتى الآن ان كل ما يضعف الجسم كالكحول وقلة الغذاء والمرض يفضي الى توليد سلائل ضعيفة ولهذا تحط السلالة . فاذا صحت هذه الاشارات وأيدتها المباحث المقبلة تبين لنا كيف يفضي مرض يتفشى في قوم لم يعرفوهُ من قبل ، كالملاريا ، على سلالة قوية صلبة المراس

فاذا جمنا النتائج التي نخرج بها من ميادين البحث المرتبطة بهذا الموضوع تبين لنا ان العلم لايميل الآن الى وضع تاج التفوق العقلي على رأس سلالة بعينها من السلالات البشرية

ولكن هل يستطيع البحث العلمي ان يحل هذه المشكلة حلاً نهائيًا . قد يمكن ذلك . ولكن العقبات التي تحول دونهُ كثيرة جدًّا . فأولاً يجب ان يتناول الباحثون في بحثهم السلالات لا الامم . لقد ظهرت مؤلفات كثيرة عن تفوق النورديين . ولكني لا اعرف احداً من الباحثين تناول في بحثهِ جماعة نوردية صريحة ووازن بينها وبين جماعة البينية صريحة او جماعة صريحة من سلالة البحر الابيض المتوسط . قد يبدو في هذا التصريح شيء من القسوة على امثال غراث Grafth الذي بحث بحثاً علميًّا صحيحاً في الموازنة بين جماعات من الهنود الحمر وجماعة من البيض ولكن يرجح عندي ان غراث نفسهُ لايستطيع ان يدعي انهُ عُني كلَّ العناية بتفاوت الجماعات التي تناولها وعدم اختلاط دمها بدم سلالة اخرى

ثم هنالك صعوبة اخرى اذ لابدَّ من استعمال مقاييس الذكاء لامتحان ذكاء جماعة من الجماعات. فلنفرض ان باحثاً اختار جماعة نوردية وجماعة من سلالة البحر الابيض المتوسط. وقد مرَّ بنا ان اللغة حائل كبير دون تطبيق معظم المقاييس الموضوعة لقياس الذكاء. فعليهِ ان يستعمل مقاييس لاتقوم على اللغة. ولكن ذلك لا يثبت له ان الاحوال الاجتماعية والصحية والتعليمية التي نشأت فيها الجماعات متماثلة. وهذه الاحوال لها اثر في ذكاء كل سلالة وقوة بناها العقلية. حتى اذا سلمنا جدلاً اننا نتمكن من تحقيق هذا الفرض . فالنتيجة التي نخرج بها تنطبق على حالة السلالات اليوم . ولكن اين السلالات التي شيدت الاهرام وبنت حضارة اليونان القديمة . كانت تلك السلالات في عصرها زعيمة الحضارة اذ كان سكان شمال اوربا مستغرقين في جهل البداوة . وكما ارتقى النوردي الى الذروة وهبطت سلالات من الذروة هكذا توجد الآن سلالات تحاول ان تتسلق سلم الارتقاء وقد يحدث ما يمكنها من التفوق على السلالات النوردية كما تفوقت هذه على من تقدمها . هذه تعاليم التاريخ. فلكن متصفين في الحكم على السلالات

النظرية السلوكية : نقد وتقدير

للاستاذ يعقوب فام

في المقالات السابقة شرحنا باختصار كثير المقدمات التي ابنت عليها النظرية السلوكية، وفي هذه المقالة سوف نتناول النظرية نفسها بالتقدير والنقد لندل على مواضع قوتها ومكان الضعف فيها

قلنا فيما سبق ان للعلم طريقتين يستعين بهما او باحداهما للوصول الى الحقائق التي يسعى وراءها. والطريقة الاولى هي طريقة المشاهدة وهذه اعم الاثنين جميعاً وتستعمل في جميع العلوم الطبيعية كالكيمياء والطبيعة والفلك وعلم طبقات الارض والعلوم البحرية والمعادن والنبات وعلم الحيوان وخلافه كثير. واما الطريقة الثانية فهي الاستبطان (Introspection) وهي خاصة بالعلوم الاجتماعية كعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد. وهذا لا يمنع بالطبع ان العلوم الاجتماعية ايضاً تستخدم المشاهدة والتجربة كباقي العلوم الطبيعية ولكن الاستبطان خاص بالعلوم الاجتماعية دون سواها

والاستبطان قائم على ان العلماء يبحثون في مشاعرهم الخاصة وحالات نفوسهم التي تلازمهم في بعض الاحوال المختلفة، وتحليل عواطفهم ووجداناتهم ومنازع نفوسهم ويتكبدونه في سبيل هذه المنازع ثم يبوّبون هذه جميعاً وينظمونها ويقيمون لكل ظاهرة منها حدودها. ليس هذا فقط ولكنهم يتعلون بالآخرين مستوضحين عن حالاتهم النفسية وما يحسه الغير ويشعر به او يدفعه للعمل والنشاط ويجمعون منهم الشيء الكثير ثم يقيسون هذه الظواهر على ما يجدونه من نفوسهم هم، وبعد هذا يستخرجون القوانين العامة من هذه الظواهر جميعاً ويقدمونها على انها حقائق ذاتية داخلية يصح ان يأخذ بها العلم ويبحثها لانها تنتاب النفوس المادية. وبالطبع لا يهم سواء اكانت هذه الظواهر النفسية لها وجود موضوعي (objective) مستقل عن الشخصية ام ليس لها وجود مستقل كأن تكون ذاتية داخلية (subjective). والفرق بين الذاتية والموضوعية دقيق ومتصل بالفلسفة اشد اتصال ولسنا ننوي ان نبحث فيه لانه يطوح بنا في مناح من الكلام تخرج بنا عن حدعلم النفس وانما نحب ان نضرب مثلاً او اثنين حتى نبين الفرق بينهما بشكل اكثر وضوحاً وأقرب الى الافهام. من العلوم اننا لا ندري للاشياء وجوداً الا عن سبيل الحواس: فالانسان منا في الواقع لا يدري سواء اكان هذا الجسم موجوداً ام غير موجود الا عن طريق النظر

John Dewey

جون ديوي الأميركي

الذي تستند السلوكية في فلسفته العملية استناداً كبيراً

واللمس والسمع الى آخره ، وحتى هذه الظواهر التي تصل الينا لا يصح ان ندعوها حساً لانها ليست كذلك . فما هي الا احساسات مستقلة عن الجسم كل الاستقلال ، وما هي الا من صنع نفوسنا . فعندما ترى امامك رجلاً وتسمعه وتلمسه فشعورك بوجوده لا يمت بصلة اليه لانهُ ما يزال واقفاً بعيداً عنك مستقلاً عن نفسك الداخلية، وكل ما تعلمهُ عنهُ هو بضعة احساسات دقيقة رتبها جهازك النفسي وحاكها كما اراد حسب استعداداته وطاقته

ولنضرب مثلاً آخر يكون اكثر توضيحاً لهذه النقطة . انسان واقف بجانب ناقوس كبير يدق ويسمع هذا الانسان صوتهُ، فما هو هذا الصوت؟ هل الصوت شيء موجود في الطبيعة مستقل عن الانسان ؟ كلاً فان الصوت هو عبارة عن اهتزازات سريعة لجسم ما ، وهذه الاهتزازات تنقلها الينا حواسنا على انها صوت ، ولكن هذه الاهتزازات نفسها لو زادت سرعتها وقصرت موجتها قليلاً او كثيراً لما سمعناها مطلقاً ولانقلبت الى حرارة تكتوي بها ايدينا فما لو لمسنا هذا الناقوس الذي نتحدث عنهُ . والفرق بين الصوت والحرارة ليس شيئاً سوى ان الصوت ينتج من اهتزاز الناقوس كله واما الحرارة فتنتج من اهتزاز ذراته . فاذا زادت الاهتزازات ايضاً وقصرت موجتها لا يعود الناقوس يحدث صوتاً ولا يعود ساخناً فقط وانما يصبح منيراً كأنهُ مصباح قوي . كل هذا يحدث مع اننا لم نغير شيئاً من طبيعة الناقوس ولا من اهتزازاته ، والواقع ان الاختلاف في هذه الحالة لا ينجم عن هذا الجسم وانما ينجم عن حواسنا التي ركبت فينا ، فانها هي دون غيرها التي تسمي بعض الاهتزازات صوتاً وبعضها حرارة وبعضها نوراً والواقع انها اهتزازات لا اكثر ولا اقل "

هاتان هما اذن الطريقتان — طريقة المشاهدة والدراسة الموضوعية وطريقة الاستبطان والدراسة الذاتية الداخلية . والسلوكية تصر على ان تفضل الذاتية كل الاغفال ولا تريد ان تستخدم في علم النفس الا الطريقة الموضوعية . وبعبارة آخر لا تريد ان تسأل الموضوع المراد دراسته عما يحس او يشعر به لانها لا تثق بشعوره او باحساسه ، وانما تعتمد فقط على ان تضع الموضوع امامها — انساناً كان ام حيواناً — وتشاهد تصرفاته في الاحوال المختلفة المتباينة، ثم تدون هذه المشاهدات وتبوبها وتستخرج منها قوانين عامة، وتزعم ان كل طريقة اخرى عدا هذه خاطئة ومغلوطة ومضللة ولا يصح الوثوق بنتائجها . والسلوكية تحمي باللائمة على كل العلماء الذين يستخدمون طريقة بخلاف طريقتها ، وتدعوهم دجالين ومشعوذين وخاضعين للاوهام والخرافات ، والفرق بين السلوكيين وغيرهم ينحصر في الواقع في هذه النقطة، وهي ان الاولين هم اصحاب طريقة واحدة — طريقة المشاهدة واما الآخرون فانهم يؤمنون بالطريقتين جميعاً

هذا هو جوهر الخلاف بين المدرستين، وهو في الواقع يدل على ان وطسون والسلوكيين من حذفه قومٌ متعصبون ضيقو افق العقل متعسفون لانهم يتعامون عن الحقائق بشكل يجعلهم غير صالحين للانتاج العلمي ويجعلهم حريين بأن يقصوا من حظيرة العلماء الموثوق بهم — يكون هذا شأنهم لعدة اسباب نذكر منها البعض على سبيل التمثيل لا غير

لا يثق وطسون بالموضوع المراد دراسته (الانسان مثلاً) ولا يحب منهُ ان يشرح ما يدور بنفسه زعماً منهُ ان هذه الطريقة هي طريقة ذاتية لا يوثق بها . حسن رضينا واتفقنا — انما نسأل هذا السؤال : — كيف يتسنى لنا اذن ان ندرس الانسان ؟ يقول وطسون شاهد تصرفاته . راقبهُ ودوّن ما ترى فقط . هذه هي الطريقة الموضوعية الموثوق بها ، والتي لا يتسرب اليها شيء من الذاتية (subjectivity) المبنية على الشعور والاحساس، وهذان يخضعان لمؤثرات كثيرة وعوامل مختلفة لا تجعلهما صالحين بحال من الاحوال لبناء الحقائق العلمية عليهما ، واستنباط القواعد العامة التي يصح ان نطبقها في جميع الحالات

وهنا لا يستقيم موقف وطسون مع المنطق والعقل ، لان القارئ يذكر اننا قلنا اننا لا نستطيع ان نتصل بالاشياء الا بواسطة حواسنا . انَّ وصفنا للاشياء هو في الواقع وصف لشعورنا نحن وللاحساسٍ من هذه الاشياء ، وانهُ عندما يتحدث الينا وطسون عن تصرفات انسان معين انما يتحدث الينا عما احسهُ هو نفسه وشعر به وتخيل ان هذا الانسان يفعله ويعمله ، فكأن وطسون يقول لنا « دعوا هذا الانسان وما يحسُّ به ، واصغوا اليَّ انا لاقص عليكم ما احس واشعر به انا عن شعور هذا الانسان واحساسه . وبمعنى آخر لا تثقوا بشعوره واحساسه بما في نفسه ولكن ثقوا بشعوري انا وباحساسي بما يفعله هو » وهذا بالطبع وجه الخطأ لانهُ اذا كانت الطريقة الذاتية خطأً ، فكون خطأً عندما يستعملها وطسون وعندما يستعملها الانسان موضوع البحث على السواء . واما اذا كانت صواباً فتكون كذلك في الحالين ، ويكون اعوز علينا واجدى للعلم نفسه ان نترك الانسان المراد دراسة نفسيته يشرح لنا احساسه وشعوره

هذا من الوجهة الفلسفية ، واما من الوجهة العملية فالصعوبات كثيرة في سبيل نظرية السلوكية . منها ان السلوكيين في مشاهداتهم لا يتوصلون الا الى الامور السطحية الظاهرة ، واما ما كان منها متصلاً بقرارات النفس الداخلية فلا سبيل لهم اليه . هم يرون الحركات والافعال ولكنهم لا يستطيعون ان يتوصلوا الى الدوافع النفسية والنوازع الداخلية التي بعثت هذه الحركات وتلك الافعال . ولكي نزيد هذه النقطة وضوحاً نروي الحادثة الآتية وهي تدور حول هذه النظرية، وليس بطلها احداً سوى وطسون نفسه وماكدوجال اكبر اعداء النظرية السلوكية

حدث أن دعت احدى جمعيات نيويورك وطسون وماكدوجال ليتناظرا في السلوكية ، وكان من الطبيعي ان يدافع وطسون عنها وان يهاجمها ماكدوجال ويبين اخطاءها الملازمة لها . قال ماكدوجال

تصوّر يا سيدي على ان ترفض كل شيء في علم النفس ، وتصر على أن تضع هذا الشيء خارج دائرة هذا العلم ما لم تشاهده بنفسك ، فكل شيء تراه او تشاهده وتقيسه وتتناوله بادواتك العلمية هذا تقبله وتجري تجاربك عليه ، واما ما لا تراه بعينك وما لا يقع تحت حسك فهذا ترفضهُ وتزعم ان لا صلة لهُ البتة بعلم النفس . هذا حسن . فلتقل اذن انك تتناول آلة في يمينك وتغرزها في يدي ثم تشاهد استجابات لهذا المؤثر البغيض وتدوّن هذه المشاهدات . فعند ما تغرزها في يدي اسحب يدي بالطبع وباسرع ما يمكن فتشرع تتحدث عن الارجاع (الافعال المكية reflex action) وتقول هذا الموضوع (اي ماكدوجال) سحب يده بسرعة عند ما وخزته بالابرة ، ثم تجرب هذه العملية في الوف من الايدي — ايدي رجال واطفال وسيدات وبنات وارجل الحيوانات ايضاً — وعند ما تجد ان ليس لهذه القاعدة شذوذاً ، وان كل من وخزت بالابرة يسحب يده بسرعة ، تقول هذه قاعدة علمية عامة لا شذوذ فيها وتشرع تضع هذا القانون العام « كل من وخز بابرة يسحب يده بسرعة » ثم تكتفي بهذا ولا تزيد عليه حرفاً ، واذا قلت لك اني احسست بالم عند ما وخزت يدي بالابرة تقول هذا لا يهمني ولا يقدم او يؤخر في الموضوع ، لان هذا الاحساس الذي تزعم ان تقصه عليَّ لا يمكن ان يدخل في حساب العلم الذي اعمل باسمه ، فهذا العلم في الواقع لا يعتمد على ما تحسه او تشعر به ولا يجب ان يقيم لهُ وزناً ، وكل ما يعنى به هو ما يشاهده من تصرفاتك في حال رؤيتها — ذلك لانهُ علم موضوعي objective ويصر على ان يظل كذلك

تتناقل عن احساسي وشعوري يا سيدي ولا تريد ان تسمع مني حرفاً او تسمح لي بأن اعينك في مهمتك هذه برواية ما قد يكون خفي عنك وما قد يكون من المستحيل ان تشاهده انت او تعرفه من غير ان اخبرك به ، ومع كل ذلك يا سيدي فلتتسع معك ولتقبل ان هذا حسن ايضاً . ولكن ماذا يكون رأيك . فيما لو تركت يدي حيث هي ولم اسحبها ؟ ماذا يكون شأنك وشأن العلم الذي تعمل باسمه لو وخزت يدي فوجدتني اقف جامداً في مكاني مبتسماً لا ابدي حراكاً كأن الامر لا يعنيني ؟ ماذا تكون قيمة مشاهداتك من الوجهة العلمية اذا زعمت ان هذا الموضوع (ماكدوجال ايضاً) لا ينطبق عليه قانونك العام الذي اكتشفته على طريقتك العلمية ؟ ماذا تفعل في هذه الحالة التي هدمت قانونك

العام هذا وذرّته مع الرياح وذهبت بآثاره وقوضت نظريتك من أساسها ؟ لا شيء يا سيدي، لا تستطيع ان تفتح فاك ، وما يبقى عليك الا ان تضرب بهذا القانون عرض الافق، وتسلم مع المتشككين بأنهُ قانون ليس علميًا ولا يوثق به »

والواقع ان وطسون لا يستطيع الا ان يفعل هذا ويطعن هذا القانون في الصميم . لا يجد مندوحة عن هذا سوى ان يسأل الموضوع ويستوضحه الامر ويصغي اليه وهو يفحص عليه احساسه وشعوره ، ويستقبل هذا الاحساس وذاك الشعور على ان لها قيمة حقيقية في الامر وعلى انهما مما لا يستغنى عنهما في علم النفس ، وبعبارة أخرى نجد مرة ثانية ان السلوكية لا يمكنها ان تغفل حساب الطريقة الاخرى — طريقة الاستبطان — لا بل يجب ان تستخدمها وتقبل على استعمالها كما يقبل باقي علماء النفس

وجدنا اذن ان وطسون يستبطن عند ما يصف لنا تصرفات انسان شاهده ، ويستعمل هذه الطريقة لانا لم نشاهد تصرفات الموضوع كما شاهدها وطسون ، فيجب ان نثق بشعور وطسون واحساسه عند ما يقص علينا تصرفات الموضوع . هذا من جهة ، واما من الجهة الاخرى فاننا قد وجدنا ايضاً ان قانون السلوكية الاول والاساسي وهو مراقبة السلوك فقط لا غير — هذا القانون لا يمكن ان يجد سنداً من التجربة والمشاهدة وحدها ، بل يتحتم عليه — لكي يصير قانوناً علميًا موثوقاً به — ان يرتكز على شعور الموضوع المراد دراسته وعلى احساسه ، وانه لا مندوحة لهُ عن ان يصغي للموضوع ويأخذ بكلامه . قبل ان تفعل السلوكية هذا الامر لا يمكن ان يكون لقوانينها القيمة العلمية التي تحب ان تدعيها لنفسها ، والتي تحاول ان تنفيها عن كل طريقة اخرى وخصوصاً طريقة الاستبطان

واذن فالطريقتان لازمتان لعلم النفس على الخصوص وللعلوم الاجتماعية على العموم وكل ما تقول به السلوكية بخلاف هذا هراء في هراء ، ولا يجب ان يقام له وزن في الدوائر العلمية ، لان مصيبة السلوكية انها متعنتة متعسفة لا تستطيع ان ترى وجهي الشيء الواحد في نفس الوقت ، فهي تصر على ان تتعامى عن احد وجهيه ، ثم تريد العالم على ان يتعامى مثلها

وهناك الناحية الفلسفية للنظرية السلوكية ، فقد توسطت في مقالات فلسفية بشكل استجلب عليها النقد المرير وجعل الاساسات التي ترتكز عليها واهية ، لا بل ذهبت في تعسفها الى اكثر من هذا ، واخذت تنكر الدين والعقل والنفس والفلسفة والتاريخ وعلم الاقتصاد الى آخر هذه القائمة

النظرية السلوكية لا تثق بشيء سوى بعلمي الطبيعة والكيمياء ، واما كل شيء آخر ماعدا هذين فهو هراء لا يستحق منها الالتفات

يعقوب فام
استاذ في التربية من جامعة ييل

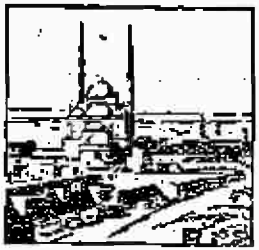

مكانة سوريا في التاريخ العالمي

١ — علاقة سوريا ببلاد العرب . ٢ — علاقة سوريا بآسيا واوربا وافريقيا . ٣ — امل سوريا في الغرب . ٤ — دين سوريا

تمهيد

بين البادية العربية وساحل الشرق المتوسط تمتد قطعة ارض خصبة تتراوح ما بين ٢٠ ميلاً الى ١٠٠ ميل عرضاً وتفصلها سلسلة من الجبال والاودية الى مقاطعات صغيرة حالت دون اتحادها ورضوخها لحكومة او سلطة وطنية واحدة . على ان حدودها الطبيعية — البحر في الغرب وجبال طورس في الشمال والبادية في الشرق والجنوب — تجعلها شيئاً من الوحدة ، وتفصلها عن بقية العالم

ولذلك أُطلق عليها بحق اسمٌ واحد ، هو سوريا . وهي كفلسطين يرجع اسمها الى الاغريق ولكن بطريقة معكوسة . فكما ان Palestina — وهي في الحقيقة Philistina — فلسطينا — كانت بادىء ذي بدء اسماً لجانب من الساحل فقط ومن ثم تطاول في الداخلية الى البادية ، كذلك نجد ان سوريا وهي تحريف اشور كان الاغريق يطلقونها اصلاً على الامبراطورية الاشورية من جبال القفقاس الى المشرق ثم تقلصت الى جانب من الفرات واخيراً اصبحت ضمن الحدود التي وضعناها ، يدعوها العرب « بلاد الشام » او الشمال اذ انها في الحقيقة الطرف الشمالي او الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية العظيمة التي يطلقون على الجهة الجنوبية منها « اليمن » او اليمين . اما الاسم پالستينا (Palestina) الذي يستعمله يوسيفوس نفسه للاشارة فقط الى فلسطيا (Philistia) فكان يستخدمه الاغريق لتمييز ساحل جنوب سوريا او يهوذا عن فينيقية وكيليكية — سوريا . فدعوها پالستينا السورية مستعملين كلمة « السورية » كصفة و« پالستينا » الاسم وحده . واشتق الرومان من ذلك « پالستينا » التي كانت في القرن الثاني مقاطعة واحدة ومن ثم قسمت الى ثلاث ولايات Palestina Prima فلسطين الاولى و Secunda الثانية و Tertia الثالثة . ولا يزال هذا الاسم باقياً يشهد على اصلها في كلمة « جند » العربية — فلسطين

---

(١) الجانب الاكبر من هذا المقال منقول عن كتاب الاستاذ جورج آدمسمث: جغرافية الارض التاريخية
George Adam Smith — The Historical Geography of the Holy Land by Hodder & Stoughton

وهذه الاسماء كلها غربية دخيلة. اما كنعان، اسمها المحلي، العريق في القدم فيرتاب في اصله. فمن الممكن ان يكون جنسيًّا، او جغرافيًّا وهو اكثر احتمالاً، ويعني غوراً او ارضاً وطيئة. ويلوح انهُ في بادىء الامر قد اختصَّ بالساحل الفينيقي لتميزه عن التلال التي فوقه. ولكنهُ من ثمَّ امتد الى المنخفضات الاخرى مثل سهل ساروتة (Sharon) ووادي الاردن، وهكذا الى جميع البلاد قاطبة، سهلاً وجبلاً

ويوسعنا ان نلخص تاريخ سوريا الجغرافي في فقرة واحدة: ان سوريا هي الطرف الشمالي من موطن الساميين — شبه جزيرة العرب — واشد اطرافها خصباً. وهذا الموطن الساعي يمتاز بمركزه الجغرافي المتوسط — بين آسيا وافريقيا وبين الاوقيانوس الهندي والبحر الابيض المتوسط اي اوربا. وعليه فالدور الذي مثله الجنس السامي على مسرح التاريخ كان دور نقل ووساطة. فالساميون كانوا اعظم وسطاء العالم. وفضلاً عن مهارتهم واقدامهم في الحروب فقد تبوأوا المستوى الاعلى في عالي التجارة والدين، وكانوا همزة الوصل بين الشرق والغرب لتوسطهم بين الحضارات القديمة العظيمة التي كان من ثمارها حضارتنا الحديثة. كذلك جعلتهم عبقريتهم السامية واسطة بين الله والانسان فأثبتوا انهم قادة العالم في الدين وبزغت من بين ظهرانيهم الاديان الثلاثة العالمية السامية، فتاريخ سوريا اذن هو نصيبها من هذه الوساطة الدينية من اقدم العصور الى الزمن الحاضر

وبكلمة اخرى اقرب الى الواقع، تقع سوريا بين قارتين، آسيا وأفريقيا. وبين مقرين اوليين للانسانية وادي الفرات والنيل. وبين مركزين كبيرين لنشوء الامبراطوريات — غرب آسيا ومصر ممثلة بذلك العالم الشرقي القديم، والبحر الابيض المتوسط، وهو المنفذ الموصل الى العالم الغربي والحديث. لقد شبهت سوريا بجسر بين آسيا وافريقيا — جسر تقع البادية عند احد طرفيه والبحر عند الطرف الآخر. والحقيقة ان جميع الفتوحات العظيمة في سوريا اذا استثنينا منها فتوحات بني اسرائيل والفتوحات الاسلامية، وقعت من جهتها الشمالية والجنوبية. على ان هذا الاستثناء يبرهن فقط على نقص في هذا التشبيه لا لان فتوحات بني اسرائيل والعرب كانت اعظم الموجات لمدٍّ وجزرٍ مستمرين من المهاجرة التي طغت على سوريا من بلاد العرب فحسب وانما لانها تمثل عبقريتها في الدين التي بتأثيرها في تاريخها فاقت كثيراً تأثير مركزها الجغرافي المتوسط. ليست سوريا جسراً فحسب بين آسيا وافريقيا بل هي ايضاً ملجأ لتلك القبائل التي نزحت من بلاد العرب، فهي لم تكن ممرًّا للحضارات وميدان حرب للامبراطوريات فقط بل مرعًى خصيباً ومدرسة لقبائل صغيرة لا يقع عددها تحت حصر. ولم تكن سوريا قناة مفتوحة للحرب والتجارة فحسب للعالم اجمع وانما مهداً

لنشوء اسمى ديانات العالم . ففي هذا المزيج من الجسر والمرفأ ، والميدان والمقدس ، والمزلة والامل ، الناجم عن طبيعة انقسام سطحها الى جبال وسهول ، يقع سرُّ تاريخ سوريا في الدين الذي رفع شهرتها الى ذروة المجد والفخار . اما من جهة حدودها الغربية فلم يقع اي فتح او اغارة الا .... الامل . حتى ان الامم الاوربية لما طمعت في اكتساح فلسطين لم تدخل جيوشها الى مرافئها حتى اصبح الساحل في حوزتها وتحت مطلق تصرفها . على ان سوريا شعرت ، من اول الامر ، ان مستقبلها يتوقف على هذا الساحل ، ولذلك دفعها هذا الامل الى البحر ، الى جزائر وبابسات تبعد كثيراً عن افقها ، وفعلاً نرى ان ، في الغرب ، تشعبت امبراطوريتها الروحية — وهي تلك الامبراطورية التي تكاد سوريا أن لا تعرف سواها — فادركت المستوى الاعلى من الرقي والتقدم

ويتبين لنا ، مما تقدم ، أن هنالك اربعة عوامل في تاريخ سوريا يحسن بنا ان نعرف شيئاً عنها باختصار وهي — علاقة سوريا ببلاد العرب ، ومنها استمدت سكانها ، ثم مركزها كميدان للكفاح بين آسيا وافريقيا وبين هاتين القارتين واوربا . ثم تأثيرها غرباً ، واخيراً ، دينها

١ — علاقة سوريا ببلاد العرب

رأينا ان سوريا هي الطرف الشمالي من العالم العربي الذي يحدُّه المشرق بجبال طورس ، والفرات بخليج العجم ، والمحيط الهندي ، والبحر الاحمر برزخ السويس . وفي هذه الحدود تماثل وتناسق بل وحدة في الطبيعة . فالارض نجدٌ مرتفعٌ قاحل ، ولكنهُ مطرز بواحات كثيرة الخصب ، يحيط به سطح واطيء اكثرهُ خصيب ايضاً . والسكان ساميون قطعاً ، ذوو عزيمة ماضية ، كثيرو النسل فتضيق بلادهم الجدباء عن اعالتهم لوفرة عددهم . على انهم منقسمون الى قبائل صغيرة دون ايما اصقاع محدودة تختص بها تماماً . وقد نزحت هذه القبائل كلها متحدة كامة واحدة في عصر واحد في تاريخها وذلك في عصر الاسلام لما امتدَّ سلطانها من الهند الى المحيط الاطلسي . وفي ما عدا ذلك من العصور الاخرى كانوا يظعنون من بلادهم القاحلة متجهين نحو الشمال متفرقين أما قبائل منفردة كل منها على حدة او بعض قبائل متحدة معاً . اما المنافذ التي كانوا يعبرون منها فهي اربعة — من باب المندب الى ابيسينيا (الحبشة) ، او من برزخ السويس الى مصر ، او من الفرات الى العراق ، او من الاردن الى غربي سوريا ، ولذلك اصبحت سوريا حوضاً كبيراً تتدفق نحوه الموجات العربية . ومن القبائل التي اكتسحت حدودها كان بعضها يأتي لتمضية فصل الصيف ثم تنكص على عقبها في الخريف ، كالبدويين في عصر جدعون او العشائر المختلفة من المعزة في عصرنا الحاضر . وهناك قبائل اخرى كانت تزحف من اواسط بلاد العرب او من جنوبها ، كبني

جَفْسن مثلاً، وقد هاجروا من اليمن في القرن الاول للميلاد ،فلما اقامهم الرومان حرّاساً على حدود امبراطوريتهم الشرقية اسسوا دولة عظيمة عرفت بالسماوة . وظعنت قبائل اخرى اما لان الارض التي كانت تسكن فيها وتعتمد عليها في ما تحتاج اليه من المواد الغذائية قد ضاقت بها او لانها اضطرت الى الرحيل مرغمة من النيل او وادي الفرات كالسوريين والفلسطينيين وبني اسرائيل

هكذا عمرت سوريا بالسكان . فلا تسطع انوار التاريخ على حدودها الاّ وترى نفس العملية جارية على قدم وساق . ففي يجتاز بنو اسرائيل نهر الاردن، وحين يأتي الديانيون فيخضعونها ، وحين يذهب اليهود في السبي ويأتي الادوميون فيحلون محلهم، وحين تتحد المدن اليونانية العشر Decapolis[1] لتصدّ عنها هجمات العرب ، وحين يعقد الرومان بسياستهم الحائلة ، تحالفاً مع بعض النازحين على ان يكونوا حائلاً منيعاً دون تقدم غيرهم من القبائل العربية التي كانت تجتاح امبراطوريتهم بين آونة واخرى ولاسيما اثناء الفتوحات الاسلامية . هذا واذا القينا نظرة على خارطة فلسطين ،في عصرنا الحاضر ، شاهدنا اجزاء منها تشتمل على اسماء قبائل Beni-Sab و Beni Humâr و Arab Amariu[2] بينما ترى في خارطتها القديمة بني نفتالي B'ne Naphtali وبني يوسف B'ne Joseph وبني يهوذا B'ne Juhudah وعشائر اخرى من بني اسرائيل . وكل هذه القبائل والعشائر قديمة وحديثة ، تنتمي الى الجنس السامي

اما اليوم،فلا ترى قبائل جديدة تظعن من اواسط بلاد العرب او من اية ناحية اخرى فيها لاكتساح سوريا ولكنك تشاهد قبيلة قوية كالرولة مثلاً تتنقل وتتجوّل كل سنة بين الفرات والاردن ، او عشائر صغيرة كثمامرة بادية يهوذا او عدوان مؤآب تعيش قروناً تغتصب خلالها اموال الفلاحين وارزاقهم ثم تتخذ الزراعة بالتدريج مسلكاً لها وتخضع لحكومة البلاد المتحضرة . ويتبين من كل ما ذكرناه امران :

---

(١) ولي نيتنا ان ننشر مقالاً عن هذه المدن نصف فيه احوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية ولا سيما وقد اتاح لنا الحظ ان نقوم بسياحة في اكثرها

(٢) يسوءنا جداً ان نذكر اسماء هذه القبائل كما وردت في كتاب المؤلف على اننا بذلنا قصارى جهدنا حتى توصل الى معرفة اسمائها الحقيقية باللغة العربية — اولاً من بعض رملاء الاردنيين والفلسطينيين وثانياً من بعض اعيانهم وزعمائهم فلم نوفق . على ان البعض ان Beni Sab ربما تشير الى (بني صعب) و(Arab. Amariu) الى عرب النهارنة وذلك للتقارب اللفظي ولكننا لما نثبت من ذلك بعد نظراً لقلة المراجع التي لدينا نحن نشكر لكل من يساعدنا في الوصول الى الحقيقة التي نقصدها جهداً [المترجم]

اولاً : ان اعظم الموجات التي طغت على سوريا من جنس يتألف من قبائل صغيرة مستقلة تناسب طبيعة البلاد ، فسوريا منقسمة الى اقاليم صغيرة تفصلها الصحراوات والجبال كما تفصل جبال الالب بعض مقاطعات سويسرا . فالعشائر التي نزحت زرافات ووحداناً من بلاد العرب قد لاءمت تضاطيع سوريا واجزاءها الطبيعية فكأنما سوريا كانت قبائلية بشكلها وطبيعة سكانها . وقد كان هذا العامل من جهة ، وكون سوريا تقع بين اجناس اخرى تناصبها العداء ، من جهة اخرى ، سبباً فعالاً حال دون تأسيسها امبراطورية سياسية

ثانياً — لقد كان سكان سوريا ساميين اصلاً ولا يزالون . ثم هنالك بعض انحاء قدمت اليها شعوب كثيرة مختلفة كالفلسطينيين والحثيين في العصور القديمة ، ثم جاء من بعدهم اليونان بكثرة ثم الصليبيون ، فيونان وأتراك وفرنجة واكراد . وثمة بعض مستعمرات شركسية الى يومنا الحاضر ، ولكنهم لم يؤثروا تأثيراً فعالاً في السكان مطلقاً . فالاورومة سامية . واذا كان ثمة من مزاحم او منافس للسامي ، فذلك هو اليوناني ، ولكن اليونان كانوا يقيمون في المدن حيث تربي نسبة الوفيات على نسبة المواليد ، ولو لم يزدد عددهم بما كان يفد اليهم من الخارج لتلاشوا ولما استطاعوا ان يحافظوا على صبغتهم الخاصة امام العرب او السوريين

٢ — علاقة سوريا بالقارات الثلاث

لما نزحت القبائل العربية من البادية الى سوريا وجدت نفسها على اتصال بآسيا وافريقيا من جهة ، وباوربا عن طريق البحر الابيض المتوسط ، من جهة اخرى ، فلم يكن في وسعها الا ان تطرح بنفسها في هذا الميدان وتشترك في التجارة العالمية . نعم لقد حال ذلك دون تأسيسها امبراطورية سياسية متحدة ولكن اثبتت للعالم قابلية عبقريتها السامية التي اكتسبتها من عزلتها الطويلة في البادية

ان موقع سوريا بين اعرق مهدين للجنس البشري في القدم جعلها ممراً للمواصلات وتبادل الثقافة والحضارة ، وليس ثمة من طريق في العالم طراً اقدم من الطريق الذي لاتزال تستعمله القوافل في سيرها من الفرات الى النيل ، مارة بدمشق والجليل ومرج بن عامر والسهل الفلسطيني وغزة . ويُشَكُّ في هل كان بوسع التاريخ ذكر حملات عظيمة — تميزاً عن الحروب القبائلية — اقدم من تلك التي نشبت بين اشور ومصر في سوريا حتى القرن السادس قبل الميلاد . وقد اكتسحت هذه البلاد امم اخرى لامت الى الساميين بأي صلة من القرابة من آسيا وافريقيا . فالحثيون تقدموا من جنوب آسيا الصغرى واجتازوا

جبال طورس وكذلك انقض عليها الاثيوبيون بعد ان دان لسلطانهم وادي النيل[١] وحوالي خاتمة النزاع بين اشور ومصر اكتسح السكيثيون سوريا من شمال القفقاس واعملوا فيها ايدي الخراب والتدمير[٢] ولما تداعت اركان الامبراطورية الاشورية ضمها الفرس الى امبراطوريتهم وتقدموا منها الى مصر. وبافتتاح عصر الميلاد حمل عليهم البارثيون ٤٠ ق.م. واعاد الفرس كرتهم عليها ٦١٢—٦١٦ ب.م. في عهد خسرو الثاني قبل الفتوحات الاسلامية في القرن السابع للميلاد بمدة يسيرة وسقطت غنيمة باردة في يد الاتراك السلجوقيين في القرن الحادي عشر ١٠٧٠—١٠٨٥ وفي القرنين الثالث والرابع عشر اكتسحها المغول ثلاث مرات[٣]

والفت اوربا نفسها مندفعة اليها في زمن الاسكندر الكبير، فكانت سوريا ممراً للاسكندر في زحفه الى مصر ٣٣٢ ق. م. ثم شاهدت نفسها مسرحاً لحروب السلوقيين والبطالسة في القرون التالية نزعت في سهولها بذور حضارتهم الاغريقية. واخضعها بومباي قيد الامبراطورية الرومانية ٦٥ ق.م. حتى افتتحها العرب ٦٣٤ ب.م. وبقيت في حوزة الصليبيين ما يقرب من القرن ١٠٩٨ — ١١٨٧ وبعض اجزائها، قرناً آخر ولم يأت اليها الصليبيون كثيرهم من الغزاة الفاتحين لانها كانت طريقاً لقطر آخر بل لانها كانت في نظرهم مجتمعاً لجميع المنافذ والجهات الاخرى. ثم جعلها نابليون الكبير ممراً لادراك مطامعه في تأسيس دعائم امبراطورية على الفرات والسند، وبتّ في مصير هذه الفكرة في سهولها ١٧٩٩

ومن ذلك الحين، كان تاريخ سوريا عبارة عن محاولات متفرقة بين آونة واخرى من قبل العالم الغربي لفرض حضارته الجديدة ونشر دينها القديم

* * *

فسوريا بلادٌ كثيراً ما يعيد التاريخ فيها نفسه. ولئن كنا نومن ان التاريخ لا يعيد نفسه دون ايما تعليل، فسنرى قيمة هذه الفتوحات والحملات من آسيا وافريقيا واوربا في اماطة اللثام عن سر ذلك الجزء من التاريخ السوري الذي نفشده (لها بقية)

الصلت (شرق الاردن) احمد بديع المقربي

---

(١) اخبار الايام الثاني، صح ١٤ : ٩ (٢) وقد اشير الى ذلك في ارميا صح ١٤:١٤ الخ قابل مع هيرودوتس ١ : ١٠٥ الخ (٣) في سنة ١٢٤٠ عقد السوريون والصليبيون بينهما تحالفاً ضد هجمات الخوارزميين، وهاجمها المغول مرة ثانية ١٢٦٠؛ ومرة ثالثة في ١٤٠٠ تحت قيادة تيمور وحلوا منهم اعيان دمشق ومفكريها وغيرهم من المدن الاخرى الى سمرقند

التاريخ المركّب

واذ نحن عائدون الى البيت قال فيليب : لقد اصاب الشيخ. فان كل هذه النظريات في التاريخ لا قيمة لها اذا أخذت فرادى. وانما تُعقل مجتمعة. لقد تمت من التحليل، وتُقدّتْ الى التركيب

دورانت : ان أعقل ما قيل الليلة هو ما اورده ڤولتير . وهو : يجب ان يكتب التاريخ باقلام الفلاسفة ، لانهم يرون الاشياء في مجموعها . هذه هي خلاصة القول

اريل : ولكنك نسيت سعة ميدان التاريخ فليس ثمة أحد يستطيع ان يعيش ليراه كلّهُ ولو كان من الباثين

دورانت : هذا صحيح . فيلزمنا اخصائيون ، عدُّون الفلاسفة بالمادة التاريخية ، كما عدوهم بالمادة العلمية. وفي كلا الحالين يفضي بنا الامر الى الاضطراب الهدّام، اذا لم تضمّ الوحدة أشتات المعارف . ويجب ان تكون الفلسفة للتاريخ ما تكونه للعلم ، اي تنظيم المعارف وتنسيقها

سرنا مسافة ساكرى بحسرة الآلهة والنجوم . واخيراً قطع فيليب سكوتنا بقوله : —

اتدرون ان في هذا البحث الماعاً الى النسق الجديد الذي يجب ان يكتب به التاريخ . فقد جرت العادة على انهُ اذا كتب الانسان تاريخ اليونان مثلاً فانهُ يعنى بتاريخ حياتهم السياسية — او على الاكثر بتاريخ حياتهم الاقتصادية والسياسية — ثم يكتب مؤرخ آخر حياة اليونان الصناعية والتجارية ناظراً فيها نظرة اقتصادية « كزمرن » وينفحنا غيره بتاريخ الديانة اليونانية وآخر بتاريخ الفلسفة اليونانية ، او الآداب اليونانية . وينتظر منا ، نحن الطلاب، ان نجمع هذه الشذرات معاً ، لنؤلف من مجموعها صورة تامّة للحياة اليونانية المركبة . فعلينا أن نعمل ما كاد يحسب عملاً متعذراً ، حتى على مؤرخ كبير. ففي هذه التواريخ تقسّم حياة الامة الى قطع وتفصل كل قطعة منها عن اخواتها فصلاً مصطنعاً . فندرسها درساً مدققاً باعتبار اقسامها ، ملاحظين علاقاتها الزمنية (اي تتابعها) ، معرضين عن روابط التأثير المتبادل بينها ، تراعاً احياناً وتعاوناً احياناً اخرى . انها والله طريقة عجيبة لوصف الماضي !

اريل : هذا تاريخ ممزّق الاوصال

دورانت : ليس للفلاسفة جرأة في عصرنا هذا . فتراهم يختارون اعمالاً تافهة — فيبحثون مثلاً هل ما عناه افلاطون هو (ب) او (ج)؟ وهل الشمس في قبة الفلك او في عقولنا

وهل البرتقالة صفراء في النسق او غير صفراء ؟ واظن انهم يخشون ان ينظروا في شؤون الكون منذ ما فرضت عليهم الكنيسة ما يفكرون به

فيلب : وعندي رأي آخر . وهو ان التاريخ كما يكتب الآن كثير الاقسام . فتأخذ انت فرعاً منهُ كالسياسة ، او الفلسفة ، او العلم . وتتأثر تطوُّرهُ ونموهُ مدى عهد طويل. ولندعُ ذلك تأريخاً ممزقاً ، كما قالت اريل . فلماذا لا نضيف الى ذلك (وقد سلمنا بلزوم هذا الدرس الخاص) نوعاً من التقسيم التاريخي ؟ فيختار الانسان قرناً واحداً ، او جيلاً واحداً ، فقط ، كعصر بركليس او عصر فولتير . ويتقيَّد به . ثم يشرع يكتب تاريخ كل احوال الامة في ذلك العصر من وجوهها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والعلمية والفلسفية والدينية والادبية والخلقية والروائية والفنية ؟ ومن مصائبنا اننا متأثرون بفكرة النشوء تأثراً كبيراً . فنفكر في كل شيء كأنهُ تيار مستمرٌّ . فيه الحوادثُ تسبب الحوادث التابعة لها وتتصل بها . فنزعم ، مثلاً ، ان فلسفة افلاطون سليلة فلسفة سقراط ، وان فلسفة ارسطو نتاج فلسفة افلاطون ، وان فلسفة سبينوزا سببها عن فلسفة ديكارت . على ان هنالك نوعاً آخر من السببيَّة . فليست الحوادث نتيجة احوال سلفت فقط ، في ميدانها الخاص ، بل هي ايضاً نتيجة الاحوال المحيطة بها ، في ميادين اخرى . فقد تكون فلسفة افلاطون متأثرة بآراء سقراط اقلّ من تأثرها بالتقدُّم السياسي والاقتصادي في عصر افلاطون — اي بالاحاديث التي سمعها في السوق وفي الملاعب او بالانصاب التي شاهدها في الهياكل والساحات. وقد يكون ارسطو طاليس مقتبساً فكره عن اصدقائهِ المكدونيين اكثر من اقتباسهِ اياهُ عن اساتذه في الاكاديميا

اريل : حسن جدًّا يا فيلب لقد اجدت

فيلب : لا تهزأي بي يا اريل ، فاني اود ان ارى التاريخ يكتب بجملهِ ، اريد ان ارى جهود الرجال والنساء في العصر الواحد محبوكة معاً تؤلف وحدة وتبين ارتباط تلك الجهود بعضها ببعض ، وبوجوه تفاعلها المتبادل . اريد ان ارى الماضي ممثلاً كما هو — كتلة واحدة . خذ بي عصر نابليون ، وانظري كيف تتوقف احواله السياسية كل التوقف على احواله الاقتصادية وكيف حكم على مصير حروب نابليون بالذهب الانكليزي وكيف كان روشيلد كامناً وراء ولنقتن وكيف صوَّرت الآداب حوادث العصر الدينية والسياسية ، كما في كتابات شيلي وبيرون وشاتوبريان ، وكيف اتخذت الموسيقى الآن سمة بطولية وغرامية ، وكيف صوَّر « بتوفن » في ألحانهِ نزعات الثورة وعظمة نابليون تصويراً محسوساً . فقد كان العصر كله واحداً في فرنسا بل وفي كل اوربا غرب روسيا . فأنا اروم تاريخاً للملل العصر

الماضي مترابط الاقسام كما كانت في حينها

اريل : انك تطلب امراً عظيماً . وهذا متعذر

دورانت : قد يكون ذلك متعذراً . ولكن الا ترون انهُ قد يمكن درس كل موضوع في عصر واحد، كما يمكن درس موضوع واحد في كل العصور. ويجب ان تكون كتابة التاريخ لعصر فولتير ممكنة كما كتب جبون قيام الامبراطورية الرومانية وسقوطها او كما كتب «جيروت» تاريخ اليونان او كما كتب فولتير «ملخص في الاخلاق». وقد عمل سيمندز ، بعض ما تطلبهُ يا فيليب لما كتب سبع مجلدات في « تاريخ عصر الإحياء» Renaissance

فيليب : نعم وهو كتاب نفيس وانا اروم ان يؤرخ كل عصر على هذا النسق . واذا كان لنا تآليف من هذا الطراز ازداد فهمنا للتاريخ واصبحنا رجالاً اقرب الى الكمال . بالجويد وليوناردو وارسطو — آلهة النظر الشامل

اريل : ولماذا لا تكتب تاريخاً كهذا يا فيليب . النسق هو كل شيء. فاكتب اذا امكنك

فيليب : احب ان اكتب تاريخ القرن التاسع عشر على هذا الاسلوب حاصراً بحثي في اوربا لامكن من تحقيق بعض غرضي. وحتى هذا كثير في مدى حياة رجل واحد. قد يمكننا نحن الثلاثة انجازه معاً . افتساعدينا في ذلك يا اريل ؟ تأملي في ذلك القرن اية رواية هو ؟ انها في اربعة فصول . اولها : عصر نابليون . وثانيها : العصر الرومانتيكي . وثالثها : العصر الواقعي. والرابع : عصر النزعة الامبراطورية وما يتصل بها جميعاً من اعلام الموسيقيين والمصورين والكتاب والشعراء والنقاد والفلاسفة والعلماء والمستنبطين . ورجال السياسة والحرب . وما تنطوي عليه من تحوُّل في نظريات العلم ومذاهب الفلسفة والاجتماع وطرائق التعليم واساليب الحكم ووسائل المعيشة والصناعة : حبذا الحال لو يجمع كل ذلك معاً في صورة واحدة نابضة بالحياة — حياة اوربا اليقظة القلقة المتقدة في خلال القرن التاسع عشر

اريل : فلنقم بالعمل. انا اكتب ما يختص بالشخصيات النسائية فمتى نبتدىء ؟

فيليب : غداً نرى

اريل : ولكن ثمة امر واحد تركني غير راضية يتعلق برؤيتنا الاحياء هذه الليلة . فهم لم يقولوا لنا هل في التاريخ ارتقاء او هل نقدر ان نتكهن بمصير العمران في المستقبل

فيليب : لعلنا نراهم ثانية

بتصرُّف زهيد مصر حنا خباز

المواد المخدرة تفتك بأمة

للاكتور عبد الوهاب عمود

—٢—

حالة المدمن الصحية والعقلية

اتينا في ختام المقالة الاولى على اختلاف نظر الباحثين في ادمان المواد المخدرة وطبيعته والنظريات المتعددة الخاصة بالادمان والتعلق والمنع مما ادّى الى الاختلاف في الاحوال الآتية: (١) التغيرات المرضية التي تحدث اثناء الادمان (٢) العوارض (٣) العلاج وطرقه المختلفة (٤) العلاج الوقائي والتشريعي (٥) الانذار

﴿ التغيرات المرضية ﴾ ان التغيرات المرضية التي تنشأ من ادمان المخدرات قلما تقع تحت نظر الطبيب كحالة قائمة بذاتها وقد لا يكون الطبيب المعالج على علم بادمان مريضه اذا كانت المناعة قوية والمقادير قليلة ولكن اذا زادت المقادير التي يأخذها المدمن وطال به الادمان الى اكثر من شهرين او ثلاثة ظهرت التغيرات المرضية وتحوّلت من سيء الى اسوأ وقد تكون نتيجة مباشرة للمخدرات نفسها او غير مباشرة كنتيجة للامراض الاخرى التي تصحب الادمان . والى القارىء اهم هذه التغيرات

﴿ الحالة العقلية ﴾ اهم ما يشاهد في مرضى المخدرات انّ الحالة العقلية غير طبيعية وان هناك انحطاطاً فيها وقد ذكر هاحضرة مدير قسم الامراض العقلية في تقريره السنوي الاخير فقال انهُ يعتقد ان هناك عدداً قليلاً من الاشخاص العاديين الطبيعيين يتناولون المخدرات الى درجة الاخلال بحالتهم العقلية . وان مجموع مدمني المخدرات يكون من ضعاف العقول والمنحطين والمجانين وان ادمانهم المخدرات راجع الى ضعف في قوة الارادة بحيث لا يمكن ان يرفضوا تعاطيها مع صحة السوء او بذل مجهود داخلي لاصلاح مايشعرون به من انحطاط

وقال ايضاً « ان ادمان المخدرات يحدث انحطاطاً خلقيًّا شديداً ويكون عاملاً من عوامل الامراض العقلية في الاجيال القادمة وانهُ دليل على عدم توازن الكفاءات العقلية

وقال: « ان المخدرات لا تحدث سروراً في الاشخاص العاديين الاّ نادراً اذا كان تعاطيها منشأ لالم . اما من كان عندهم نقص في القوى العقلية فالمخدرات تعطي لهم لذة ايجابية تتوقف درجتها على درجة النقص الموجود »

﴿ الكلى ﴾ الكلى من اكثر الاعضاء نشاطاً وعملاً وهي كذلك اشدها احساساً

واكثرها قابلية للتأثر بالسموم — ففي الادمان تتأثر الخلايا الجلومورية بالسموم وتصبح غير قادرة على اداء عملها ومن هنا ينشأ امتصاص ثان للمفرزات السامة الواجب تخلص الجسم منها — فيكون هناك مصدران للتسمم الدوري : مصدر ذاتي ومصدر السم الدخيل ولذلك تتولد الاعراض من التهابات بسيطة بالكلى الى التهابات تقيحية جسيمة

(الكبد) : ان الكبد وهي حيوية للانسان والحيوان تتأثر اشد التأثر بسموم المخدرات وليست هناك مبالغة في قول احد الاطباء : « قد يمكن تعويد المخ على سموم المخدرات وقد يمكن تعويد اعضاء اخرى ولكن الكبد وهي العضو المهم في فرز السموم واستهلاكها تهلكها المخدرات والكحول» . وينشأ فيها من الادمان (١) بطء العمل التركيبي للخلايا بسبب بطء التأكسد (٢) نشاط في العمل الشحمي (٣) انحلال في خلايا الكبد واكثرها تلفاً هي المختصة بمقاومة السموم — وبذلك يقل عمل الكبد ويضعف نشاطها في افراز السموم

(القلب) : التغيرات التي وجدت هي التشحم وهو اكثرها حدوثاً فالانحلال فالتمدد مع تضخم النصف الايمن وترجع هذه التغيرات الى (١) اثر المخدر في عصب القلب (٢) اثر المخدر في عضلة القلب (٣) أثر المخدر غير المباشر في تغذية القلب بنقص في التغذية العامة

(الرئتان) : مرضى المخدرات من اكثر المرضى قابلية للامراض الصدرية لتأثير المخدرات السيء في مركز التنفس وفي الدورة الدموية وفي تغذية الجسم العامة

فالمخدرات تجعل من المدمنين مرتعاً خصباً للامراض الصدرية . فالسل الكامن يتطور بسرعة الى سل ناشيء حاد والنزلات الشعبية تصبح كثيرة ويكفي ان نذكر ان كل حالات السل التي وجدت في مستشفى سجن مصر في سنة ١٩١٩ كان منشؤها ادمان المخدرات

(الجهاز التناسلي) : في الاسئلة الكثيرة التي وجهت الى المدمنين كانت اجابة الكثيرين منهم عن سبب التعاطي انهم يعتقدون ان المخدرات تزيد في النشاط الجنسي — اما الحقيقة الرهيبة التي يصلون اليها بعد ذلك فهي الخمول التام الذي يصل بهم احياناً الى حد العنانة والعقم

فالمخدرات تحدث تنبهاً اولياً في الجهاز التناسلي والرغبة التناسلية او تحدث اطالة في مدة العمل الجنسي وتكون نتيجة ذلك اجهاد للقلب وللمجموع العصبي والجهاز التناسلي اجهاداً لا تتحمله فيعقب هذا المجهود دور الخمول

ففي النساء يقل الطمث وافراز الثديين ويضعف عمل المبيض وفي الرجال يحدث المخدر انحلالاً دهنياً او تشحماً بالبيضتين وضيقاً بالقنوات المنوية مع تضخم بها

ويحدث في مركز التناسل بالمخ تصلباً ينتج ضعفاً في الرغبة الجنسية وضعفاً في العمل التناسلي كما يفقد القدرة على توليد الاجسام المنوية

وفي كلا الجنسين تكون الحالة العقلية غير طبيعية وينسب بعض علماء علم النفس هذه التغيرات الجنسية الشاذة الى شذوذ الحالة العقلية التي يكون عليها المدمن

(النسل) : ان نسل مرضى المخدرات يكون عرضة للاضطرابات العقلية والعصبية فضلاً عن كونه يولد في حالة ضعف جسمي ويكون عرضة للامراض القلبية والصدرية خلال ايام الطفولة . واكثرهم يموتون ضحية آبائهم الظالمين

(العوارض) كان من رأي كثير من الاطباء ان درجة الاعراض وشدتها في احوال الادمان لا تتوقف على مقدار المخدر ولا على مدة الادمان بل تتوقف دائماً على مناعة الاشخاص المدمنين ومقدار تحملهم للسموم . وقد رأى البعض ان شدة الاعراض تتوقف على عوامل كثيرة اخرى علاوة على كونها مسببة عن كثرة المقادير ونوع المناعة التي توجد عند المدمن فذكروا الاعتبارات الآتية : سن المدمن وحالته الصحية قبل الادمان والوظيفة او العمل الذي يزاوله وحالته الاجتماعية والمالية

واذن فلا غرابة اذا وجدنا اختلافاً كبيراً في الاعراض لان الادوار التي يجتازها المدمن في اثناء الادمان تختلف مدتها طولاً وقصراً بحسب المقادير التي يأخذها وحالة المناعة التي يتصف بها كما ذكرنا اولاً

الدور الاول — ونسميه شهر عسل الادمان ويمكث من شهرين الى ثلاثة اشهر حيث لا يشعر المريض بتغير في حالته الصحية

الدور الثاني — وهو دور التردد وفيه يفيق المدمن من غفلته ويعود اليه رشده ويرى عواقب عمله وما سوف يجرُّه الادمان من البلايا والمصاعب فيقلل مقدار ما يأخذه ويجتهد في ان يمتنع عن المخدر بتاتاً . في هذه الحالة قد ينجح المدمن وينجو او يقع فريسة للمخدر. وهذا الدور قصير العمر لا يتجاوز شهراً

الدور الثالث — وهو دور الولع وفيه يطبع المخدر طابعه على كل الاعضاء الحيوية في الجسم ويصبح صاحب السلطان المطلق على الفريسة المسكينة . وهذا الدور لا يمكن تحديد زمنه فهو متصل بالدور الرابع

الدور الرابع — وهو دور الهزال وفيه تظهر الاعراض في اسوإ مظاهرها كما تزيد الاعراض النفسية هبوطاً الى اسفل الدرجات ويقترف المدمن الموبقات والدنايا فيرتكب السرقة في اشد ضروبها والتزوير والخديعة ويرى في الاباحة وسيلة مشروعة لاجتلاب المال ثمناً للمخدر

والمدمن — في هذه الادوار — يجتاز سلسلة طويلة من الامراض وتنتابه الاعراض المختلفة حتى ينتهي امره اما الى (الشفاء) ان وجد اليه سبيلاً واما الى (الفناء)

ان مصر تخسر ٢٠ الفاً من ابنائها سنويا واعمارهم تتراوح من عشرين الى ثلاثين سنة تقريباً يذهبون كلهم ضحايا ادمان المخدرات والمخدرات الاخرى

وأقسى الاعراض واشدها تظهر عند ادمان الهروين وهو العدو الشديد الخطر الذي تجب محاربته والتغلب عليه . ويطول ذكر هذه الاعراض المتعددة فنقتصر على بيان المهم منها

ففي اوائل الادمان وبعد اشهر قليلة منهُ ترى نقص الشهية للاكل بين المدمنين ويتبع ذلك نحول وضعف ويفقد الجلد مرونتهُ ولونهُ السابق ويذوب الشحم ويشعر المريض بجفاف الفم والحلق وينقص في ادرار البول وحرارة الجسم وافراز غدد العرق وضعف في احساس الجسم . ويشعر المريض بضيق في التنفس وبصاب بتغير شعبي شديد قد يتحول الى حالة نوعية حادة فاذا ما توسط دور الادمان او طال امره وجدنا ان العين تفقد لمعانها وبريقها وتظهر على المدمن سيماء البؤس والضيق والحيرة ويصبح وجههُ ذابلاً شاحباً تعلوه زرقة داكنة ويفقد الرغبة الجنسية ويزول منهُ نشاط الجهاز التناسلي . ويرى في المدمنين اضطراب القلب وخفقانه وضعف الدورة الدموية مع نقص كمية الهيموجلوبين وارتفاع ضغط الدم مع نقص الحركة الانعكاسية لمفصلي الركبة او انعدامها . والمدمن من هذا وذاك يكون في حالة ارق مستمر مؤلم وينقص وزنهُ ويهزل جسمهُ وتزيد اعراض الجهاز الهضمي سوءاً

ولا ننسى ان نذكر ما يكون عليهِ المدمن من سوء الخلق من تعود الكذب والسرقة والنصب والاحتيال وما فيهِ من خوف وفزع وجبن وما يفتقده من عدم العناية والترتيب والنظام ومن ضعف الذاكرة والارادة وقوة الانتباه واليقظة وأهم ما يحرص عليهِ المدمن ان يدخر بعض النقود لضمان شراء المخدر بحالة منظمة ويغلب عليهِ ايضاً ان يصدق المواعيد التي يعطيها لتجار المخدرات تسديداً لديونه وهذه هي الحلقة الوحيدة والبقية الباقية فيهِ من اثر النظام والتعقل

﴿ طرق العلاج ﴾ عند ما انتشر ادمان المخدرات وخصوصاً لما تكب الكثيرون من الناس في الامم المختلفة بالهروين شعر الاطباء بخطورة الموقف وحرج الحالة لشدة ارتباط هذا الادمان بحياة الامم وهناء الاسر وسعادة الافراد واصبح الادمان ومعالجتهُ موضع بحث واستقصاء في الممالك المختلفة وقامت الحكومات تقدم شتى الوسائل والمساعدات لاهل البحث من العلماء والاطباء ونشطت الدوائر الطبية وتبرع اهل الخير من الاغنياء بالمال لايجاد المصحات ووسائط العلاج الاخرى للمنكوبين من الفقراء . على ان اختلاف الاعراض المرضية والاختلاف في اسبابها وفي طبيعة الادمان وسببه ادّى الى اختلاف وجهات النظر ايضاً في طرق العلاج المختلفة كما ادّى الى اتباع طرق مختلفة في العلاج الواحد بالنسبة للفرد الواحد — وتفصيل هذا هو ما سوف نشير اليهِ في تتمة هذا المقال في الجزء التالي ان شاء الله

اقرأ الجزء الاول في العدد الماضي من :

عطام

قصة ناقد هبط بر عبه من الزرونة الى الحضيض

تتمة القصة

لم اهتم بها ولكنني اهتممت بشيء آخر يدور حولها. ذلك ان الشائعات ذاعت في باريس بأن فيلكس برج — ابا لوسيان — اخذ يعدُّ رواية خاصة بابنه وكتبه. وهذه الشائعة اذا صحت لها شأن كبير . لان فيلكس كان حتى الساعة مقتنعاً بشهرته كمثل تراجيدي. ولم يحاول من قبل ان يكتب رواية تمثيلية . فقد كان في ذلك يختلف اختلافاً كبيراً عن ابنه الذي كان يؤلف معظم رواياته

ولم يطل المطال حتى اعلن رسميًّا بأن رواية فيلكس برج قد اوفت على التمام وان ابنهُ وكتبهُ سيخرجانها حتى انتهى فصل الرواية « لماذا تبكي » . وفصل هذه الرواية لم ينته قبل ربيع السنة التالية. ولكننا في اثناء ذلك سمعنا كثيراً عن مواطن الضعف في الرواية الجديدة. لان امثال هذه الاقوال تذيع ذيوعاً سريعاً

واذ استعيد ذكريات تلك الايام يدهشني حكم لوسيان برج على رواية ابيه . وكيف قبل ان يمثلها . ولكنني اعزو ذلك الى حبِّه الاعمى لابيه واعجابه به. ولا ارى تعليلاً آخر يفي بذلك غير هذا

اني اتصور ذلك الشيخ الجليل الممثل التراجيدي المبدع، جالساً في مكتبه مكبًّا على كتابة رواية تمثيلية خالية من شرارة الوحي. هو جالس يكتب ويمحو ثم يعيد الكتابة واذ يوفق الى عبارة رشيقة يصير لها طرباً ويطيل فيها نظره تصويباً وتصعيداً ثم يعيدها بنطقه الرنان ونبراته الفخمة ويفرح في نفسه لا بد من ان تفوز باعجاب ابني

وها قد تمت الرواية — معان مبتذلة في قصة مبتذلة في اسلوب كله تقليد وابتذال . ولكن الرجل يراها معجزة الفن التمثيلي . فيدعو ابنهُ وكتبهُ ليتناولا طعام العشاء معهُ وبعد ذلك يقرأ لهم هذه الآية

أتستطيع ان تتصور المشهد. أتستطيع ان تتصور ذلك الشيخ المزهوّ بباقي عبارات روايته

العادية بذلك الصوت الفخم الرنان ، والنطق الفصيح الجلي المأثورين عن ممثلي الكوميدي فرنسيز. ثم استطيع ان تصور ابنهُ لوسيان اكمل الممثلين المعاصرين واذكاهم واعمقهم ادراكاً لاصول الفن الكل واصوبهم حكماً ، جالساً هناك يصغي الى والده وكأنهُ في نشوة من سحر الكلام . انهُ يعبد اباه ولذلك يرى ان اباه معصوم . ثم يقف اذ تنتهي الرواية ويلثم عارضي والده ويصرح بأنها آية من الآيات. ويلتفت الى روكسان الذاهلة ويقول لها كأنهُ على المسرح «لقد اتيح لنا أن نصغي الى اول كوميديا فرنسية كتبت بعد ما كتب موليير روايتهُ «تارتيف». فتعاظم برج الاب وقال « ومن هو موليير ؟ »

اما روكسان المسكينة فظنت انها حالمة. وكانت تحترم عقلها احتراماً مكّنها من الحكم على رواية برج بأنها استحقت ان تحتقر. لم يعجبها حبها لفيلكس برج وكانت تجل زوجها لوسيان فلم تدر اهو صادق فيما يقول اوهو يتظاهر بالاعجاب لكي لا يفطر قلب الوالد المسكين ورجحت الامر الثاني فأقبلت هي ايضاً على المؤلف تمدحهُ وتضمهُ في طبقة خاصة فوق موليير

فلما انقضت عبارات الاطراء والثناء اخذ الثلاثة ينظرون في اختيار الممثلين الاكفاء للرواية لكي تكون اعظم رواية مثلت في التاريخ من كل الوجوه

هذا ما حدث على ما علمت بعدئذ . واذا نظرتَ اليهِ بعيون روكسان رأيتهُ مأزقاً ما بعدهُ مأزق. فقد تحققتْ بعدئذ ان زوجها كان مخلصاً في اعجابهِ برواية ابيهِ واطرائهِ لها . عرفتهُ عاقداً نيتهُ على اخراجها ورأت بنظرها الثاقب ان الرواية تفضي الى الخيبة المؤكدة — بل الى ما هو دون الخيبة ، الى السخرية والازدراء ! . وجمعت جرأتها مرة او مرتين محاولة ان تبين في ادب جمّ أن في الامكان اصلاح الرواية في بعض المواقع. ولكن جواب زوجها كان قاطعاً كالنصل : « لا بدَّ من تمثيلها كما هي . ومن يعبث بمعجزة »

فغلبت على امرها . واختير الممثلون وبدأ دور التمرين. وأخذت تتسرب انباء الرواية الى الخارج . وهنا توقف هيرتو قليلاً ليستنجد بزجاجة الكونياك واستأنف قصتهُ قائلاً

كان ميعاد افتتاح الرواية في اكتوبر — ١٢ اكتوبر على الضبط . واني اتذكر هذا التاريخ لانهُ كان يوم موتي. ولم اكن الميت الوحيد في تلك الايام . ففي ٩ اكتوبر — وكان يوم جمعة — توفي استاذي ورئيسي كولان مارتل عن الاتقاد . وذهب هو الى الناقد الاكبر لتكون حياتهُ موضوع نقد. واملي ان تكون رواية حياتهِ قد صادفت استحساناً هناك لانها كانت جديرة بذلك

وطبقاً لما كنت اتوقع عيني مدير جريدة الاكليرور خلفاً صلفي المنظم . وكان ذلك من حسن الكثرة ما بذلت في استحقاقهِ من السهر والدرس والتعب . ومما قالهُ لي المدير : «انك

شاب يا هيرتو ومتحمس. ولكن اذكر ان جريدة الاكليرور ليست حديثة السن. وإنها تدفع قط في نقد الروايات العادية الى فوق ما تستحقهُ من الاطراء والتمجيد. فكن كريماً يا ابني ولكن لا تضيع مدائحك الغالية جزافاً على الروايات المتوسطة

شكرت له نصيحتهُ ووعدت نفسي بالمحافظة على خطة الصحيفة وهي الخطة الوحيدة التي يرضى بها الادب العالي والخلق الكريم. ولكن من اين لي علم الايام واني قبل انقضاء يومين سوف احنث بوعدي حنث روبة وتدبُّر

قلت لك ان كولان مارتل مات يوم الجمعة. ولكني لم اقل لك ان الشائعات شاعت يوم السبت بأن فليكس برج (الاب) كان في النزع. وان الاطباء قالوا ان الموت لن يمهلهُ اكثر من يوم او يومين: وكان المقرَّر ان تكون ليلة الافتتاح لتمثيل روايته مساء الاثنين. فجعل الناس يتساءلون: ترى هل يعيش ليرى ولادتها

وكان قد اكثر من التحدث عن الرواية لاصدقائهِ وانهُ يحسبها آيتهُ الكبرى في حياته الحافلة بالآيات. على ان اعجابهُ بنفسهِ كان لا يحدُّ. فكان هذا الاعجاب مثيراً اعطف الاصدقاء لانهُ كان مبنيًّا على غير اساس، ولان برج كان في اخريات ايامه عليلاً معنى ودماغهُ دماغ شيخ عليل. وكانت انباء مرضهِ ونزعهِ في مقدمة انباء الصحف المسرحية فتتبعناها باهتمام يومي السبت والاحد. فاذا هو يكافح الضعف بعزيمة لا تُفَلُّ لانهُ لابدَّ لهُ من مشاهدة انتصار الرواية ولو من سرير الموت

***

وكنت بعد ظهر يوم الاثنين في داري اتصفح رواية لفتى ناشئ يدعى روستان اذ قرع جرس بابي قرعاً عنيفاً. ولما كان خادمي قد خرج لشراء اشياء فتحت الباب بنفسي فدهشت اذ رأيت على عتبتي آخر من انتظرهنالك — روكسان رنوار

وكانت مضطربة قلقة حزينة. هذا ما رأيتهُ في اللمحة الاولى. اما انا فلا اذكر قط ما احسست حينئذٍ. ولكنني بدوتُ بمظهر الرجل الساكن كالجبل لا تهزهُ العواصف. فسألتها في ادب وهشمة ان تتفضل — ادب طبيب يدعو المريض الى غرفة الاستشارة الطبية. فدخلت وهي تتنفض وارتمت في الكرسي الجلدي الكبير. فلما رفعت البرقع عن وجهها تبينت آثار دموع حول تلك العينين السوداوين الساحرتين. فدهشت لهذا لاني لم اعلم من قبل انها امرأة تستطيع ان تبكي

فبدأت الكلام بعبارة رسمية. فصاحت: لا لا يا جيروم. لا ارى فائدة تجني من زيارتي اذا تحدثت اليَّ كذلك. لقد اتيت لاطلب اليك ان تؤدي لي خدمة — وهي خدمة

كبيرة جداً — لا استطيع ان اطلب اليك قضاءها الا اذا كنت صديقاً . فدع عنك هذه التمة

فمضت على شفتي لما بدأ في كلامها من الصفاقة المبنية على الروية . ودب في شعور مقتها . ولفظرت اليها فرأيت جمالها — هي الآن اجمل مما كانت . وشعرت بشهوتي لامتلاكها فقتها من جديد . واحببتها من جديد . فقلت غاضباً — وأي باعث يبعث في نفسك الاعتقاد باني صديق واني اؤدي خدمة . فقالت — الباعث الوحيد هو أنك احببتني . فقلت : احببتك «مرة»

فلم تبأ بما قلت : ولكن شفتيها ارتسمتا ببسمة فاتنة مغرية . ولا شيء ابعث على سرور امرأة من اعترافك بانك احببتها ولو في الماضي السحيق

فقلت بجفاء — ماذا تطلبين مني . فباحت لي بكل ما تعانيه . قالت ان فيلكس برج في النزع — ولولا عزمهُ على متاع اصداء النصر الذي تحرزه روايتهُ لكان مات من أيام . وان موعد افتتاح الرواية في ذلك المساء . وأن كل من اطلع عليها عرف انها لا قيمة لها قط — الا لوسيان برج فان حبهُ لابيه وعبادتهُ لهُ اعميا بصيرتهُ فلا يرى . وان نقاد الصحف سوف ينقدونها نقداً لاذعاً . ثم قالت : وضعف فيلكس برج يمنعهُ عن مشاهدة الرواية ولكن لا بدَّ لنا من اطلاعه على اقوال الصحف في الغد وهذه وحدها كافية لقتله — كانها مدًى تُنمد في قلبه الخائر . وتوقفت عن الكلام ولكنها ظلت محدقةً بي تحديق استفهام من غير ان ادرك قط مرمى حديثها . فقلت : ان كلَّ هذا مما يؤسف لهُ . لقد كان فيلكس برج ممثلاً متفوقاً . ولكن حق الاسكاف يجب الا يتطلع الى ان يكون صانعاً للاحذية . فقالت : ولكنهُ رجل ينازع وحرامٌ ان يموت كبير القلب . فقلت : يظهر لي ان اكثرنا تموت كبيري القلوب . فقالت : ولكننا نستطيع ان نتقي كسر القلب في هذه الحالة

فحدقتُ فيها غير مدرك ما تقول وقلت كيف يمكن ذلك

- فترددت قليلاً وهي تحدق بي كانها تزنني بميزانها ثم قالت : اذا كتبت جريدة من مقام جريدة الاكليرور مقالاً تمتدح فيه الرواية وتثني على مؤلفها تمكننا من الاكتفاء بعرض هذه المقال عليه دون المقالات الاخرى — فيموت الرجل في غبطة وسلام

فادركت حينئذٍ ما ترمي اليه من قولها . ادركت انها تقترح عليَّ ان اخون مستخدميَّ واماني كناقد وانتهك حرمة التقاليد التي جرى عليها ابناء حرفتي وارمي بشرفي في الحمأة واقوّض بناء مستقبلي بيدي . ولماذا ؟ لانني احببتها يوماً ما . ولماذا ؟ لانها تريد ان تخفف من شوكة الموت على شيخ مزهوٍّ مجنون !

واني لادهش الآن كيف امتنعت عن ضربها لما فهمت بهذا الاقتراح . والمرجح انها رأت في عيني شهوتي لها فمضت في طريقها قائلةً : ليس هذا الطلب طلباً معقولاً . بل هو

طلب غير معقول . واذا انت لبيته علمت انك لا تزال تحبني — وهذا كل ما تبغي معرفته

فضحكت هازئاً — هذا كل ما يهمك ...؟ اذاً انا اصارحك القول : انني احتقرك. فهزّت رأسها قائلة . انك لا تحتقرني وانك سوف تلبي طلبي . واذا فعلت تركت لوسيان برج غداً لاجيء اليك . فلا بدّ من ان يطلقني جرياً على عادته. وحينئذٍ نتزوج. فانني لا ازال احبك ياجيروم

فاخرجت من حنجرتي صوتاً فيه مزيج من معاني التغضب والاستكبار . ولم ألبث حتى رأيتني منتصباً على قدميّ وهي غارقة في الكرسي الجلدي الكبير رافعة اليّ عينيها الساحرتين وعلى ثغرها تلك البسمة المرتعشة المغرية . ثم قالت ظننت اني استطيع ان اسعد من دونك فاخفقت

فضحكت في وجهها « انك تكذبين » . ولم انتبه الاّ وهي في ذراعيّ اغمرها بقبلاتي . ولما عاد اليّ شيء من العقل اخذتها من مرفقها الى الباب وقلت لها اخرجي يكفي الخراب الذي احدثته من قبل . فخرجت من غير ان تفوه بكلمة

***

لا استطيع ان اصف لك الالم الذي عانيته بعد خروجها . قد تقول ان التردد لم يكن سبيلي حينئذٍ. وان خبرتي هذه المرأة اثبتت ضلفها وخيانتها وشدة انانيتها. قد تقول هذه واكثر منه لانك لا تدري ما قوة الشهوة . كل دليل معقول قام حائلاً في سبيل اقتراحها . ولكن اذا دفع الانسان للقيام بعمل غير معقول لم يقم لنواهي العقل وزناً ما . والشهوة في تسع حالات من عشر تنتصر على العقل ولولا ذلك لكانت الحياة كلها سلام — وسآمة ايضاً !

واقتربت ساعة الذهاب الى المسرح وانا لم افض في الامر او على الاقل هذا ما قلته في نفسي . والراجح ان قلبي كان قد قضى وعقلي لا يزال يحاول الدفاع

وكانت الرواية احقر مما كنت انتظر واسخف . قابلها الجمهور بالاحتجاج ومدمدة وتصفيراً ولولا مكانة روكمان ولوسيان برج لما سلم المسرح من مظاهرة عنيفة يقوم بها الجمهور الحانق . وفي الفترات بين الفصل والفصل تكلم زملائي انتقاداً عن عزمهم على « قتل » الرواية ولولا حالتي النفسية الخاصة لكنتُ اقدع منهم لوماً وتقريعاً . لذلك اكتفيت بتذكيرهم بأن مؤلف الرواية ملقى على سرير المرض يصارع سكرات الموت

فضحكوا في وجهي قائلين : اسمعوا هيرتو — يشير بالين وهو يشحذ نصل قلم السموم فتحملت ذلك جهدي ثم صفقت ذرعاً فتركت المسرح طائشاً كأني كنت اصارع الشيطان

وفي برودة تلك الليلة الخريفية حاولت ان استرجع رشدي محاولة اخيرة . فأوردتُ البراهين التي تعارض النهج الذي انا في سبيله: الشرف والواجب وعزة النفس واحترام الاقران وشهرتي الخاصة والعامة وروابط الصداقة التي ترابطني بالناس ومكانتي في دوائر الادب

والاجتماع — كل هذه مرّت امام بصري مرور جيش لجب. وكان لابدّ من انتصار هذا الجيش. ولكنهُ انخذل امام شهوتي لروكسان رنوار التي استحوذت على جسمي ونفسي معاً

وقبيل منتصف الليل ذهبت في هدوء الى مكتبي في ادارة الاكليرور . وهناك في عزم وروية كتبتُ مقالة اثنيت فيها على رواية برج أعظم تاه تستحقهُ رواية على الاطلاق . لم اتردد في القول ولم اتعثر في كيل الاعجاب جزافاً . وختمتها بأن هذه الرواية اعلى ذروة وصلت اليها حياة فيلكس برج الحافلة بالآيات ، وانها لابدّ ان تكفل له مقاماً عالياً بين مخلّدي الادب المسرحي الفرنسي . ودفعت بمقالي الى منضد الحروف وذهبت الى داري واقفلت بابي وبكيت طوال الليل . بكيت لاني كنت اعلم انني انتحرت . وهذه دموعي اذرفها على قبري

اما ما حدث بعد ذلك فتستطيع ان تتصوره . طردت من جريدة الاكليرور طرداً لا رجعة فيه . وثار عليّ حنق اخواني النقّاد لانني خنت مبتهم فصاروا يجتنبوني كما يجتنب المجذوم . وانقلب عليّ اصدقائي كما قدرت كأنهم هم الذين اصيبوا بما فعلت وكأني قاتل لا منتحر

في تلك الليلة تركت روكسان لوسيان برغ وانت اليّ براً بوعدها ، رغم ريبتي في صدقها واذا جوانب القهوة ترنّ بضحكة هستيرية منطلقة من هيرتو . ثم استأنف حديثه قائلاً : ومن الاعيب الشيطان ان فيلكس برج توفي قبل اطلاعه على مقالي المذكور . وهكذا اكون قد انتحرت لغير غرض ما . والحياة حافلة بامثال هذه المفارقات . قلت اني انتحرت لغير غرض ما . والحقيقة اني رغم خسراني كل شيء ربحت روكسان . فلوسيان برج طلقها ليتزوج من ثاليتا — فتزوجتها انا . ولما قال هذا ، حوّل رأسه الى امرأة دخلت من باب القهوة وتقدمت الينا رثة سمينة متهدلة قذرة فوقف هيرتو في أدب واحترام — وقال هذه زوجتي — هذه روكسان — ما اجملها ! فنظرت اليه دهشاً . ولكنني في دهشتي ادركت شدة اخلاصه فيما يقول

ولما خرجت روكسان يصحبها هيرتو التفت اليّ صديقي دي موبري وقال

— انهُ ضحّى بكل عزيز عليه في الحياة لاجل هذه المرأة . فعلهُ من وجه ما عمل نبيل ، عمل كريم ، ولكن انظر كيف عوقب عليه . انهُ متشرّد ، سكّير ، لا يملك مالاً ولا اصدقاء ، بل هو منفيٌّ كبوهو من المجتمع . انهُ حطام رجل لا امل له في الحياة الاّ في هذا الكوباك !

فهززت رأسي متأملاً . وقلت بعد دقائق انك مخطئ . ألم ترَ ذلك الألق في عينيه لما قال « ما اجملها » . انا رأيتهُ واقسم لك ان لهذا الرجل املاً في الحياة اعظم من الكوباك . لقد ضحّى بكل شيء لحبّ هذه المرأة وهو لا يزال يحبها . والعجيب انها لا تزال في نظره الحائر امرأة جميلة . ان هذا الرجل لم يعاقب على عمله بل جُزي عنهُ أحسن الجزاء

فقال دي موبري — احدثُ ايها الشاب ما كنت احسبك في هذه المرتبة من شدة الملاحظة

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف والمباحث فيهم وتشحيذاً للاذهان. ولكن الصعوبة فيما يخرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ويراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف الغلاط غيره عظيما كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تؤثر على المطولة

نظرة مؤرخ مصري في

كتاب « الامبراطورية المصرية »

في عهد محمد علي

للاستاذ محمد رفعت

من المؤلفين من يكتسب العلم والمعرفة بالدرس والمرانة والخبرة ومنهم من تدفعهُ الرغبة الى طرق ابواب العلم والمعرفة ثم لا تلبث هذه الرغبة اذا استمرت ان تصل بصاحبها الى الحقيقة العلمية . والاستاذ مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده من النوع الثاني قد دفعتهُ الرغبة في تعرف تاريخ الحركة الوطنية المصرية الحديثة الى البحث والتنقيب في مختلف الكتب والمصادر والسجلات حتى استطاع ان يصدر هذا المؤلف النفيس . وانك لتجد اثر هذا الطابع الاجتهادي ظاهراً في اسلوب الكاتب وفي طريقته وفي كيفية عرضه وتلخيصه للحقائق التي يوردها في الكتاب . بل انك لتستطيع ان تحكم على الكتاب من الوجهة العلمية بنظرة بسيطة تلقيها على العنوان . اذ ان مصر رغم قوتها وفتوحاتها في عهد محمد علي الاكبر لم تكن حكومة مستقلة بالمعنى الدولي الذي يفهم من هذه الكلمة وهي بالاولى لم تكن حكومة امبراطورية فلو ان المؤلف اختار لكتابه عنوان « فتوح مصر في عهد محمد علي » او لو انهُ نسب الامبراطورية الى محمد علي بدلاً من نسبتها الى مصر لكان عنوانهُ الى الصواب اقرب وعلى الحقيقة العلمية ادل وابلغ

اما الاسلوب فهو في الغالب اسلوب السياسي الصحفي الذي يكتب وامامهُ غرض واحد

(١) المقتطف — اشرنا الى هذا الكتاب فيما صدر في السنة الماضية فعهد الى صديقنا الدكتور محمد رفعت المؤرخ المصري في مسألة النظر فيه فأتحفنا بهذه المقالة في اواخر السنة الماضية فتخلفت بين اوراقنا . فنتقدم الى كاتبها وال القراء بالمعذرة عن تأخيرها

يجمع من اجله الحقائق الصالحة لخدمة هذا الغرض . وفي التاريخ ما اكثر تناقض الحقائق المجردة واختلافها . ومامهمة المؤرخ الخبير سوى تمحيص هذه الحقائق واستخراج وحدة عامة منها تربط نواحي الموضوع المختلفة وتجعل اجزاء الكتاب كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضهُ بعضاً . اما المجتهد او « الهاوي » فتى تجمعت لديه الحقائق اوردها في كتابه وليس بينها سوى أوهى الصلات والروابط

وفي كتاب الدكتور صبري يمكنك ان تقلب صفحات كيف شئت وتقرأ فلا تجد ضرورة لاستقصاء اية مسألة او تحقيق اية وجهة نظر ذلك لان الكتاب خال من الوحدة فترى مسائله مفككة وحقائقهُ مبعثرة فهنا تقرير قدمهُ احد القناصل في مسألة معينة وهنا مذكرة او خطاب طويل من سفير او وزير وهنا كلام منقول بنصهِ من مؤلف قديم قد يستغرق ايراده الصفحات تلو الصفحات . خذ مثلاً لذلك تقرير القنصل الانجليزي فارن Farren في سوريا (ص ٢٩١ — ٢٩٦) وتقرير بروكش فن استن Proksch Osten النمسوي (ص ١٢٠ — ١٢٨) وكلام الرحالة بلجراف Palgrave عن العرب . حتى في التلخيص النهائي لم يجد المؤلف مانعاً من سرد تقرير القنصل الانجليزي Stoddart (ص ٥٧٣) وبالغ في اهميته حتى انهُ ليقول « ان مسيو ستُدارت قد وَضع القناع في بيانه العظيم عن المشروع الانجليزي الذي كان يقضي بتكوين امبراطورية افريقية آسيوية على انقاض محمد علي » (ص ٥٨٠) مع ان المؤلف لا بد ان يكون قد عرف بنفسه ان امثال هذه التقارير التي يبعث بها القناصل الى حكوماتهم لا حصر لها في محفوظات الحكومات ومعظم ما فيها من الآراء السياسية اقوال لا تفيد الحكومات التي يمثلها القناصل. خذ مثلاً رأي السفير الانجليزي في القسطنطينية في اثناء ازمة ١٨٣٩ — ١٨٤١ وهو اللورد پنسنبي Ponsonby . لقد كان من رأيهِ ان يصدر السلطان فرماناً بعزل محمد علي بمجرد ان اظهر الباشا اعتراضهُ على نصوص معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ لما عرضها عليهِ الباب العالي وفعلاً استطاع پنسنبي بنفوذه على رجال الباب العالي وبتأثيره في زملائه ممثلي الدول أن يصدر السلطان قرار العزل ولكن انجلترا وباقي دول الاتفاق لم توافق على هذا القرار ونصحت لممثليها بضرورة حضّ السلطان على النزول عن فرمانه . من ذلك يتبين خطورة الاخذ بآراء السفراء او القناصل عند تحديد سياسة الدولة التي يمثلها السفير او القنصل

على ان الكتاب يمتاز حقيقة بغزارة مادته وكثرة ما فيهِ من مختلف الرسائل والتقارير والاقتباسات وبه ترجمة بعض المستندات التركية التي عثر عليها المؤلف في اثناء بحثهِ في الدفترخانة بالقلعة واكثرها خطابات تبودلت بين محمد علي وابراهيم في اثناء حروب الشام.

وبفضل هذه المستندات استطاع المؤلف ان يصوّر ويوازن بين آراء الوالد ذلك الشيخ الصلب والسياسي الحذر والابن العسكري المقدام الصريح في خططه وافعاله . خذ مثلاً قول ابراهيم في احدى رسائله مخاطباً والده : لا بد انك تذكرين وقفتي بجنودي في كرتاصية وكتبت اطلب اليك بالحاح وفي خضوع وتواضع ان تنتهز الفرصة وتعلن استقلالنا فكتبت اليّ تقول انك قانع ان تكون « محمد علي » وكفى مع اننا كنا منتصرين وكانت الفرصة سانحة . ولكنك لم تشأ . والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود تطلب الاستقلال !! . . . . الاّ ان الاستقلال يؤخذ ولا يطلب ! » (٧ محرم سنة ١٢٣٩) وكم كنا نود ان يعم الانتفاع بهذه الوثائق والمستندات فيقصر المؤلف عمله اولاً على جمع نصوص المستندات التي ننقب عنها في مختلف السجلات واثباتها دون اي بتر او اختصار لتكون مصدراً نقياً لتاريخ مصر. اما النقط التي اخذتها على المؤلف فبعضها خاص بالطريقة وبعضها خاص بالاخطاء التاريخية وقد اوردنا نقدنا في الحالتين على سبيل المثال لا الحصر

١ — قد اظهر المؤلف في اثناء تعرضه لتحليل خطة انجلترا نحو مصر او محمد علي شدة لاذعة في نقده لا يمكن تصويبها البتة في كتاب علمي . فقد ادت به المبالغة الى ان يشبه العداء بين انجلترا ومصر بالكفاح بين روما وقرطاجنة في التاريخ القديم وكما ان روما لم يهدأ لها بال او يتم لها سؤدد الاّ بعد ان محت قرطاجنة كذلك ينسب المؤلف الى انجلترا رغبتها في تدمير قوة محمد علي الناشئة (ص ٤٨١ — ٥٥٧) من ذلك قوله صفحة ٥٧٠

"L'Egypte, toutes ses dépendances, toutes ses libeertés et toutes ses sources devaient devenir le monople de la Grande Bretagne"

٢ — ومن امثلة هذه المبالغة قوله ان انجلترا لم تكن ترمي بسياستها الى اضافة مصر لتابعيها فحسب بل كانت تريد وضع يدها على «الامبراطورية المصرية» لتصلها بأمبراطوريتها بالهند مع ان الهند في ذلك الوقت لم يكن قد تمّ ضمها الى التاج البريطاني والامبراطورية البريطانية على الهند لم تعلن الاّ ١٨٧٦. على ان المؤرخين الحديثين يقررون جميعاً ان غرض انكلترا في ذلك الوقت لم يكن امتلاك مصر بل كان محصوراً في صيانة علاقاتها ومواصلاتها مع مستعمراتها في الشرق وان تحول دون قيام اية دولة معادية لها في مصر حتى لا تتعرض مصالحها في الشرق للخطر . اما فكرة الاحتلال فقد جاءت في آخر عهد الخديوي اسماعيل

٣ — ثم انظر الى وصفه بالمرستون وبنسني بأنهما deux hommes espeit intelligents (ص ٤٤٢) اي انهما رجلان قليلا الذكاء . مع ان بالمرستون كان المحرّك الاول لدولاب السياسة الدولية في ذلك العهد كما كان بنسني اقوى ممثلي الدول في القسطنطينية ولا يمكن

ان يوصف رجال هذه مقدرتهم بأنهم قليلو الذكاء

٤ — كذلك نسب المؤلف الى انكلترا انها كانت ترمي من وراء معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ مع روسيا وفرنسا الى تكوين حلف bloc زعامتها يستعاض به عن الحلف المقدس (ص١٠٧) مع ان انكلترا كانت في ذلك الوقت تحارب فكرة المؤتمرات والاحلاف وتعارض في تداخل الدول الكبرى في شؤون الامم الصغرى . وكانت بطبيعتها تنفر من اي اتفاق دائم مع روسيا ذات الحكومة المطلقة وانها لم ترغبها على عقد معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ سوى رغبتها في منع تدخل روسيا بمفردها في المسألة الاغريقية . فلا معنى اذن للقول بأن غرض انكلترا في سنة ١٨٢٧ تكوين bloc مع الروسيا وفرنسا يقوم مقام المحالفة المقدسة

٥ — اما حيرة المؤلف في تحديد سياسة فرنسا في اثناء الثورة الاغريقية وقوله «ان فرنسه كانت تعطف على الجانبين الاغريقي والتركي المصري او انها على الاقل قد انتهجت خطة محايدة متريثة» (ص١٠٨) فلا مسوغ لها قط. لان فرنسا وعلى رأسها حكومة شارل العاشر الرجعية لم تتوان في اظهار عطفها على الثوار فأرسلت المتطوعين امثال Fabvier ليحاربوا في صفوف الثوار المسيحيين ضد تركيا . ولما عقدت معاهدة لندن لم تتردد فرنسا في ارسال امير البحر de Rigny للاشتراك مع امير البحر الانكليزي في مراقبة الحالة ثم لم تلبث ان ارسلت قوة حربية كبيرة بقيادة الماريشال ميزون Maison لتضطر ابراهيم الى الجلاء. فهذه الخطة الحاسمة من جانب الحكومة الفرنسية لا تتفق مع قول المؤلف ان فرنسا كانت تعطف على الجانبين. والحقيقة ان اوربا جميعها حكومات وشعوباً كانت تعطف على الاغريق ضد تركيا . ولم يشذ سوى مترنخ . فقد كان عدو الثورة سواء اكانت ضد السلطان ام ضد امبراطور النمسا

٦ — اما عن مذكرة المندوب النمسوي الكولونيل بروكش ڤن اوستن Prokesc Osten الى محمد علي بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٨٣٣ وهي التي رسم فيها خطة تكوين خلافة عربية يكون محمد على رأسها فقد ذكر المؤلف انه عثر عليها في السجلات الانكليزية (ص٢٧٢) مع ان كاتب هذا المقال قد نشر ملخص هذه المذكرة في كتابه «تاريخ مصر السياسي في عهد محمد علي». وقد نشر المذكرة وعلق عليها في رسالة قدمها للمؤتمر الجغرافي الدولي المنعقد بالقاهرة في شتاء سنة ١٩٢٥

٧ — ومن اعجب ما لحظناه في الكتاب نسبة السذاجة الى محمد علي عند ما كانت تضطره الظروف السياسية الى الافصاح عن مراميه واغراضه الى احد قناصل الدول الكبرى وخاصة انكلترا. فيظن المؤلف أن القنصل استطاع بمهارته ان يستدرج محمد علي

ولنا ان المجاملات السياسية كانت تقضي على محمد علي بضرورة اعلام الدول بما ينوي عليه او على الاقل بجس نبضها حتى لا تعترض على تصرفاته في المستقبل. وعلى ذلك تكون ملاحظات المؤلف على محمد علي اثناء حديثه مع قنصل انكلترا بخصوص الهند (ص٢٨٨) او بخصوص السودان (ص٦٦) هي ملاحظات خاطئة فلا انقاصل « تحكموا » على محمد علي ولا محمد علي خانه لسانه

٨ — ومن اقواله ان عباس باشا خلف اخاه ابراهيم في حياة والده وكرر هذا القول في مكان آخر (ص٥٨٩ و٥٩٠) وقاله ان عباس الاول هو ابن طوسون بن محمد علي فعباس حفيد محمد علي وابن اخي ابراهيم

٩ — وذكر في (ص٥٥١) ان ابراهيم في اثناء زيارته لاوربا سنة ١٨٤٥ نزل في ميناء ليهورن Leghorn في ايطاليا وانا نستغرب ايراده الاسم بهذا الشكل لا سيما وان المؤلف يكتب باللغة الفرنسية اذ ان اسم الميناء بالفرنسية Livourne ولا تعرف بليجهورن الا في الانكليزية

١٠ — وذكر في (ص٥٥٨) ان كاتب رجل المورة كان بالقسطنطينية سنة ١٨٤٨ مع انهُ توفي سنة ١٨٢٧ والذي كان بالقسطنطينية اللورد استراتفورد قريب كاتب ولكنهُ ليس رجل المورة

١١ — ومما يؤخذ على المؤلف مبالغته في وصف حالة جيش ابراهيم باشا في سورية لما هاجمه الحلفاء من السواحل والجليون من الداخل سنة ١٨٤٠ فقد ذكر ان الجيش كان Presque une affamée et démoralisée (ص ٥١٨) اي ان رجاله كانوا عرياً جياعاً وفاقدين الروح المعنوية

ومع ان حالة الجيش كانت حقيقية مما يؤسف لها الا ان جميع المصادر مجمعة كما اعترف المؤلف على ان قوات ابراهيم كانت كافية وفي امكانها المقاومة وقد ذكر نابيير Napier قائد قوات الحلفاء في كتابه « الحرب في سوريا » ان المصريين كانوا متفوقين في داخلية البلاد وانهُ كتب الى بلنسي يقول انهُ اذا استمرت الحرب مدة فلامناص من ان يقوى حزب ابراهيم في سوريا (الجزء الاول ص ٢٥٣) واما ما اصاب الجيش من الخسائر الفادحة فكان نتيجة اجتياز الجيوش لبلاد سيطر الحلفاء على سواحلها فمنعوا عن الجيش الراحل المؤونة والزاد وحرموا عليه الاتصال ببلاده الا بطريق الصحراء الوعر

١٢ — ويجب ان نشير هنا الى ان بالمرستون لم يكن وكيلاً للخارجية كما ذكر المؤلف في ص٥١٣ بل كان وزيراً والانكليز يطلقون على بعض وزرائهم لقب Secretary of State

هذه هنات غير خطيرة يمكن تداركها ولا تستطيع بحال ان تؤثر في قيمة الكتاب كمصدر جامع لآراء ومستندات وحقائق سياسية او دبلوماسية منها جانب كبير لم يرَ النور الا بفضل الجهود والمباحث التي قام بها ولا يزال يقوم بها صديقنا الدكتور صبري في مصر وفي الخارج

باب الزراعة والاقتصاد

رواية الازمات الاقتصادية

أثر العوامل الانسانية في استحكام الازمات وانفراجها

الفصل الاول

يرتفع الستار عن مشهد اقبال ورخاء . فالمصانع في اوربا واميركا لديها طلبات تفوق ما تستطيع اخراجه من البضائع وجماعات المشترين تؤم المخازن الكبيرة في باريس ولندن وفيلادلفيا وبوانس ايرس والقاهرة زرافات ووحداناً . وكثرة الطلب على المواد الخام كالصوف والقطن والصلب والمغناطيس تميل بها الى ارتفاع في الاسعار . ويرى اصحاب المصانع ان اثمان ما يشترونه من هذه المواد آخذة في الارتفاع رويداً رويداً فيميلون الى شراء مقادير منها تفوق ما يطلب منهم . ويلحظ الجمهور الارتفاع في اسعار البضائع فيتباعون اكثر مما يحتاجون اليه . ويكثر الطلب على العمال والموظفين وترتفع اجورهم

واذ يرى اصحاب المصانع ان دواليب العمل في مصانعهم دائرة ليل نهار يتجهون الى توسيع نطاق اعمالهم . فينون مصانع جديدة ويجهزونها باحدث الآلات . ويقوى هذا الاتجاه فيهم لان الضرائب مالية فبدلاً من توزيع ارباحهم على اصحاب الاسهم فتتولى الحكومات على ما يخصها من ضرائب الدخل ، يفضلون ان يستعملوا ما يفيض عن الارباح العادية في توسيع نطاق العمل على النحو المشار اليه

اما الجمهور فيقبل في هذه الفترة على شراء اسهم الشركات الصناعية ولو كانت الارباح الموزعة ضئيلة . انما يحدوهم الى ذلك مظاهر الاتقان والنجاح في اعمالها والارتفاع في اسعارها . يبتاع الجمهور هذه الاسهم اولاً بالاموال الموفرة لديه . ثم يشهد الارتفاع المتواصل في اسعارها ويرى ان سبيل الثروة هو شراء هذه الاسهم فيبدأ يشتريها بالتقسيط على ان يسدد الثمن من مال ينتظر توفيره في المستقبل . وهكذا تبدأ المضاربات

ولكن الشعور بالرخاء سائد في كل مكان . فالرجال يشترون لنسائهم جواهر وحرائر وثراء .

واسر المال تبتاع سيارات وغراموفونات — في اميركا — وبيوتاً وحدائق في فرنسا . ويكثر عدد السياح من الاميركيين وغيرهم في اوربا ومصر . وتزدحم الفنادق والملاهي ويسهل التوازن في ماليات الدول لوفرة دخلها من الضرائب . وينزل الحكام في كلّ الامم في المنزلة العليا من تقدير الجمهور ومحبته لانهُ يعزو هذا الفلاح الشامل لحكمهم الشاملة

ويسري الاعتقاد بين كل طبقات الامم — عمالاً وتجاراً وماليين وسياسيين واصحاب مصانع — بان هذا الرخاء امر طبيعي وانهُ لا بدَّ دائم . لا ريب انهم سمعوا في حداثتهم ان قد جاء على المجتمع ازمات مستحكمة وان ارتفاع الاسعار المتواصل امر لا يدوم . وبعضهم شهد هذه الازمات . ولكنهم مقتنعون بان الاحوال قد تغيّرت . فيقولون والبشر ملء افواههم « لسنا مثل اسلافنا . ونحن في مأمن مما عانوهُ في الماضي »

ويسدل الستار على السودة الرخاء مرتفعة في كل بقاع الارض !

الفصل الثاني

والواقع ان الاسعار ارتفعت اكثر مما يسوّغهُ الطلب على البضائع واكثر مما تسوّغه الثقة المالية ، مع ان احداً لا يدرك هذا ولا يحسُّ بهِ . ويقلُّ الذهب بالنسبة الى كثرة المعاملات بالنقود المبنية عليهِ في معظم البلدان . ولما كانت اسعار البضائع عالية . فسعر الذهب ينخفض بالنسبة اليها . وتزيد نفقات استخراجهِ من بطن الارض لارتفاع اجور العمال . فامت لا تستطيع ان تشتري بالجنيه الذهب بعد ارتفاع اسعار البضائع الاَّ جانباً مما كنت تستطيع شراءهُ من قبل فيقل الربح من تعدين الذهب ويضيق نطاق استخراجهِ وهذا في حدّ ذاتهِ خطر كبير

ولكن ثمة خطر اكبر . ذلك انهُ لما كان الناس في فترة الرخاء ماليين الى ان يشتروا من البضائع فوق ما يحتاجون اليهِ ، واصحاب المصانع ماليين الى ان يصنعوا منها فوق ما يطلب منهم ، فلا بدَّ من ان تتكدس المخازن والبيوت بها . ولا يبدو هذا التكدّس اولاً لانهُ منتشر في مخازن المدن المتفرقة وفي بيوت الناس . فمدام فاندرهاجن مثلاً في مدينة بروكسل اشترت ثلاثين قميصاً لابنائها لانها رأت ان اسعار القمصان آخذ في الازدياد المتواصل فهي تشتري هذه الكمية لكي لا تضطرَّ في السنة المقبلة والتي تليها الى شراء قمصان باثمان اغلى من الاثمان الحاضرة . ومثلها مسز هارتفرد في كليفلند في اميركا وفروّ روزنهاردت في برلين ومدام اومارا في نجاساكي وحرم . . . بك في القاهرة . اما السنيور باشيارلّو تاجر القمصان بالجملة في مدينة ميلان فقد اشترى خمسين الف قميص فوق ما يبيعهُ كلَّ سنة وخزنها ليبيعها في السنة المقبلة جلباً للربح الكثير بدلاً من شرائها في السنة المقبلة بسعر اغلى . واما المسيو ريبودو صاحب مصانع القطن في روان بفرنسا فعندهُ من القطن ما يكفي مصانعهُ سنتين .

وهكذا تتكدس آلات القطن في شون تكساس ومصر . فتعمد الحكومات الى التدخل . فتشتري حكومة البرازيل جانباً كبيراً من مخزون البن في بلادها . وتجري الحكومة المصرية على ذلك فيما يتعلق بالقطن . ويصبح المضاربون على صعود الاسعار في كل بورصات العالم مكشوفين . وهم لا يتسلمون بضاعتهم لانهم لا يملكون الثمن . وكل ما يستطيعونهُ هو الاحتفاظ بمراكزهم املاً منهم بصعود الاسعار

وفي هذه الفترة يكون بناء العالم الاقتصادي متقلقلاً كأنهُ على جُرف هار . فكلٌ هؤلاء المضاربين سواء كانوا مضاربين بالمحاصيل او بالاسهم تراهم معلقين على طرف قضيب من حديد فوق هوّة فاغرة فاها ، فأقلُّ اضطراب يميل بقضيب الحديد الى ناحيتهم والى الهاوية يهبطون

الفصل الثالث

لقد زلت الكارثة والبواعث عليها تختلف وتكون في الغالب مسألة لا قيمة لها . لقد اصبح التوازن بين الصعود والهبوط دقيقاً جدًّا فضغط اصبع يكفي للانهيار . وقد يكون الباعث افلاس بنك او نشر ارقام تدل على ان اسهم بعض الشركات ليست في المكانة التي يظنها الناس . وقد يكون بيع بالمزاد لمقادير كبيرة من الصوف في ملبورن باستراليا او بونس ايرس بالارجنتين فيدرك مبتاعو الصوف ان الطلب عليهِ ضئيل جدًّا . وقد يكون احياناً تحوّل في سوق المال بضعف قوة الناس عند الشراء كهبوط سعر الفضة في الشرق الاقصى

ومهما يكن السبب الذي يبدأ الازمة صغيراً تراها وقد اتسع نطاقها واستحكمت حلقاتها بسرعة غريبة . فهبط الاسعار فجأة وتهوي جماعة المضاربين الى الهوة . فأصحاب المصانع وتجار الجملة يملكون بضائع مخزنة جمعت لتباع في السنة التالية بأسعار اعلى . اما وقد زال كل امل ببيعها بتلك الاسعار فكل منهم يعرض بضاعتهُ للبيع ولا قيمة للبضائع في سوق كل شيء فيها معروض للبيع ويندر من يقبل على الشراء . هنا تنقلب الآية التي شهدناها في فترة الرخاء فالمستهلك يرى انهُ كلما تأخر في ابتياع شيء تمكن من ابتياعهِ بسعر ارخص من السعر الذي دفعهُ قبلاً فيحجم الا عن شراء ما كان ضروريًّا كل الضرورة . والتاجر اذ يدرك احجام زبونهِ عن الشراء وتفاقم خسارتهِ على البضائع المخزونة لديهِ يحجم عن الشراء من اصحاب المعامل . واصحاب المصانع يقللون مقدار البضائع التي يصنعونها لقلة الاقبال عليها فيضعون حدًّا لما يبتاعونهُ من المواد الخام . فتأخذ هذه المواد تتكدس لدى اصحابها سواء كانوا زرّاعاً او معدنين او اصحاب قطعان لحي الصوف — فيقفون مكتوفي الايدي لانهم لا يملكون المال ولا الاعتمادات المالية اللازمة

وتهب فوق كل بقاع الارض ريح من الشكوى والثورة ويتجه الجمهور يائسا الى رجال السياسة القابضين على زمام الاحكام . فأصحاب الاموال في البورصات يرفضون ان يبتاعوا المحاصيل او الاسهم. وأصحاب المعامل يستغنون عن جماعات العمال. فيزداد عدد العاطلين. وتحار اميركا ومصر في ما تفعلانه بقطنهما. وتحار استراليا في ما تفعله بصوفها. وتشتري حكومة البرازيل بنّ مزارعيها وتحرقهُ في قاطراتها

اما مدام فاندرهاجن السيدة البلجيكية في بروكسل التي ابتاعت ثلاثين قميصاً لابنائها خوفاً من ارتفاع الاسعار المتواصل فتتوقف عن الشراء الآن املاً منها في الحصول على ادنى الاسعار. فتنتظر لترى ما تسفر عنهُ الحال. وتؤخر شراء فستان لها قدر ما تستطيع. ويجري على ذلك كل ربات البيوت في كل انحاء العالم. والعامل الذي اصبح عاطلاً لا يستطيع ان يكون مستهلكاً. ويفقد الجمهور رباطة الجأش وصحة الحكم . ويشرع الناس يخزنون اموالهم لانهم لا يأمنون تثميرها في ازمة مستحكمة . وهكذا يضيق نطاق الاعتمادات التي يستعملها رجال المال والاعمال في الصناعة والتجارة

والذين لم يصابوا بخسائر مالية في هذه الازمة تسري اليهم عدوى الجمهور . فيقتصدون في كل ناحية من نواحي الحياة ويقترون حيث كانوا يسرفون. فهم يفضلون البقاء في بلادهم على السفر الى البلدان الاخرى ويقتنعون بما عندهم فيزيدون في طين الفوضى التجارية بلة

هنا يخرج انبياء السوء من وكورهم ويسيرون في الارض ينشرون انباء القنوط واليأس قائلين : « الحالة سيئة ولكنها صائرة الى اسوإ » ويقولون « ليست هذه ازمة بل هي انهيار النظام المالي من اركانه » امثال هذه النبؤات تعاد في كل ازمة مالية . « ففي سنة ١٨٩٤ — يقول المستر نوبز احد ثقاة الكتّاب الماليين — ظن وول ستريت ان مستقبل اميركا قد هدم من اساسه ». وفي ١٩٢١ تحدث انبياء السوء «بافلاس اوربا ودمار العالم» وفي ١٩٣٠ قالوا ان النظام المالي العالمي على شفا الهاوية

ويسدل الستار على زفرات النوح مصعّدة في كل مكان

الفصل الرابع

وكما اتجهت الاسعار في فترة الرخاء الى بلوغ مستوى عالٍ لا تسوغهُ الحال الاقتصادية تتجه في فترة الازمة الى مستوى واطٍ غير معقول فتهبط اسعار البضائع الى اقل من نفقات صنعها ويجد الزراع والصناع انهم لا يجنون ربحاً من زرع الحاصلات وصناعة ما يصنعونهُ فيضيقون دائرة الانتاج الى الحد الادنى . فينقص ما عندهم من البضائع المخزونة من سني الرخاء وما

بلها فترتفع مقدرة الذهب على الشراء . ويصح استخراج الذهب من بطن الارض عملا رابحاً فيميل نطاق استخراجه الى التوسع. ولكن اذا افترضنا ان نطاق استخراجه لم يتسع فاننا نشهد انساعاً كبيراً في نطاق الاعتمادات المالية التي تمنح رجال الاعمال بفائدة قليلة . لان الاموال كانت مخزونة لا تجرؤ الظهور خوفاً من عواقب الازمة وتكثر المضاربة في بورصات العالم ورويداً رويداً نشهد البناء الاقتصادي العالمي قد اصبح يتراوح بين الضعف والنشاط، وهو تراوح خطير، ولكن المضاربين على هبوط الاسعار هم الذين يخسرون الآن لان اقل لمسة للميزان المعلق تذهب بالاسعار الى مستوى اعلى بدلاً من الهبوط بها كما حدث قبيل الازمة

الفصل الخامس

ان عنف الازمة هو علاجها الناجع ذلك ان قلة الارباح جعلت الانتاج من البضائع دون ما يحتاج اليه الناس منها واذ تهبط الاسعار الى مستوى واطٍ جداً يجرؤ بعض المضاربين ورجال الاعمال على المقامرة بأنها سوف تبدأ في الصعود ويظهر بعض المشترين في السوق فيصدون تيار الهبوط . ويبدأ هذا الاتجاه في بعض البضائع والاسهم اولاً ثم تتبعها البضائع والاسهم الاخرى. وكل الذين امتنعوا في سني الازمة عن الشراء خوفاً من هبوط الاسعار يلمحون امارات التحسن البادية فيخافون صعودها فجأة وهم لا يدرون . فتسري بينهم حمى الشراء. وتخرج الاموال المخزونة من مكامنها لتثمر في الاسهم المضمونة ولو كانت ارباحها قليلة . ويذيع الاعتقاد بأن من تأخر عن شراء ما يحتاج اليه ادركه ارتفاع الاسعار . وهكذا تنقلب السوق من سوق عارضين للبضائع لا يجدون لها شارين. الى سوق لا تكفي فيها البضائع المعروضة ما يطلبه منها الشارون فترتفع الاسعار ويقل العمال العاطلون ويصبح العامل الذي عاد الى عمله مستهلكاً وتنهال اناشيد الثناء على الحكومات القائمة لحكمتها وفائدة الخطوات التي خطتها في سبيل تفريج الازمة

***

اما الممثلون في هذا الرواية فينسون ما حدث ويأخذون يرددون ما قالوه في الفصل الاول . يقولون ان الانسانية في مفتتح عصر من الاقبال الدائم وان ارتفاع الاسعار لن يقف عند حدٍ وان الازمة قد انفرجت ولن تعود . ويقولون لقد خرجنا من المأزق قبل ما قضت الكارثة علينا . ولكن الاحوال قد تغيرت الآن ونحن في مأمن من مصاعب الماضي

ويسدل الستار الاخير على اناشيد الفرح متصاعدة من جوانب المسرح — العالمي

طريقة جديدة لحفظ علف المواشي الاخضر

حفظ العلف الاخضر طريًّا اخضر من فصل الى فصل امر مهمٌّ كل الزارعين لانهُ كبير الاثر في غذاء المواشي وصحتها وما يدرُّ بعضها من اللبن. وقد ثبت من تجارب بعض العلماء الانكليز ان الابقار التي تتغذى بالعلف الاخضر تفوق الابقار التي تتغذى بالحبوب فقط في مقدار ما يحتويه لبنها من الغيتامين

وقد شغلت هذه المسألة بال المشتغلين بالزراعة في مصر فصنع بعضهم ما يعرف بالكرة المفتوحة وهي عبارة عن بناء حجري او خشبي يكدَّس فيه البرسيم اكداساً فيجفُّ ما في خارج الاكداس ويبقى ما في داخلها اخضر. ولكن لاحظوا ان في هذه الطريقة مواطن ضعف اهمها ان نحو اربعين في المائة من البرسيم المكدس يضيع بجفافه او اختماره. وان بعض التغيرات الكيماوية فيه تجعل رائحتهُ نتنة فتعافهُ المواشي. وان الكرة يصعب نقلها من مكان الى آخر بحسب المكان الذي يحتاج اليها فيه. وانها اذا كانت من الخشب رثَّ الخشب وتعفن فتزيد رائحة البرسيم نتانة

وقد اطلعنا على طريقة صناعية جديدة جرِّبت في بلدان المغرب الاقصى وسهول فرنسا فثبت انها تفي بالغرض على ما يرام. وهي قسمان آلة لتقطيع البرسيم قطعاً صغيرة جداً حتى اذا كدِّس امكن حشكه حتى لا يتخللهُ هواء كثير فتقلَّ التغيرات الاختمارية الكيماوية فيه الى ادنى حدٍّ. والاخرى اسطوانة كبيرة مصنوعة من حديد مطلي بطلاء يمنع صدأه فاذا قطع البرسيم خزن في هذه الاسطوانات القائمة كالابراج فيقلُّ التلف بهذه الطريقة الى ادنى حدٍّ ويحفظ العلف اخضر الى فصل الجفاف. ترى صورتها في الصفحة المقابلة

ويؤخذ من النشرة التي وصلتنا ان هذه الطريقة جرِّبت في مصر فثبت منها ان ما يخزن من البرسيم بهذه الطريقة يفوق نحو ثلاثة اضعاف البرسيم المحوَّل دريساً في قيمته الغذائية ومقداره. فاذا حصدت محصول فدان برسيماً وحفظتهُ بهذه الطريقة امكنك ان تتغذى به ٤٠٠ بقرة مثلاً. واما اذا حولتهُ دريساً لم تتمكن من تغذية اكثر من ١٥٠ بقرة. فالنسبة نحو واحد الى ثلاثة

والظاهر ان لهذه الطريقة فائدة اقتصادية مؤكدة على مرِّ السنين. فحبذا لو عنيت بعض دوائرنا الزراعية الكبيرة بتجربتها تجربة علمية ونشر نتائج تجاربها

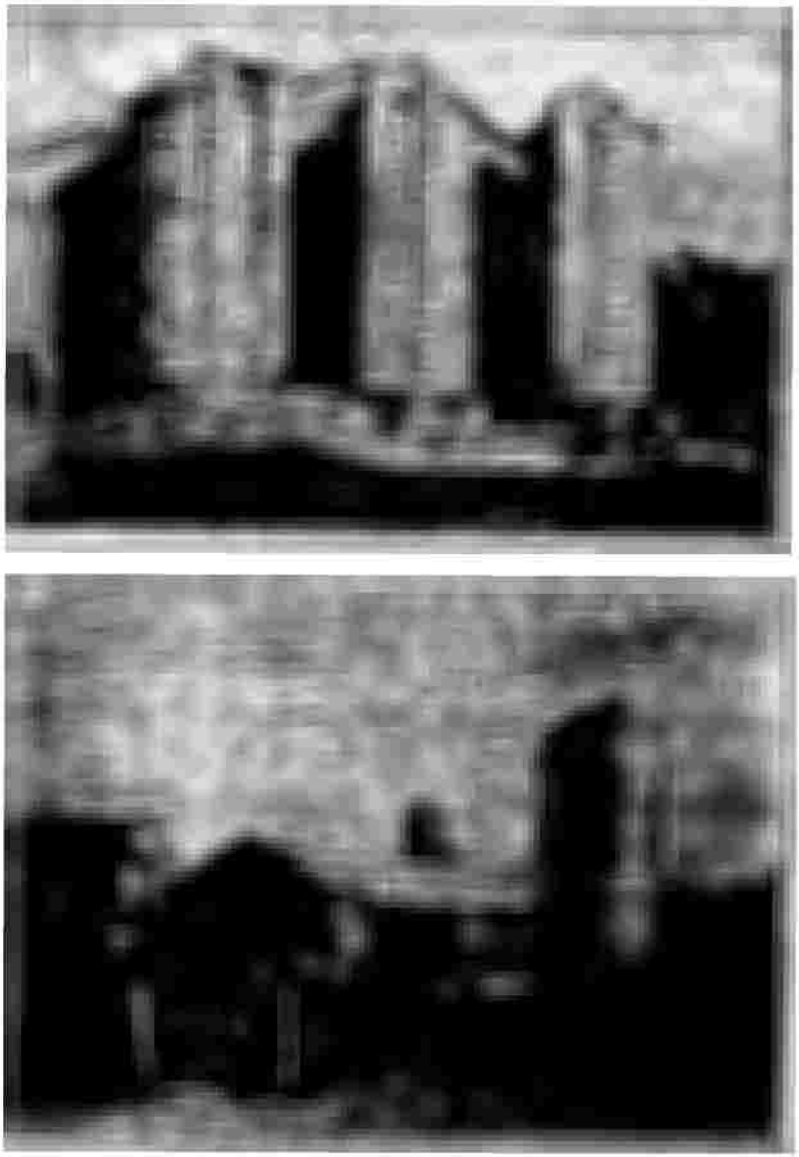

طريقة جديدة لخفض عدد المواشي الأخضر

مقتطف يونيو ١٩٣١

أمام صفحة ٧٥٠

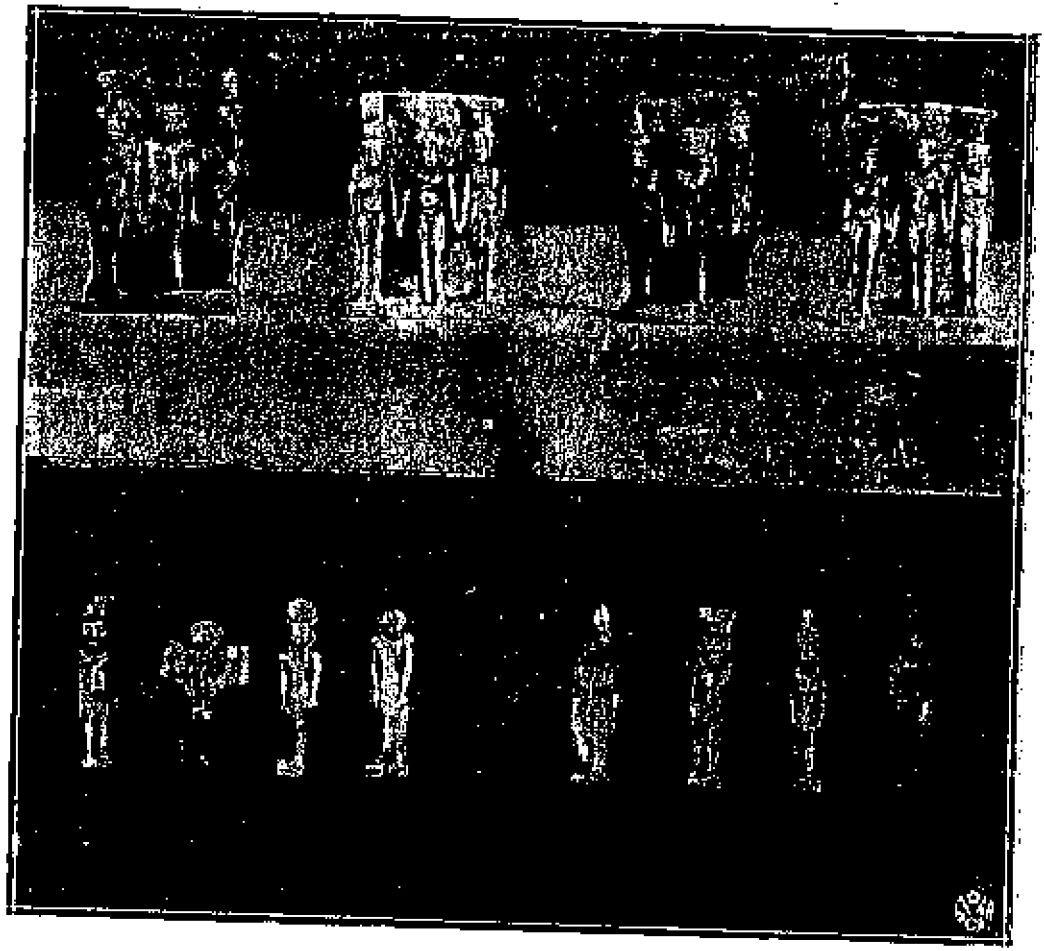

تماثيل صغيرة وقطع من الخزف المطلي تمثل تالوثاً مؤلفاً من ازيس
ونفتيس وخنسو وشو وساكت وهي لحفيد توزيرس

الاخبار العلمية

مقتطف يونيو ١٩٣١

مكتبة المقتطف

آلهة الارض[1]

مات جبران خليل جبران في ١٠ ابريل بعد صدور كتاب « آلهة الارض » وانجاز كتاب آخر ينتظر ان يصدر في الخريف. بهذين الكتابين يصبح عدد الكتب الانكليزية التي اخرجها جبران سبعة كتب وعت من الهام الحكمة والفلسفة في بردة شعرية خلابة ورسوم ومزية غاية في الابداع شكلاً ودلالة ما يرفع صاحبها الى مستوى المختارين من شعراء العصر. فترجمت مؤلفاته الى اكثر من اثنتي عشرة لغة واحدها الى عشرين وبيع من كتابه « النبي » (نحو ٥٠ فرشاً صاغاً) نحو سبعين الف نسخة في اميركا. وتليت فصوله في الكنائس. وكتبت عنه جريدة الصن النيوركية يوم وفاته افتتاحية بليغة قالت فيها « انه كان يكتب كرجل ملهم . . . » واحتفل بتأبينه كتاب الاميركان وشعراؤهم. وهو مع ذلك كان يشعر انه لم يقل كلمته وانه ركان مسدود

اما « آلهة الارض » فحوار بين ثلاثة اشخاص هم فوق مستوى البشر وتحت مصاف الآلهة تمثل العناصر الثلاثة الاساسية في الطبيعة البشرية عناصر القوة والسلطان والحب ويدور على مصير الجنس البشري. فاثنان منها يريدان انتساي به الى ذروة القوة وخلق جنس من السوبرمان يصح ان يكون طعاماً للآلهة. يقول الاله الثاني

« لن اتمكن من السرور ان يتملكني حتى اتمنى الا اكون. فانا لا استطيع الا اختيار الطريق الاوعر. ان اتبع الفصول واتحمل مجد السنين. ان ازرع البذرة واراقبها تنبت في التراب وان ادعو الزهرة من مكمنها. وامنحها قوة لتحيا حياتها. ثم اقطفها لما تضحك الريح في الغاب. ان ادفع الانسان من سر الظلام ولكن احتفظ بجذوره متصلة بالتراب. وامنحه ظمأ للحياة واجعل الموت ساقيه. اهبه حبًّا يضعف بالالم ويسمو بالشهوة. ويزداد بالتوق ويمحي لدى الضاق الاول. اطوق ليالية باحلام ايام اتمنى. وابعث في ايامه رؤى ليال رغدة. ومع ذلك احصر ايامه وليالية في دائرة من الشبه لا تتغير. اجعل خياله كنسر الجبل. وفكره

(١) The Earth Gods by Kahlil Gibran published by Alfred Knopf New York City

مثل عواصف البحار. ومع ذلك امنحهُ ايدي بطيئة الحكم. وارجل مثقلة بالتأمل. اعطيهِ فرحاً لينشد امامنا . وحزناً لكي يتهلل الينا. ثم احنيهِ لما تطلب الارض في جوعها طعاماً . ارفع روحهُ فوق الثبة الزرقاء ليستطيع ان يتذوق غدنا . واحفظ جسدهُ متمرغاً في الحمأة . لكي لا ينسى أسهُ

فيجيبهُ الالهُ الاول : ان قلبي ظامئ ، ولكني لا اشرب دماء جنس خوّار . لان الكأس ملوثة والخمرة فيها مرة المذاق . لقد عجنت الدلفان مثلك واخرجت منهُ اشكالاً تتنفس . دلفتُ من اصابعي الفاطرة الى المستقعات والآكام . ومثلك اشعلت جذوة في اعماق الحياة البازغة . وراقبتها تزحف من الكهوف الى المرتفعات الصخرية . مثلك امرت الربيع ومددتُ روعته شركاً يتملك الشباب ويسميه فيولّد ويتكاثر . مثلك سرتُ بالانسان من هيكل الى هيكل . وحوّلت خوفهُ الصامت من اشياء غير منظورة الى ايمان مرتعش فينا نحن ، من لا يُرى ولا يُزار . مثلك امتطيت العاصفة العاتية فوق رأسهِ لكي ينحني امامنا . وجعلت الارض تميد تحتهُ لكي يتهلل الينا. ومثلك قدّت الاوقيانوس الطاغي الى جزيرته المطمئنة فاتت داعياً لنا . فعلت كلّ هذا واكثر منهُ . وكل ما فعلت باطل فارغ . اليقظة باطلة والنوم فارغ . والحلم فارغ وباطل

الاله الثاني : لقد غرستنا الانسان . كرمتنا . وحرثنا التربة . في الضباب الوردي من الفجر الاول . وشاهدنا الاغصان الليّنة تنمو . وتهدلنا الاوراق الصغيرة ....ومن العناصر الثائرة وقينا البرعم . ومن الارواح الشريرة حفظنا الزهرة . اما الآن وقد اثمرت الكرمة عنباً . انك سوف تأخذها الى المعصرة لتملأ قدحك (خمراً) . اي يدٍ اقوى من يدك سوف تجني الثمر . واي مصير انبل من خزانك ينتظر الخمر. الانسان طعام الآلهة. وبجد الانسان يبدأ حين تمتص شفاه الآلهة المقدسة نفسهُ المتحيّر. كل ما في الانسان لا شيء اذا ظل انسانيًّا. طهر الطفولة وقوة الشباب الحلوة . شهوة الرجولة الرزينة وحكمة الشيخوخة . مجد الملوك وانتصار الاجناد . شهرة الشعراء وشرف اصحاب الرؤى والقديسين. كل هذه او ما تنطوي عليهِ انما يولد للآلهة . وتظل خبزاً غير مقدّس اذا لم ترفعها الآلهة الى افواهها . وكما تتحول الحية الصامتة الى اناشيد الحبّ اذا اكلتها الغابر . هكذا يتذوق الانسان الالوهية من حيث هو خبز للآلهة

ويمضي الآلهان في حوارهما على هذا النسق . اما الاله الثالث فيرى في الحبّ مجدَ الانسان فيحاول في الفاظهِ القليلة وصوتهِ الوديع النغم ان يوجه انظار الالهين الى فتى ينشد في الوادي يقول في وصفهِ « قيثارتهُ من ذهب وابنوس وصوتهُ من فضة وذهب »

والى فتاة ترقص في الوادي يبدع في وصف رقصها اذا يقول « حول قدميها الف جناح . ... واقدامها عملة بالاناشيد » وهكذا يمضي في توجيه انظارها الى اقتراب الفتى والفتاة دلالة على انتصار الحب . ويختم الكتاب بقول الاله الثالث

أنهضْ الآن واجرد نفسي من الزمان والمكان . وارقص في ذلك الحفل الذي لم يوطأ . فتتحرك اقدام الراقصة مع اقدامي . والشد في ذلك الجوّ الاعلى . فينبض صوت انساني في صوتي . انا سوف نمضي الى الشفق . وقد نستيقظ في فجر عالم آخر . ولكن الحبّ باقٍ . وآثار اصابعه لن تمحى . الكور المبارك يشتعل . والشرارات تتطاير . وكل شرارة شمسٌ . فخيرٌ لنا واحكم ان نبحث عن بقعة ظليلة نقام فيها ملتحفين بالوهيتنا الارضية . وان ندع للحبّ انسانيتنا وضعفنا ، السلطان على اليوم المقبل !

هذه بعض المعاني التي تبدو في سطور « آلهة الارض » ينقصها من الاصل روعة ذلك الاسلوب الانكليزي الفخم في بساطته وجماله ورنته الموسيقية . وينقصها كذلك ما ازدانت به من صور هي آية في الابداع ، تجسم المعاني تجسيماً

وقد وردت علينا صحف اميركا تحتوي الشيء الكثير عن وفاة جبران ومآتمه وتأبين الصحف العربية والاميركية له ، واحتفال ادباء العرب والاميركان بذكراه . فاخترنا ابيات الشاعر ايليا ابي ماضي نقلاً عن مجلة السمير . وهي :

ايها الشاعر الذي كان يشدو ... بين ضاح من الجمال وضاحك
جلّ ان يصيدك القدرُ الأعمى ويمشي مقصهُ في جناحك
موكب الشعر تائهٌ في فضاه ... ليس فيه سوى حطيم سلاحك

* * *

والبنات — والبلابل فيها ... تتغنى — حزينةً لرواحك
قنعت بالرواح منك فلما ... زال عاشت بذكريات نواحك

* * *

والدجى والنجوم تسطع فيه ... واجمٌ حسرةً على مصباحك
تلمس العين ايها لمسهُ ... جمرات التياحنا والقياحك
قد تولت جلالة السحر عنهُ ... واضمحلت مذ صار غير وشاحك

* * *

هبطت ربّة الحياة تبكي تسكب خمر الجمال في اقداحك

فاذا انت في السرير مسجّى صامت كالطيوف في الواحك
فتولت مذعورة تلطم الوجـــه وتبكيك — ياقتيل سماحك
سبقتها الاهة الموت كي تحـــظى ولو باليسير من افراحك
ويحها! ويح حبها من اثيم طـردتنا ولم تقم في ساحك
ايستروضك الجميل ولم تظفر بغير التراب من ادواحك

* * *

ذهب الموت بالكؤوس جميعاً غير كأس ملأتها من جراحك!

ايليا ابو ماضي

* * *

وهذه ابيات فاضت بها قريحة الدكتور ابي شادي لما رأى صورة « اليد المبدعة » التي جعلها جبران شعاراً له في معظم كتبه الانكليزية . وقد صدّرنا بها هذا الباب

رُوِّع الشعر ان يكون المعزّي والمعزّى للرزء في « جبران »
وبكت عبدهُ « مترفا » حبيباً وهب « الحكمة » امتثال البيانِ
شاعرٌ اغبتهُ أمسة شعـرٍ وسقتهُ اليونُ في « لبنان »
غاب عنها وذاب فيها دموعاً وهو ملء الاجرامِ والاوطانِ
عاش لا يرتجي سوى لفظة الرو ح يحيى بعيش فوق المعاني
ويحلّى لسمعِ انشادهِ الخا لد ما غاب من قرون الزمان
مات حيًّا في كل معنى سَرِيٍّ سربلتـــهُ الامواج بالالحان
مات موت الابطال في عهد (يو نان) وبزّ الابطال في الاحسان
شرّف العقل بالنفيس الذي يعـــلو بقدر الارواح والاديانِ
تلك آياتهُ : معانٍ من الخا لق سبحانهُ بلفظٍ ثانِ
صُوِّرت صورتين: احداهما الشعـــرُ واخراهما نقوش غوانِ
منهُ كلتيهما عواطف قلبٍ دائم الحس دائم الخفقانِ
تحذ الرمز في الحياة لهياً هو نفس تثور كالبركانِ
قدمتها يدٌ الى الناس اعزا زاً لحبّ الانسان للانسانِ
ذاك جبران في الحياة وفي المو ت رسول الخلود والايمانِ

ابو شادي

كتاب الدواجن

في الخيل والبغال والحمير والبقر والجواميس والضأن والمعز والابل

تأليف مصطفى الشهابي في صفحاته ٢٣٢ قطع وسط كبير طبع بالمطبعة الحديثة بدمشق ثمنه ١٢ قرشاً مصرياً

طُبع هذا الكتاب من بضعة اشهر واهدى الينا المؤلف الفاضل نسخة رآها احد اصدقاء المقتطف فأخذه ليطالعه وهو اديب عالم يملك الطبا تأويباشرها بنفسه، فرأى فيه من الفوائد العملية ما حمله على الاستئثار بالكتاب. فلم تتمكن من الاشارة اليه حتى تكرّم علينا صاحبه بنسخة أخرى. واستئثار صديقنا بالنسخة الاولى دليل على ما يحتوي عليه المؤلف من المادة الغزيرة العملية والعلمية في تربية الدواجن. ولا غرو فان مؤلفه الامير مصطفى الشهابي من نوابغ رجال العلم في سوريا وقد تلقى اصول علم الزراعة في مدرسة غرينيون الزراعية العليا وتخرج منها. وقد مضت عليه سنوات وهو يشغل منصب مدير املاك الدولة في دمشق اخرج في اثنائها كتباً زراعية هي من انفع المؤلفات العصرية نذكر منها «الزراعة العملية الحديثة» و «البقول» و «الاشجار والانجم المثمرة»

ومما تمتاز به مؤلفات الامير الشهابي توخي الفائدة العملية في ما يورده من حقائق العلوم الزراعية وتوخي الدقة في اختيار الالفاظ العربية المقابلة للالفاظ العلمية الفرنجية. وفي الحالين ينمّ انشاؤه العلمي بسمة الادب بلاغة ورواء

والكتاب جزآن. الاول يشتمل على فصول عامة تتناول وجوه التبدّل التي تصيب الدواجن، والوراثة كوراثة الامراض والعيوب ووراثة الخوارق والاعضاء المبتورة ووراثة الالوان، والانتخاب الطبيعي والصناعي. ثم بيان لطرائق التناسل وهو فصل نشرناه في المقتطف ذكر فيه الانتخاب والاصطفاء والتهجين والتخليط والتبديل. ثم فصلان بقيان عمليّان في اغذية الدواجن وساكنها. وختم هذا الباب بفصل في تصنيف عروق الدواجن بناء على شكل الجمجمة وشكل الجبهة ووزن الحيوانات وقدها والوانها

اما الجزء الثاني فيتناول فيه المباحث الخاصة بالخيل والحمير والبغال والبقر والجواميس والضأن والمعز والابل تناولاً مسهباً. ومن الفصول في باب الخيل ما نشرناه في المقتطف مثل الوان الخيل وشياتها وتحلية عروق الخيل والخيل العراب. وباب الخيل وحده يشتمل على اكثر من ٦٠ صفحة تناول فيها اوصافها على اختلاف ضروبها وطرق توليدها وتربيتها واهم امراضها وعيوبها ووسائل تعهدها ورياضتها وتغذيتها. والفصلان الخاصان بالبقر والضأن هما على هذا النحو من ايفاء البحث حقه

زعماء الادب العربي العصري

الجزء الاول — لطاهر خيري والاستاذ كمفاير — ٤٨ صفحة عربية و ٤ صفحات انكليزية

الغرض من وضع هذا الكتاب ان « يقدم به لقراء الغرب ولاسيما الذين يعنون بدراسة الادب العربي من طلبة الجامعات في الغرب بعض زعماء البلاغة العربية الحديثة مستنداً الى ما جمعهُ (الاستاذ خيري) من المعلومات ومستفيداً من الاستعلامات من الكتّاب انفسهم ومطالعة مؤلفاتهم من نظم ونثر » (مقدمة الاستاذ كمفاير) وقال الاستاذ خيري في مقدمته الانكليزية ما ترجمتهُ :

« . . . . لما كنت في مصر من ١٩٢٧ الى ١٩٢٩ حاولتُ ان اجمع معلومات عن شبلي شميل وفرح انطون فتعذر عليَّ ذلك . وكلُّ ما تمكنت من جمعهِ كان تتفاً ناقصة ومتناقضة فاقتضى هذا بوجوب كتابة شيء عن كتّاب العربية وشعرائها المعاصرين يمكن ان يستخدم مرجعاً لطلبة الادب العربي الحديث واساساً للكتّاب المستقبل في هذا الموضوع » . نقول ان الغرض مفيد حريٌّ بالبذل . ولكننا لا ندري الى من رجع الاستاذ خيري في طلب المعلومات عن الدكتور شبلي شميل وفرح انطون . فانا نعلم ان في مصر كثيرين من رفاق الرجلين واصدقائهما ممن يعرف الشيء الكثير عنهما مما يصح ان يكون اساساً لدراسات وافية

والطريقة التي جرى عليها المؤلفان في وضع الكتاب هي ايراد نبذة موجزة عن مولد الاديب ونشأته والمعاهد التي تلقى العلم فيها . ثم خلاصة لاتجاهه الادبي او الفلسفي الخاص ثم بيان مؤلفاته المطبوعة . وتقدير لادبه . وكل ذلك استناداً الى معلومات استقاها الاستاذ خيري من الكتّاب انفسهم او الى ما نشر لهم من المؤلفات او عنهم في المجلات والصحف. والكتاب حافل بهذه الاسانيد . وهذا الجزء يشتمل على مباحث في : علي عبد الرازق . مصطفى عبد الرازق . ايليا ابو ماضي . عباس محمود العقاد (مصوَّر) . منصور فهمي (مصور) . جبران خليل جبران . محمد حسين هيكل (مصور) . محمد عبد الله عنان . الآنسة « مي » . عبد القادر المازني . ميخائيل نعيمه . سلامه موسى (مصور) . طه حسين (مصور) هذا في القسم الانكليزي . واما القسم العربي فيشتمل على صفحات موجزة مختارة من كتابات الادباء المذكورين

وقد طالعنا الحقائق المذكورة عمن نعرفهم من الادباء فوجدناها دقيقة في الغالب . والآراء فيهم معتدلة . فالكتاب تحفة وعسى ان لا يطول انتظارنا لجزئه الثاني

ولدي

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل — صفحاتها ٢٠٠ قطع وسط — طبع بمطبعة السياسة بمصر ثمنه ١٥ قرشاً

هذا كتابٌ يحتوي على وصف ثلاث رحلات الى اوربا رحلها الدكتور هيكل مع زوجته الفاضلة في فصول الصيف من ١٩٢٦ و١٩٢٧ و١٩٢٨ الى بلدان اوربا المختلفة. وقد قدمهُ الى روح ولدهِ ممدوح الذي هُصر غصن حياته الرطب وهو لا يزال في السادسة لان الحزن الذي خلفهُ فقدهُ في نفسي والديهِ وخصوصاً نفس والدتهِ الثاكل حمل الوالد على الابتعاد بها الى بيئة جديدة تجديداً لصحتها وترويحاً لنفسها من الم الفجيعة التي نزلت بها

ولقد اجتمعت للدكتور هيكل في هذا الكتاب عناصر الادب المكمل. فوصف دقيق بليغ لمشاهد الطبيعة وآيات الفن، واحساس شديد متغلغل الى اعماق النفوس يبدي ما تخفيهِ قراراتها من طيوف الشعور، وعقل مثقف راوٍ لحوادث التاريخ محيط بمشكلات الامم من سياسية واقتصادية واجتماعية، واسلوب فياض خفيف الظل كالكتة البارعة على شفتي صاحبهِ، ينتقل بك في رفق وخفة لمس من وصف الى تحليل الى حكم اجتماعي وانت لا تدري. ولولا بضع هنات لفظية ووجوه من التعبير لا يسيغها الذوق العربي لاول وهلة لقلنا انهُ ابلغ الامثلة على الادب العربي كما يجب ان يكون، وهو مع ذلك من ابلغها

سئل كاتب مرة اي الكتب تشير بمطالعتها على الاديب. فقال ان الادب اعلى مراتب الثقافة والاديب يجب ان يكون عالماً بمبادىء العلم، مطلعاً على مذاهب الفلاسفة، محيطاً بحوادث التاريخ، ذا خيال يتسع لكل هذه ويصوغ منها صورة جديدة للحياة في اسلوب خاص. فلا سبيل الى ذكر الكتب التي يجب ان يطالعها وهو يجب ان يطالع كل شيء ويهضمهُ ويجب ان يقرأ كتاب الطبيعة المفتوح وان يقلب صفحات كتاب التأمل المغلق. ويلوح لنا ان الدكتور هيكل اقترب جد الاقتراب من هذا المثل في كتابهِ « ولدي »

من الطبيعي ان تكون بعض اقسام الكتاب افضل من البعض الآخر. ومن الطبيعي ان يجيد الدكتور هيكل وصف الحياة في باريس — وخصوصاً زيارتهُ للحي اللاتيني حيث تلتقي العلم — اكثر من اجادتهِ وصف لندن وقد زارها لماماً. ولكن اذا صرفنا النظر عن هذه الناحية من البحث وجدنا ان الكتاب ليس دليلاً كدليل يُذكر لا يحتوي من حياة المدن والبلدان الا على هيكلها العظمي فيتأبطهُ المسافر وكأنهُ تأبط شراً. وانما هو كتاب ينبض بالحياة — حياة البلدان والمدن بوصف عاداتها وطبائع اهلها وبحث مشكلاتها الاجتماعية ومشاهدها الطبيعية وآثارها واعلامها الفخمة — وهو ينبض كذلك بحياة الدكتور هيكل نفسهِ. حياتهِ النفسية اذ يفصح عما يشعر بهِ اذ تتوالى عليهِ المشاهد المختلفة وحياتهِ الفكرية

اذ يدوّن حكمهُ على نهضة تركيا ورأيهُ في مصير القطن الاقتصادي ومستقبل المساعي لتوطيد دعائم الوئام الدولي وجمعية الامم . كل هذا يشركك فيهِ الدكتور هيكل ويضيف اليهِ جوانب من تفكير زوجهِ الفاضلة وشعورها . اما الفصل الاول الذي وصف فيهِ فجيعتها بفقد ولدها ممدوح فمن ابلغ ماقرأنا في تصوير عواطف الابوة والامومة

مهيار الديلمي

رسالة تقع في ٤٨ صفحة من قطع المقتطف بقلم اسماعيل حسين استاذ الادب العربي في الجامعة الاميركية بالقاهرة . واهم ما يبدو غريباً في هذه الرسالة انها تنقض اهم المميزات المعروفة لمهيار . فالادباء في اجماع او في اكثرية تشبه الاجماع يقررون ان مهياراً من شعراء الطبقة الاولى في العصر الذهبي للشعر . وان مشايعته لاستاذه وصديقه الشريف الرضي افادته نموّ الدياجة كما افادته مادة الترفع بالنفس والطموح . وقد يتالى بعضهم فيضع شعراء العرب الخلص من امثال البحتري فصاعداً في صف ثم يجيء بابن الرومي وبشار ثم مهيار فيسلكهم في الصف الآخر قائلين أن في هؤلاء التقت فصاحة العرب بعمق عاطفة النفسية الآرية . الى ان جاء مؤلف هذه الرسالة فرفض ان يضع مهيار حتى في اضعف هذين الصفين فهو يرى كما جاء في صفحتي ١٢ و٢٦ من كتابه أن مهياراً ليس لهُ من شعره الا اللفظ والقافية والزين وتحدى القدماء بل هو قد يقصر كثيراً حتى عن مجاراة القدماء . اما نفسية مهيار كما كتب المؤلف في صفحة ١١ فقد نشأت على الطموح ولكنها لم تلبث حتى عادت في آخر هذه الصفحة نفسية قلقة طماعة تعبد المال وتكيف بكل تكييف يؤدي الى الحصول عليهِ . وطبيعي أن المؤلف الفاضل لاجل تدعيم وجهة نظره كان كثيراً ما يفسر شعر مهيار بما يتفق وتأييد وجهته غير مبال بمخالفة تفسيره لاسلوب فهم الادباء . انظر صفحة ٣٢ لترى كيف فسر الابيات التي يقول مهيار في آخرها تساوف وفاها المطال حدوده» لترى كيف استنتج منها ان مهياراً سيء الطبع ملح ملحف الطلب وكيف عاد المؤلف نفسه فابدى ما يبرر على الاعتذار لمهيار . وسواء اكان المؤلف مخطئاً في حق مهيار ام مصيباً فان مركز مهيار في الرسالة وان يكن هو موضوعها الا انه في الحقيقة لا يزيد عن كونه مجرد مثال لتطبيق النظريات التي يريدها المؤلف في البحث والنقد والتحليل . فان الغرض الاول من تأليف هذه الرسالة ليس الكلام عن مهيار وانما هو وضع النموذج الصالح للدراسة التحليلية لان المؤلف كما جاء في مقدمة كتابه يرى أن هذا النوع من الدراسة من اسمى الدراسات العصرية المجدية التي تقوى في الطالب ملكة الابتكار ولا شك ان

من هذه الناحية قد وفق ما أستطاع ونظرة واحدة الى العناوين الفرعية التي فهرس بها رسالته تدلُّ على انهُ يعرف كيف يتناول الموضوع

الدولة العباسية قيامها وسقوطها

الاستاذ حسن خليفة استاذ التاريخ والاقتصاد بدار العلوم العليا

هذا الكتاب في الاصل مذكرات وضعها المؤلف لطلبة دار العلوم تتناسب مع وقتهم وتكون مرجعاً لهم يعتمدون عليهِ من غير ان يلجأوا الى المطولات التاريخية . ودراسة التاريخ السياسي في دار العلوم تمشي مع دراسة الادب جنباً الى جنب في عصور التاريخ المختلفة . فكنا نود من المؤلف ان يجعل كتابه سجلاً للادب العربي في عصر الدولة العباسية وهو احفل العصور بالحوادث الادبية ولكنهُ — ولا ندري السبب — يعدُّ خلوَّ كتابه من هذه الحوادث مفخرة له . ولقد رجع المؤلف في دراسة كتابه الى عدة مراجع بعضها عربي وبعضها افرنجي وكان يتعرض في اثناء كلامه لمقالات بعض المؤرخين من الفرنجة والمسلمين ويتكلم على قيام الدولة العباسية وسقوطها بما لم يدع بعده مجالاً لمتكلم . فقد رتب التائج على الاسباب في تمحيص دقيق نعرفه عنهُ من تدريسه لمادة التاريخ في دار العلوم

ولا أجد كلمة اقدم بها هذا الكتاب الى القراء اكثر من انهُ هوَّن عليَّ كثيراً من البحث في هذا التاريخ المتشعب الاطراف وانني اعتددت به للامتحان وانا هادئ البال مطمئن الضمير . . . .

محمد عبد الغني حسن

حديقة الحيوان

كتيب في ٧٣ صفحة متقنة الطبع تشتمل على خطرات نفس وجه فيها المؤلف الخطاب الى اشهر الحيوانات بحديقة الجيزة وتنطوي على معان ادبية وشعرية وفلسفية . وعندنا ان الكتاب جيد من حيث هو خطرات ادبية . ولكن الصغار لا يتعلمون حب الطبيعة ولا يتعودون قوة الملاحظة من قراءة هذه الخطرات . فوصف الحديقة يجب ان يكتب بقلم عالم بالحيوان رشيق العبارة عارف بنفسية الصغار . فيسرد لهم الحقائق العلمية في ثوب أخاذ يستهويهم

مجلة المعرفة

مجلة عربية جديدة تصدر في مصر بعناية الاستاذ عبد العزيز الاسلامبولي . وقد جاءنا العدد الاول منها مشتملاً على مقالات ادبية وفلسفية نفيسة بأقلام طائفة من كبار حملة الاقلام في مصر كالدكتور منصور فهمي والشيخ مصطفى عبد الرازق واحمد شفيق باشا والاستاذ

محمد فريد وجدي وغيرهم . وهي في ١٢٨ صفحة مزدانة بصور كثيرة . وعنوانها شارع بيت القاضي رقم ٥ . فنتمنى لها نجاحاً في مهمتها التهذيبية لخدمة الثقافة في أسمى معانيها

مجلة الاصلاح

اهدى الينا الدكتور جورج صوايا اعداد السنة الثالثة من مجلة « الاصلاح » في ثوب جديد قشيب فألفيناها من ارقى المجلات الشرقية وفرة وتنويعاً في المادة وعناية بالطبع . وحبذا لو عني قلم التحرير بتحقيق بعض الالفاظ في المقالات العلمية التي يترجمونها . فقد جاء في صفحة ١٠ سطر ١٦ من العدد الثالث لفظة ساتورن للسيّار الذي يلي المشتري . وقد ذكر هذا السيّار عند العرب بلفظ (زحل) واشار اليه الشيخ ناصيف اليازجي بهذا الاسم في البيت الذي جمع فيه اسماء السيارات المعروفة عن العرب . والعدد الذي بين ايدينا ٧٤ صفحة من قطع المقتطف او اكبر قليلاً وعنوان ادارتها شارع سان مارتن رقم ٦٤ بيونس ايرس عاصمة الارجنتين

مجلات مدرسية

امامنا اربع مجلات مدرسية جديرة بكل تشجيع وثناء . وهي مجلة رقي المعارف تصدرها مدرسة رقي المعارف الثانوية . ومجلة المدرسة العباسية الثانوية . ومجلة مدرسة الملك فؤاد الاول الثانوية بسوهاج . ومجلة مدرسة اسيوط الابتدائية الاميرية . والاولى اكبر الاربع حجماً وأغزرها مادة . ولها غلافان مطبوعان بالالوان طبعاً متقناً وكلها تشتمل على مقالات ونبذ وفوائد علمية وأدبية بأقلام بعض مدرسي المدارس ونخبة من طلابها . ونخص بالذكر المحاضرة النفيسة التي اشتملت عليها مجلة مدرسة الملك فؤاد الاول الثانوية بسوهاج التي القاها الاستاذ احمد فهمي ابو الخير في موضوع « حرب الغازات »

فنهنىء القائمين بأمر هذه المجلات لما يبدو في آثارهم فيها من حسن استعداد لخدمة الصحافة الراقية بعد تخرجهم من المدارس

مكتبة الفجالة المصرية

اهدى الينا عبد الحميد محمود افندي صاحب مكتبة الفجالة المصرية فهرست الكتب والمطبوعات التي تباع في مكتبته وهو في ٢٢٤ صفحة ويرسل مجاناً لمن يطلبه خالصاً اجرة البريد . ومن شروط هذه المكتبة ان كل طلب يزيد قيمته على مائة غرش يرسل لصاحبه خالص اجرة البريد داخل القطر المصري والسودان

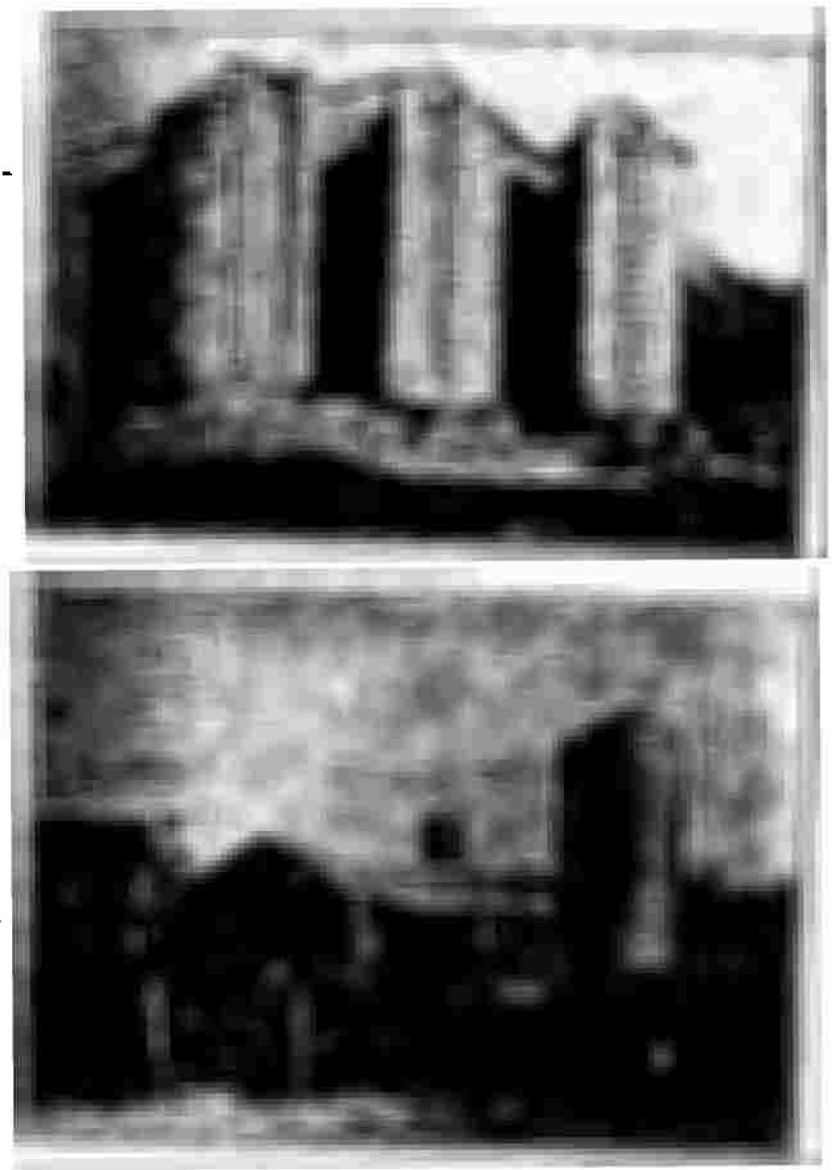

طريقة جديدة لحفظ علف المواشي الاخضر

امام صفحة ٧٥٠

مقتطف يونيو ١٩٣١

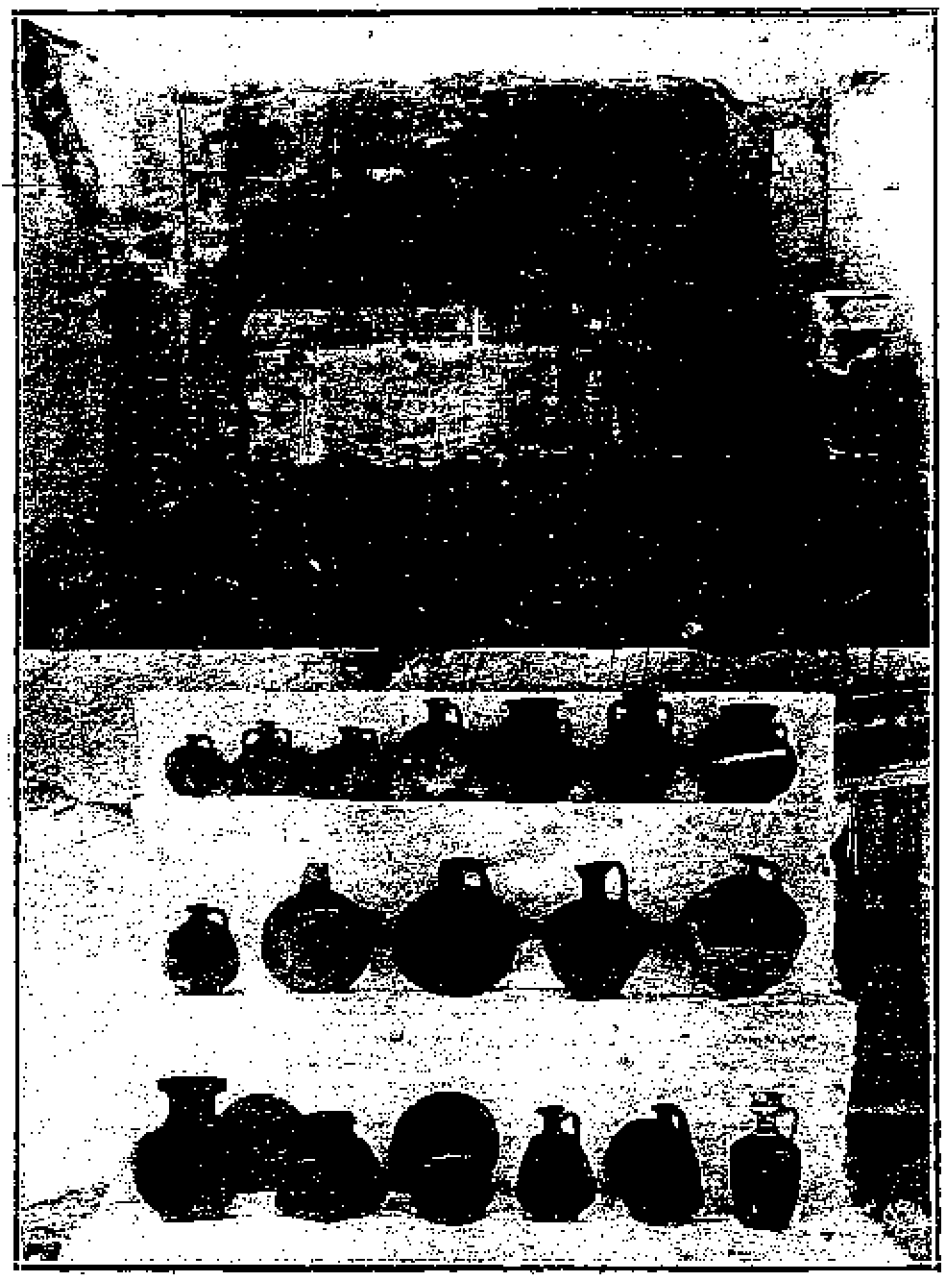

(فوق) حائط ملوّن بالازهار (تحت) نماذج اوانٍ من الفخّار مثالية
وملوّنة وُجدت بالقرب من المعبد اليوناني المصري (قرن ٢ و ٣ م)

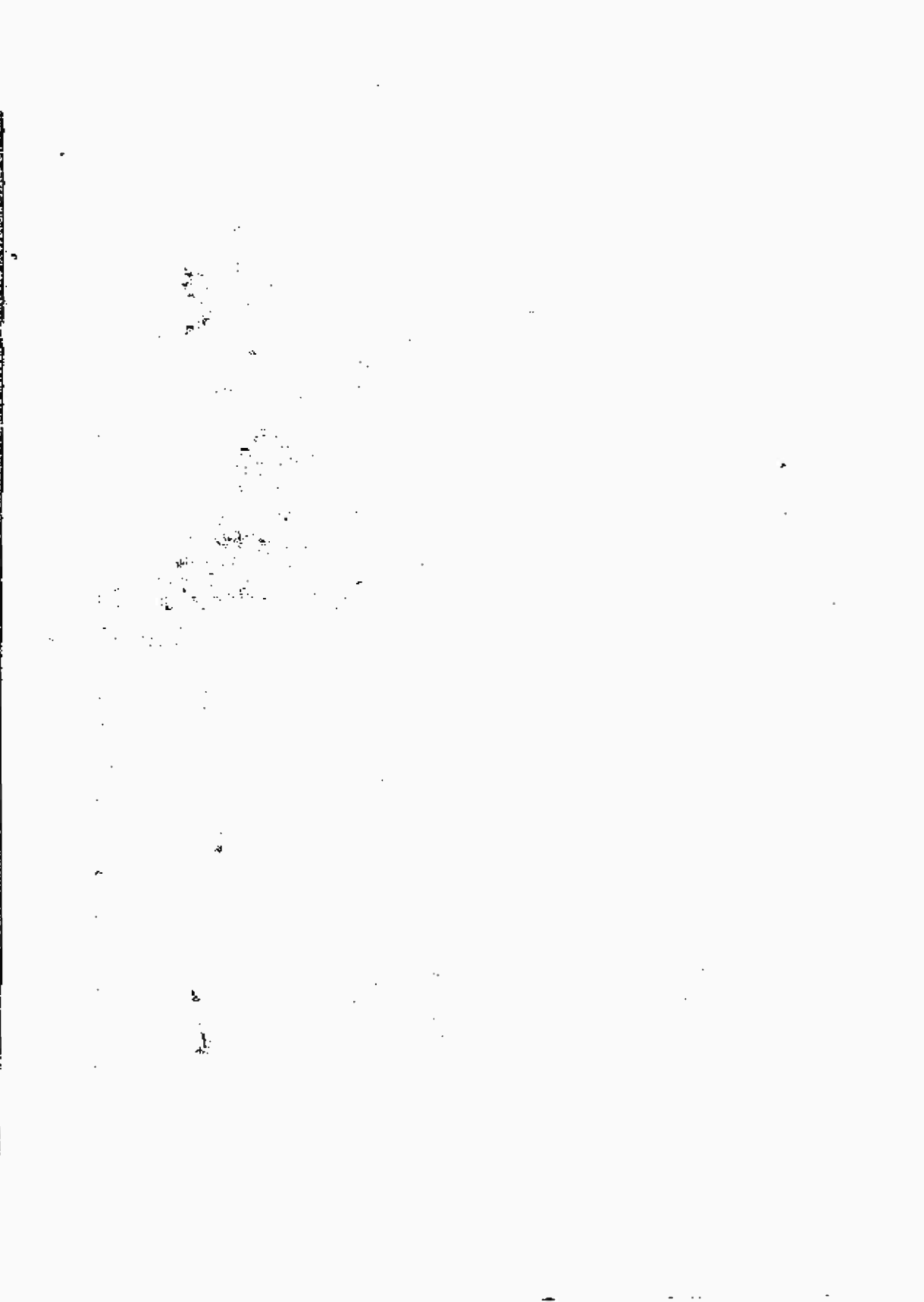

باب الأخبار العلمية

وفاة الاستاذ ميكلسن
Prof. A. A. MICHELSON

نُعي الينا العالم الاميركي المشهور الاستاذ البرت ميكلسن صاحب التجربة المشهورة بتجربة ميكلسن مورلي التي بنيت على نتائجها نظرية النسبية. توفي في ٩ مايو الماضي بالغاً من العمر ٧٩ سنة. وقد كان الى سنة ١٩٢٩ استاذاً لعلم الطبيعة في جامعة شيكاغو فاستقال في آخر تلك السنة ليتصل بمعهد باسادينا العلمي بكلفورنيا ليقوم بتجربة مبتكرة الغرض منها التدقيق في قياس سرعة النور

وُلد ميكلسن في بولونيا في ١٩ دسمبر سنة ١٨٥٢ وجاء مع والديه الى الولايات المتحدة الاميركية لما كان طفلاً في الثانية من عمره. وعيّنهُ الرئيس غرانت طالباً فوق العادة في المعهد البحري بأنا بوليس ولما تخرّج عُيّن مدرساً للطبيعة. ثم استقال من منصبه هذا وقصد الى اوربا لكي يتوسع في درس الطبيعة ولدى عودته منها عين استاذاً في مدرسة عالية بكليفلند ثم نقل منها استاذاً الى جامعة شيكاغو

آثاره العلمية

اما آثار الاستاذ ميكلسن العلمية فأشهرها تدقيقهُ في قياس سرعة النور بطريقة المرايا التي استنبطها فوكولت واستنباطهُ للانتر فرومتر الذي استعملهُ اولاً في تجربته المشهورة (سنة ١٨٨٧) المذكورة آنفاً ثم استعمله في مطالب علمية اخرى كلٌّ منها جديد في بابه مثل تعيين طول «المتر المقياس» بأمواج النور وقياس اقطار الكواكب البعيدة وامتحان اثر دوران الارض في سرعة النور. وكل النتائج التي اسفرت عنها هذه المقاييس كان لها اثر كبير في العلم الطبيعي الحديث. فعلى تجربته المشهورة بنى اينشتين مذهبهُ في النسبية. وقياس «المتر المقياس» بأمواج النور جهز العلماء بمقياس لا يتأثر بالعوامل الطبيعية كما يتأثر كل «متر معدني». وقياسهُ لاقطار الكواكب البعيدة بالانتر فرومتر مكّن العلماء الفلكيين من استعمال هذه الآلة في حل النجوم المزدوجة التي لم تعرف قبلاً انها مزدوجة لبعدها وبهذا اكتشفوا تيرقطر «ميرا». وقد استنبط طريقة لتكبير النور وحلّهِ بواسطة لوح زجاجي مخطط خطوطاً دقيقة قريبة جدًّا بعضها من بعض Diffraction Grating فكانت هذه الطريقة اداة فعالة في ايدي

علماء الطبيعة في درس الخطوط الطيفية وهي التي أصبح لها في الطبيعيات الحديثة مقام كبير. ثم استنبط آلة تستعمل في تخطيط الواح من هذا القبيل. وفي سنة ١٩٢٦ اعاد تطبيق طريقة المرايا على قياس سرعة النور ولكنهُ استعملها حينئذٍ في قياس سرعة شعاعة من النور بين جبلين يبعد احدهما عن الآخر نحو ٨٠ ميلاً. ولكي يزيل ما يحتمل وقوعهُ من الخطإ قاس المسافة بين مركزي الآلتين على قمتي الجبلين قياساً لم يسبقهُ احد اليه في دقته وقد نال جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٠٧ وهو اول اميركي نال جائزة من جوائز نوبل على الاطلاق. ومنحتهُ الجامعات والجمعيات العلمية اعلى درجاتها واوسمتها

رأي جديد في سبب الجنون

شرح الدكتور ويلدر بانكرفت الاستاذ في جامعة كورنل الاميركية والدكتور هومن رتشر الكيماوي في مجلس البحث الوطني الاميركي نظرية جديدة في سبب الجنون امام اعضاء اكادمية العلوم الاميركية بوشنطن فقالا ان كون الانسان سليم العقل او مختلهُ يتوقف على قوام الهلام الدماغي. فاذا كان هذا الهلام اكثف قواماً من المتوسط الطبيعي اصيب الانسان بنوع من الجنون واذا كان الطف قواماً اصيب بنوع آخر. والاول يعالج بادوية من قبيل مركبات البروموز الكيماوية فتلطفهُ والثاني يعالج بالقهوة والكحول فيكثفانه

ذلك ان المادة التي يتركب منها الدماغ والاعصاب مادة غروية مثل الهلام المستعمل في الطعام وزلال البيض والميونيز الذي يصنع للسمك. ورأي الدكتورين بانكرفت ورتشر يقوم على ان غرويات الدماغ السليم من كثافة معينة. فكل ما يؤدي الى زيادة كثافته يحدث تهيجاً فجنوناً يليهما نوم فتقد للشعور فموت. وفي الامكان مكافحة هذه التغيرات بعقاقير تمنع تكثيف المادة الغروية وتجميدها. وكل ما يفعل بهذه المادة فيجعلها اكثر لطفاً يسبب جنوناً كذلك ولكن من نوع آخر قد يفضي الى الموت. والمصابون بهذا النوع من الجنون يستفيدون من المعالجة بعقاقير تكثف المادة الغروية كالقهوة والشاي او عقاقير اقوى فعلاً كالمورفين والكوكايين والاتروبين والحشيش

واستعمال هذه العقاقير لا يجدّد حياة النسج التالفة الزهري او ما هو من قبيله ولكنهُ يمكن الطبيب من اعادة غروية الدماغ الى حالتها الطبيعية من حيث الكثافة. واذا حقن مصابٌ بكثافة المادة الغروية بمادة تلطف قوامها وكانت الجرعة اكثر مما يحتمل اصيب بنوع الجنون الناشيء عن لطف المادة الغروية والعكس بالعكس

ضوء القمر والمخاطبات اللاسلكية

ثبت للدكتور هارلن ستتسن احد علماء مرصد بركز الاميركي ان ضوء القمر كضوء الشمس يحدث خللاً في المخاطبات اللاسلكية. وقد صرّح برأيه هذا في رسالة

تلاها امام اعضاء معهد المهندسين الكهربائيين الاميركي وجمعية نيويورك الكهربائية

فقد درس الدكتور سنتن قوة الاشارات اللاسلكية المتبادلة بين نيويورك وبوسطن في بضع السنوات الاخيرة فتبين له ان التقاطها كان اوضح جداً في اثناء غياب القمر. ويُظَنُّ ان سبب ذلك هو وجود شحنة كهربائية سالبة على القمر

وقد عني المهندس بُرْكر كل احد ضباط البحرية الاميركية بدرس اثر ضوء القمر في وضوح الاشارات اللاسلكية التي طول امواجها ٤٠٠٠ متر من غير ان يدري بمباحث مرصد بركنز. وقد وصل الى النتيجة ذاتها. ولكنهُ يعللها كما يلي: —

من المعلوم ان الامواج اللاسلكية تقطع مسافات طويلة لانها تنكس من طبقة من الدقائق المكهربة في اعالي الجوّ تبعد عن سطح الارض نحو سبعين ميلاً. فهذه الطبقة اشبه شيء بمرآة تنكس الامواج اللاسلكية كما تنكس المرآة المفضضة امواج الضوء. وتعرف في الدوائر العلمية باسم «طبقة كنلي وهيفسيد» وهما اللذان كشفا عنها. فالملازم بركر يعتقد ان هذه الطبقة تنخفض اذا كان القمر في السمت. وبذلك يتطرق خلل الى التقاط الامواج اللاسلكية. وهذا العمل شبيه بعمل الشمس. ذلك ان الشمس تطلق من سطحها كهارب او مقادير من القوة فيصيب بعضها جوّ الارض فتمزق جزيئات الهواء. فاذا زاد فعل الشمس عن متوسطه العادي لسبب ما، كظهور كلف كبيرة، زاد انطلاق الكهارب منها وزاد تكهرب الجوّ نتيجة لذلك فينجم عن ذلك انخفاض طبقة هيفسيد نحو سطح الارض. وقد ثبت من بحث مستقل آخر ان اضطراب المخاطبات اللاسلكية يزيد في السنوات التي تكثر فيها الكلف

الحامض الكربونيك وحرارة الجو

اذا تضاعف مقدار الحامض الكربونيك في جوّ الارض هبطت حرارتها هبوطاً يكفي لان يكون سبباً في حلول عصر جليدي آخر على سطح الارض. هذه هي نتيجة المباحث التي قام بها الدكتور هلبرت احد علماء معهد المباحث البحرية في الولايات المتحدة الاميركية. فقد ثبت من بحثه ان مقدار اكسيد الكربون الثاني الذي في الجوّ يمتص جانباً كبيراً من حرارة ضوء الشمس فلا يدعهُ يصل الى سطح الارض. فاذا زاد مقدارهُ في الهواء او نقص كان لذلك اثر كبير في حرارة الارض. لانهُ اذا زاد كثر امتصاصهُ لحرارة ضوء الشمس فيبرد سطح الارض كثيراً. وكان الطبيعي الانكليزي تندل قد ارتأى سنة ١٨٦٠ ان تغيراً في مقدار اكسيد الكربون الثاني الذي في الجوّ قد يكون كافياً لاحداث العصور الجليدية فقوبل رأيهُ بالانكار والهزء الى ان ثبت من مباحث هلبرت ومباحث رجل آخر يدعى مارس ان لرأيهِ أساساً علميًّا يستند اليه

الصرع والبلاغرا

لاحظ الدكتور ووكر في احد المستشفيات الاميركية في ولاية جورجيا الاميركية انهُ اذا غذي المصابون بداء الصرع بطعام كثير الدهن تحسنت حالتهم من حيث اعراض الصرع ولكنهم يصابون بالبلاغرا وهو المرض الذي يصاب به الفقراء المقلة فيتامين G في طعامهم

فعني هو والدكتور هوبر احد اطباء مصلحة الصحة العامة بوشنطن بدرس عشرة مصابين بداء الصرع. فوجدوا انهُ اذا غذوهم بطعام كامل الا انهُ خالٍ من فيتامين قلت كثيراً نوبات الصرع التي تصيبهم وتحسنت الاعراض العصبية التي تصحب الصرع عادة ولكنهم اصيبوا من جراء ذلك بالبلاغرا فلما عولجت البلاغرا بتغذيتهم بالخميرة — اي بمادة غنية بفيتامين — عادت اعراض الصرع الى كثرتها وقوتها الاولين

على انهما لا يحكمان حكماً قاطعاً في ما يترتب على هذه التجارب ولا يقترحان معالجة الصرع بالبلاغرا على نسق معالجة الشلل العام بالملاريا. وانما يشيران الى ان هذا ميدان واسع للبحث الجدي

مزاحم لسمك القد

يظهر ان مقام سمك القد كأغنى مصدر لفيتامين (ا) مزعزع الاركان. فقد كتب الاستاذ بولسن احد علماء معهد الفيتامين الحكومي في بلاد نروج ان فصيلة القد تشتمل على ٧٠ ضرباً او ٨٠ كلها غنية بالفيتامين غنى سمك القد نفسه وان هناك اسماكاً من غير فصيلة القد تفوق القد في ما تحتويه من هذا الفيتامين

ففصيلة اسماك القرش مثلاً يستخرج من اكبادها زيت يحتوي على مقدار من الفيتامين (ا) يفوق مقداره في زيت كبد القد نحو ثمانية اضعاف وزناً بوزن. ولكن مقدار فيتامين (د) في زيت كبد القد يفوق مقداره في زيت القرش. ثم ان معرفة طبائع سمك القد ودقتهُ في وصوله الى بعض البحار في مواعيد مضبوطة يجعل صيده واستخراج الزيت منهُ اسهل وأضبط

من البحر الاحمر الى بورسعيد

يرى القارئ في الصفحة المقابلة صورة سرطان (ابو جلمبو) قطع ترعة السويس من السويس الى بورسعيد في ٢٩ سنة والمسافة نحو مائة ميل بمتوسط ٢٢ بوصة في الساعة. شوهد من ٢٩ سنة في البحر الاحمر فكتب التاريخ على نوح صغير وربط بهِ ووصل من عهد قريب الى بورسعيد واللوح لا يزال مربوطاً بهِ والفضل في هذا البحث للاستاذ غروفيل الفرنسي من علماء حديقة الحيوانات في باريس. وقد مضت عليهِ سنون وهو معنيٌّ بدرس حركة الاسماك والاصداف بين المحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط بمعاونة في ذلك بعض علماء جامعة كمبردج

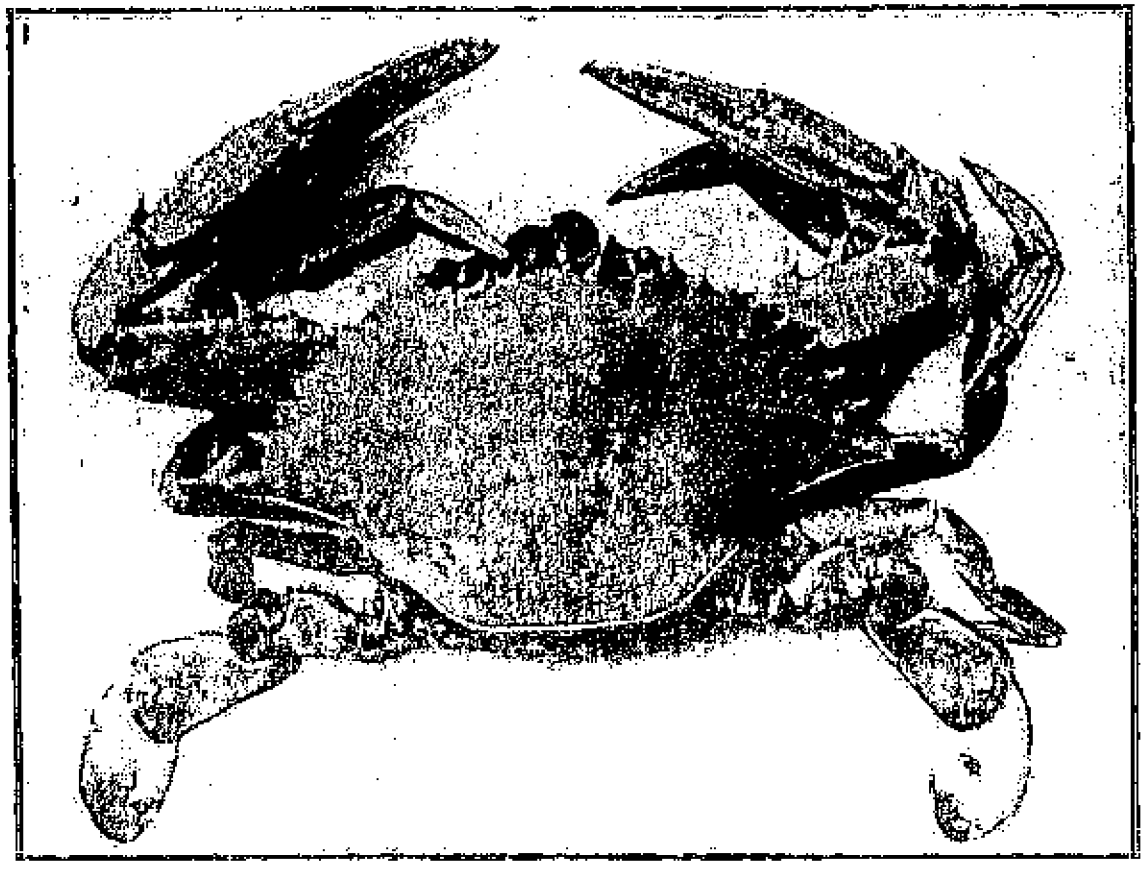

من البحر الاحمر الى بور سعيد في ٢٩ سنة

حنطة المدافن القديمة

سرى الاعتقاد بين الناس ان في القبور القديمة حنطة اذا اخذت حبوبها وزرعتها افرخت. وأشار بعض الكتاب من عشرات السنين الى الحنطة المعروفة «بحنطة المومياء» المأخوذة من مدافن مصر القديمة. فلما كشف المستر كارتر عن مدفن توت عنخ آمون عني الباحثون بهذه المسألة من جديد. والآن يدعي أحد الزراع الاميركيين انهُ اخذ حنطة اصلها من مدفن توت عنخ آمون وزرعها فأفرخت ونمت. واذاعت الصحف هذا القول على انهُ حقيقة علمية لا مراء فيها والواقع ان المسألة انما هي مسألة حيوية البزرة. فبعض البزور لا تفرخ بسرعة فيقال عنها انها في حالة كامنة وهذه الحيوية تختلف باختلاف البزور. فالبلوطة تظل حية مدة فصل واحد مع ان بزور الفجل البري تظل كذلك من عشرين الى ثلاثين سنة. وبزور الحنطة تفرخ احياناً وهي لا تزال في السنبلة اذا اصابت من الرطوبة والدفء ما يكفل ذلك. وقد ذكر الاستاذ همزلي في مجلة نايتشر من نحو ثلاثين سنة لدى معالجته لهذا الموضوع ان حبوب الفول التي مضى عليها نحو مائة سنة محفوظة في متحف تورنتور افرخت لما زرعت. وأن بزور المستحية (عيسى) تحتفظ بحيويتها وقدرتها على الافراخ نحو ٦٠ سنة.

اما احتفاظ حبوب الحنطة بمقدرتها على الافراخ الوف السنين فمسألة اخرى. وقد كتب السر ولس بدج رسالة الى التيمس في ٢٣ ابريل الماضي ذكر فيها انهُ اعطى حبوباً من مدفن يرجع تاريخهُ الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد الى السر وليم تيلستن دير ليمتحنها لهُ في المحطة الزراعية بكيو فثبت انها لا تفرخ وقد جرب ذلك كثيرون من الباحثين ووصلوا كلهم الى النتيجة نفسها. ولكن لا بد من تعليل النتائج التي حصل عليها بعضهم اذ تمكنوا من افراخ بزور يقولون انها من مدافن قديمة جداً. فهل هم متأكدون ان البزور نفسها قديمة جداً. اذ المشهور ان مدافن المصريين القدماء نبشت مراراً واستعمل بعضها اهراء للحنطة. فلا يجوز ان تكون الحبوب التي أنبتها المزارع الاميركي حديثة العهد؟ ثم ان حبوب الحنطة القديمة اصبحت مشهورة جداً بين السياح فيدس الفراخة حبوب الحنطة في الارض ثم يبيعونها امام السياح جلباً لرضائهم وتشجيعهم. الحبة التي تستطيع الافراخ حية لا تزال حية تتنفس. والانحلال سار فيها ولو كان بطيئاً لانها تخرج من مادتها شيئاً بالتنفس ولا تأخذ شيئاً بالغذاء وسرعة هذا الانحلال تختلف ولكن لا يحتمل ان يستغرق آلاف السنين

تسمية جبل افرست

جبل افرست اعلى قمة في جبال حملايا واعلى قمة فوق سطح الارض على ما يعلم شاهده رجال المساحة الهندية اولا سنة ١٨٤٩ ولكنهم لم يتحققوا من علو الشاهق الا

بعد انقضاء ثلاث سنوات على مشاهدته الاولى . لانك اذا نظرت اليه من سهول نيبال رأيته قمة بين قمم كثيرة منطادة في الجوّ وبعده عن حدود الهند — لانهُ في الناحية الاخرى من نيبال — يمنع مشاهدته من الهند نفسها . لذلك لم يعجب رجال المساحة اذا لم يجدوا له اسماً هندياً . فاقترح اولاً ان يدعى باسميه النيباليين وهما « دفلاهونجا » و« جاورشنكار » . ثم ثبت ان الاول ليس اسماً لقمة والثاني يطلق على قمة اخرى . وكان لا يسمح لهندسي المساحة في تلك الايام الدخول الى تبت فلم يعرفوا اسمهُ في تبت وكان لابدَّ لهم من تسميته باسم ما فأطلق عليه سنة ١٨٦٥ اسم السر جورج افرست احد كبار موظفي مساحة المثلثات بالهند

والآن يقترح الدكتور سڤن هدن الرحالة المشهور العدول عن اسم جبل افرست الى اسم « كومولونجما » وهو اسمه في تبت ولكن نايشر تقول ان « كومولونجما » يطلق في تبت على منطقة لا على قمة واحدة . وان العدول عن اسم مشهور متداول في كل كتب الرحلات وكتب الجغرافيا عمل لا تجنى منهُ فائدة ما

السينما والاختراع الجديد

يصح تشبيه سرعة شيوع السينما بسرعة شيوع السكرات والدخان ولو ان وجوه الشبه تكاد تكون معدومة ويجوز تشبيهها بشيوع الطباعة ولو انها اسرع من هذه واعم لان شيوع الطباعة يقتضي تعلم القراءة وهو ليس بسهل في حين ان شيوع السينما لا يحتاج الى جهد خاص لحضور التمثيل بضع مرات يكفي لفتح العيون للاحاطة بالمناظر التي تعرض فيها بعد

وقد تقدم فن السينما تقدماً عجيباً في مدة قصيرة فبعد ما كان صامتاً صار ناطقاً وفيه الانشاد والعزف بالموسيقى وبعد ما كان بلون قاتم صار ملوناً ولم يبق امامه سوى امر واحد وهو تجسيم المناظر والاشخاص اي اظهارها بالحجم من حيث الطول والعرض والعمق او الثخن وهو ما لم يتح حتى الآن فمتى تيسر لا يبقى للتمثيل المسرحي مزية على السينما وصار من المستطاع تمثيل جميع الروايات وروايات الاوبرا بالسينما واختيار اعظم الممثلين والممثلات والمنشدين والمغنيات للروايات السينمائية

وفي انباء انكلترا انهم وفقوا فيها الى اختراع جديد في تلوين افلام السينما سيحدث انقلاباً عظيماً في هذه الصناعة وليس في هذا شيء من الغرابة فان صناعة شائقة هذا الشيوع وفي النجاح فيها ربح مالي وشهرة واسعة يكثر المشتغلون باتقانها واجادتها ويعظم عدد المولعين بها من الرجال والنساء ولا سيما الفتيان والفتيات . وفي الدنيا اليوم الوف من الفتيان يطمع كل منهم بأن يكون شفاليه او نافارو او مانجو والوف من الفتيات تطمع كل منهن بأن تكون جريتا جاربو او ماري

بكفورد او بولانجري او نورما شيرر

ان هذا النجاح العظيم من الوجهة الصناعية والتجارية سيؤول الى زيادة الاقبال على السينما واكثار انصارها وبالتالي زيادة خطرها اذا لم يقابل بزيادة التدقيق والعناية بما يعرض والذين يشهدون العرض . ففي بعض مدن اوربا لا يسمح للاولاد الى سن العاشرة بحضور التمثيل في ساعة متأخرة من المساء والى ما دون الخامسة عشرة في مواعيد اخرى وهنالك روايات معينة لا يجوز ان يشهدها القاصرون من البنين والبنات

وفي بلدان اخرى يشترطون على دور السينما ان تعرض مناظر تعليمية وتهذيبية

والخطر الاكبر هو من التذرع بالسينما لبث الآراء والمذاهب الاجتماعية الضارة في قالب روايات لطيفة تستوقف النظر وتستهوي الافئدة

ترى هل نحن مقبلون على عصر تصير فيه التياترات ودور الاوبرا من الآثار القديمة ولا يبقى سوى دور السينما ودور اللهو المعروفة بميوزيك هول

علاج جديد للانيميا

اذا غمست الواحاً من الحديد والنحاس في اللبن حتى تذوب منها مقادير ضئيلة فيه وأُخذ هذا اللبن وغذي به المصابون بالملاريا نجح فيهم هذا العلاج. هذا رأي الدكتور ماكجي Mc Ghee الكيماوي الحيوي بجامعة اموري في ولاية جورجيا الاميركية . ويطلق على هذا اللبن اسم اللبن المعدن Metallized وباسمياله يستطيع المصاب ان يتناول جرعة ضئيلة من النحاس والحديد يبلغ وزنها ربع وزن طابع من طوابع البريد . والغريب ان اللبن المعدن لا يختلف عن اللبن الطبيعي رائحة وطعماً ولوناً وانما يجب ان تكون الالواح المعدنية نقية من الشوائب

أخبار متفرقة

في منتصف ابريل الماضي وقع انقلاب في نظام حكومة اسبانيا اذ غادر الملك الفونسو واسرته مدريد عاصمة مملكته الى فرنسا على اثر الانتخابات التي فاز فيها الجمهوريون فتألفت حكومة جمهورية برآسة السنيور زامورا واعلنت زوال الملكية في اسبانيا

* * *

فوجيء الناس في مصر في مساء ١٣ مايو الماضي ببيان تناول سمو الخديو السابق عن كل دعوى له على عرش مصر واعترافه بالنظام الحالي للمملكة المصرية واعلان ولائه لجلالة عمه الملك فؤاد الاول

* * *

نشرنا في صدر هذا الباب طائفة من صور الآثار التي عثر عليها في تونة مدينة هرموبوليس المقدسة . والبعثة التي تنقب هناك تمثل الجامعة المصرية ويرأسها الدكتور سامي جبره احد امناء المتحف المصري ومدرس الآثار المصرية القديمة بكلية الآداب

الجزء السادس من المجلد الثامن والسبعين

صفحة

٦٤١ اساطين العلم الحديث : هنري موزلي (مصورة)

٦٤٩ المعركة اليومية في الجسم البشري . للدكتور علي توفيق شوشه بك

٦٥٥ لورلس في الميزان . للدكتور عبد الرحمن شهبندر

٦٦٤ وقفة الوداع (قصيدة) . لمحمود ابو الوفا

٦٦٥ منطق الاكتشاف والاختراع (مصورة)

٦٧٣ حنين العرب الى بني امية . للاستاذ بندلي جوزي

٦٧٩ جفاء الطبيعة (قصيدة) . لحسن كامل الصيرفي

٦٨١ ديدرو وعصر الانسكلوبيديا . للاستاذ هارولد لاسكي (مصورة)

٦٨٩ ادغام النفس في الاشياء والناس . لاديب عباسي

٦٩٥ التوراة مستوحى الكتاب . لالياس ابو شبكه

٧٠٠ الاشعة والحياة . للدكتور لبيب شحاته

٧٠٨ دمعة القلب . لاناطول فرنس (مترجمة)

٧١١ فروق الذكاء

٧٢٦ النظرية السلوكية . للاستاذ يعقوب فام

٧٢١ مكانة سوريا في التاريخ العالمي . لاحمد بديع المنربي

٧٢٧ التاريخ المركب

٧٣٠ المواد المخدرة تفتك بأمة .للدكتور عبد الوهاب محمود

٧٣٤ حطام (قصة)

---

٧٢٠ باب المراسلة والمناظرة * كتاب الامبراطورية المصرية في عهد محمد علي : للدكتور محمد رفعت

٧٤٥ باب الزراعة والاقتصاد * رواية الازمات الاقتصادية . حفظ الملف الاخضر (مصورة)

٦٢٠ مكتبة المقتطف (مصورة)

٦٣١ ملف الاخبار العلمية * وفيه ١٤ بلدة (مصورة)